بولس سلامه

حكاية عمر

•

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

حكاية عنبر

الطبعة الاولى – ١٩٦٢



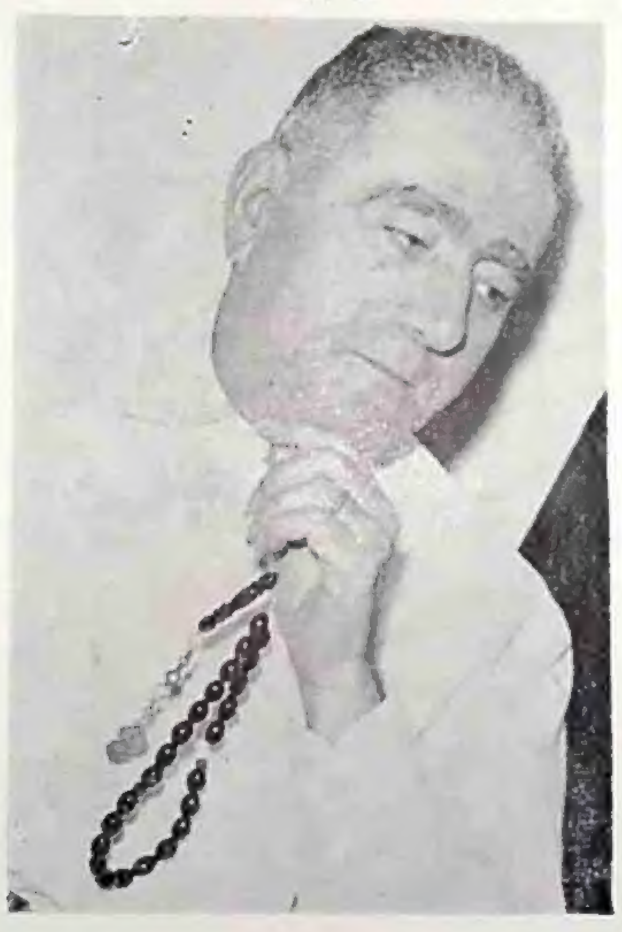
بولس سلامه
في السادسة من العمر



فادي سلامه في الخامسه من العمر
حفيد الاستاذ بولس سلامه



بولس سلامه في العاشرة من العمر



في الستين من العمر



في الرابعة والعشرين من العمر



في الثامنة والعشرين من العمر



في الثانية والثلاثين من العمر

إلى شريكة حياتي

تصدير

هذا المؤلف جزآن ، أولهما رسالة مسهبة ، وثانيهما مقـــالات مختلفات ، نفّست بهنّ على الضياع – ولقد ذهب الإهمال بعشرات من أخواتهنّ – فأحببت أن ينظمها كتاب .

ولو ان حفيدي قد بلغ سنّ الرشد لأدّيت رسالتي مشافهةً . وخشيت أن أغَيَّب عن الدنيا، قبل أن يستفيق هو عليها فأفضي اليه بكلام حميم، فسطرت حديثي بالقلم ، وكان في نيّتي أن يبقى خطّاً مخفياً ، فيكون تذكاراً وتاريخاً ووصيّةً في آن واحد . وأطلعت أحد خلاّني على مقصدي ، فنصح لي أن أنشر في الناس ما كنت قد هممت بطيّه، فقد تفيد منه العامّة فضلاً عن الخاصة.

فاعتذرت لِمَا في الرسالة من جوانب صميمة ، تبدي مَقاتلي لأرباب النقد ، ولا سيا حين أزكّي نفسي وأهلي ، لأن البذلة التي يرتديها المرء في بيته لا تصلح لزيارة الأجانب . فقال صديقي : « بهذه البذلة أريدك ان تظهر للملأ فتكون قمّةً في الصراحة ، كما كنت قدوةً في الصبر . »

وهآءنذا أبرز للقارىء مجرّداً فأرفع الكلفة وأسقط الحجـــاب ، فأحدثه بمثل البساطة التي أحدّث بها حفيدي راشداً ، فأكتب غير متأنق .

ولقد ورد في تعريف الله عزّ وجل انه روح بسيط ، فمنه تعـــالى أستمدّ تلك البساطة الواعية ، واستغفره لي ولحفيدي وللقارىء .

بولس سلامه

بتدين اللقش ١ تشرين ١ سنة ١٩٦١

إلى فادي

حفيدي الغالي فادي

أكتب اليك هذه الرسالة ، وانت في الحول الخامس من العمر ، أطال الله عمرك . وإنّ الأرض ستدور حول الشمس حقبة مديدة ، قبل أن يتّسع فهمك لهذا الكتاب . وأكون أنا يومئذ قد لقيت وجه ربّي ، وبيّض ظلام الرمس رفاتي ، فسبحان الله الذي خصّ الإنسان بالقلم ، فأتاح للخلف ، أن يعايش السلف ، إذ الأرواح مجسّدة في الكَلِم ، فما تغيّب الضرائح إلاّ الوجوه .

وسيشقّ عليك التفكير بجدٍّ لا تعرف من أمره إلاّ ما ينطق بين يديك من كتبه ، وما تسمع من افواه العارفين وغير العارفين ، لذلك آثرت أن احدثك بحديث حميم ، فأراني مسوقاً لسرد نُتَف من شؤوني الخاصة تنويراً لذهنك ، وإرشاداً لخطاك ، فلن تجد أنصح مني لك ، وإنّ في حياتي لعبراً ، ولو رجعت الى الصبا لكان لي من أمر نفسي غير ما كان ، ولكن هيهات هيهات :

أوّاه لو عرف الشباب وآهِ لو قدر المشيب

ولعليّ أقحم في صباك يا بنيّ حكمة من تجاربي ، فتعوّض أنت عمّا فاتني ، فتعيش فيك أمانيّ ورغائبي ، ويكون الحفيد امتداداً للجد ، ذلك هو خلود الآباء بالأبناء .

إعلم ، حفظك الله ، اني ولدت في بتدين اللقش[1] عام ١٩٠٢ للميلاد ، وكنت في مثل سنّك اليوم ، أي في الربيع الخامس ، حين استيقظ خاطري فبدأت أدرك العالم الخارجي . وقيل لي إني كنت ، في مثل ُخلقك وَخلقك ، سريع الإدراك ، قويّ الحـــافظة ، وتبيَّنتُ من رسوم طفولتي أنك تشبهني كما تشبه القطرة أختهـا ، من أجل ذلك أحببت نفسي فيك مصغّراً ، فضلاً عن حبي إياك حفيداً ، ولكنك ، على هـــذا الصعيد تستوي وسائر حفدائي ، ولا سيما شقيقك بولس ، ولو لم تكن أنت الحفيد البكر ، لكان أخوك بكتابي أجدر ، وبعاطفتي البنوية أولى ، لأنه يحمل اسمي ، ولا حيف عليكما ما دمتما في صدري بحكم الشخص الواحد .

كان والدي ، رحمه الله ، رجلاً طوالاً عملاقاً ، شمشونيّ العضل ، عريض الألواح ، عَبْلَ الساعدين ، بعيد ما بين الكتفين ، مهيب الطلعة ، حتى ليندر مثله بين الألوف .

أمّا قوّته البدنية فقوة الأسد ، بل أشدّ وأمضى . وإن إحدى معجزاته المِخْل الحديد – وما زال محفوظاً عندنا الى الساعة – فلقد أمسك بطرفه مرة ، ورفعه بيده اليمنى ، كما تُرفع القصبة الجوفاء ، وأرشد الى الطريق مُنافساً . قصده من مكان قصيّ ، وغنيٌ عن القول إن الجبّار الغريب لم يطلب آيةً سواها فعاد من حيث أتى .

تلك واحدة من عشرات الخوارق فمهما يبلغك يا بنيّ عن قـــوة أبي قيصر فلا تعجب .

ولقد جمع ، رحمه الله ، الى بطولة الجسد ، خِصالا غرّاً ، منهـــا الذكاء

---

[1] – قرية على مقربة من جزين في محافظة لبنان الجنوبي .

المشبوب ، وسلامة الطويّة ، وحب الوجاهة ، والكرم في غير إسراف ، ولقد كان عيبه الوحيد سرعة الغضب ، فاذا ثار هابّه كل من حوله ، ولكنها الفورة العابرة ، يعقبها الصفاء كالصحو بعد الزوبعة .

ويدهشك العلم بأن والدي كان كوالدتي أمّياً ، لأسباب جمّة ، منها شيوع الأميّة عهدئذٍ ، فضلاً عن عزلتنا في ريف قد حفل بكل بهيج من مفاتن الطبيعة وخلا من المدارس .

ولهذا السبب كان حلمه الوحيد تعليمي مهنة حرة ، لما رسب في نفسه من مرارة الحرمان . وربما كان جدّي (انطونيوس) أفقر أهل القرية مالاً ، بيد أنه كان في طليعتهم ذكاء ، فأورث أبي فقره وذكاءه ، ولكن والدي لم ينم على بؤس ، فأبى عليه طِماحُه أن يُخلد الى الكسل ، وكيف يني وقد أوتي عزماً أحدّ من السيف الجراز ، وقلباً يكبر كلما كبرت المشقة وازدحمت العِقاب ، فبدأ حياته بانياً - وبيده شيّد البيت الذي أصبح مصطافنا بعد أن أصلحته إصلاحاً جذرياً ، محاكاة لسنّة الرقيّ - ثم تاجراً مضارباً حتى بلغ ، بين تجّار فيالج الحرير ، مقاماً مذكوراً ، يوم كان للحرير في لبنان شأن عظيم .

فاعْجَب لتاجر قلّما استكتب أحداً ، فكان دماغه الفذّ أصدق سجل وأدقّ مُحاسب مهما تبلغ الأرقام .

أما والدتي ، رحمها الله ، فلم تكن دونه ذكاءً ، بل كانت أرهف منه بصيرةً ، وأصدق فراسةً ، وقد تحمّلت بالصبر الجميل سقماً لَازَمها خمسة وثلاثين عاماً ، فعاشت سيرة القديسات وكذلك ماتت .

ولا أقول هذا من قبيل تزكية الإنسان أهله ، فما أنا بالذي تحول العاطفة

نينه وبين الواقع ، أو يستبدّ به الخيال فيرين على بصره ، بل اني أطّرحه فلا أتوسل به إلاّ مُصَعّداً في عالم الشعر ، والمقام هنا مقام تأريخ .

هذه عجلى لم يكن لي منها بدٌّ يا بنيّ ، فأنا بالوراثة جدّ مؤمن ، وسترى ، في سياق الرسالة ، ان هذا التمهيد مدخل محتوم الى ما نحن فيه ، إذ ان الجدّ والحفيد يلتقيان .

الطفولة

المدرسة الأولى

أُدخلت مدرسة القرية وأنا ابن خمس ، ومدرستنا يومذاك بالزريبة أشبه ، ولاضير عليك ان تدعوها كوخاً ذا باب واحد ونافذة يتنازعها ، في الشتاء العاصف ، نور شحيح داخل ، ودخان كثيف خارج ، مصدره حفرة في الأرض جُعِلَتْ مِدفأة ، وقد تحلّق حولها صبيان عيونهم تفيض من الدمــــع ، لا خشوعاً ولا قنوتاً ، بل توجُّعاً من دخان قاتم يصّاعَدُ من حطب أخضر ، أو تألماً من قضيب رمّان لم تُثقّف كعوبه ، يميل به المعلم على الكسالى ، بيدَ أن أستاذنا الأول كان بنا رفيقاً[1] .

وكانت مقاعدنا نقّالة ، سوادها من جــــلود الكباش ، يفترشها الصبيان فتكون مجالس لهم ، إذ ترتفع الأصوات بالدرس ، ومرتفقات حين يسهو المعلم ويأخذ الكرى بأجفانهم فيهوّمون ويقيلون[2] عملاً بسنّة الجهد الاقلّ ، وربمــا أيقظهم الوكف يسّاقط من السقف الهَرِم ، أو حين الريح العاصفة تقتحم عليهم الباب ، وربما قلبت أوراقهم فنثرتها في الزوايا .

أمّا أساليب التدريس فكانت في منتهى السخف ، فلقد كنا نستظهر في

---

١ – هو المرحوم الأب عمنوئيل ابو عقل .   ٢ – يقيلون : ينامون في منتصف النهار .

السنة الدراسية الأولى ما يكاديستعصي فهمه على طلاّب (البكالوريا) اليوم ، وما زلت أذكر نماذج من تلك المحفوظات :

مهلاً نَوارُ أقلّي اللوم والعــذلا .

أو :

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقّع

أو :

صرمت حبالكَ بعد وصلك زينب
والدهر فيــه تصرّم وتقلب
وكذاك وصلُ الغانيــات فإنه
آلٌ ببلقعــةٍ وبرق خُلـّب

وجاءنا في السنة الثانية معلّم يعرف الفرنسية ، وقد بلغت منه الرصانة حدّ الإرهاب[١] فكان اذا ضرب أوجع فأبكى ، ولبثنا عنــده سنتين وبضعة أشهر نُقِلت بعدها الى بكاسين[٢] ، ومدرستها يومئذ مؤلفــة من غرف ثلاث مسقوفة بجذوع الصنوبر ، خشبيّة مقاعدها ، عريضة ألواحها السود ، فنظرت اليها نظر طلاّب اليوم ، إذ ينتقلون من مدرسة ابتدائيــة في الريف الى السوربون في باريس .

ولقد أصبت فيها بصدمة نفسية كان لها أثرها البعيد في حياتي فلزمتني الى يومي هذا !

وتفصيل الخبر ان معلم الحساب كلّفني القيام الى اللوح ففعلت فقال : إجمع

١ – هو السيد نعمان حبيب الخوري . ٢ – قرية في قضاء جزين وقد عُرف أهلها بالذكاء وحضور البديهة .

خمسة أرطال فحم وعشرة أرطال رمل وخمسة أرطال ماء . فجاءتني النكتة عفو الخاطر فقلت ما معناه :

ولِمَ الماء فوق الفحم ، فانه يعطّله فلن يشتعل أبـــداً . فضحك التلاميذ فقال : « إفتح يدك يا شيطان » . وكان قد اعدّ ، لمثل تلك المناسبات ، رزمةً من قضبان السنديان ، فأهوى على كـَفـيّ باثنتي عشرة ضربة ، كل واحدة منها أوجع من لدغة العقرب . ولكنه عدل في القسمة فخصّ كل راحة بستّ لو وقعت على الرأس لشجّت وأدْمَت . أما أنا فتجلدت وأمسكت عبراتي ، لئلا يشمت بي الرفاق وأنا بينهم غريب .

ومنذئذٍ بدأت أمقت الأرقام ، فلا أقوم بالفرض الحسابيّ إلا مكرهاً . وبدهيٌّ اني ، طول حياتي المدرسية ، كنت في الرياضيات متخلـّفاً ، بينا كنت في سائر المواد طلاّع الثنايا . وأراني يا بنيّ مضطراً للاستطراد والوقوف وقفة غير يسيرة على العقوبات التي كان يُمنى بها الطلاّب في ذلك الزمن .

العقوبات المدرسية

كان أيسر العقوبات أن يقبـّل التلميذ الأرض ، تكفيراً عن هفوة ، سواءٌ في التقبيل أرض غرفة الدرس أم صعيد الملعب . وفي ذلك ما لا يخفى من الخطر الصحي ، إذ يضع الصبيّ ، الغضّ العود ، شفتيه حيث خفقت مئات النعال ، فتراكمت ألوف الجراثيم . ويُدَاني هذه العقوبة في الضرر الصحي طول الركوع مع رفع اليدين ، فإن تلك القسوة تفضي الى انهيار في الجهاز العصبي ، فلا يقوى التلميذ بعدها على عمل .

ومن هذا القبيل تمـَادي الوقوف بإزاء الحائط ، فإنه يؤذي العمود الفقاريّ والجهاز العظمي كله . وأشنع من ذلك عادة الصفع ، وليس أضرّ منها لصماخ الأذن وقد ُتعرّض المضروب للصمم .

ويدخل في باب همجية ذلك الزمن تأديب المذنبين بالفلق ، وقد عرّف المعجم الفلق : إنه عود يربط به حبل من أحد طرفيه الى الآخر وتجعل رجلا المجرم داخل ذلك الحبل وتُشدّان فيضرب عليهما .

اما الفلق الذي شهدته أنا من بعيد ، وعصمني منه حسن سلوكي ، وقوة ذاكرتي فَقِوَامُه أن يأمر المعلم تلميذين من فئة الكبار فينكسان رأس المحكوم عليه ، ثم يمسكان بساقيه ويرفعانها . ويشرع المعلم الإنساني بالضرب على أخمص القدم ، وقد ينكسر القضيب فيستبدله بأصلب منه ، وكثيراً ما يسلح المضروب ولا ينثني الضارب حتى تنتهي عملية الجلد . وربما تورّمت القدم فيستعصي دخولها في الحذاء ، فيعود الصبي الى بيته حافياً يتأبط حذاءه . وأراني مضطراً لذكر واقعة بعينها لئلا يتّهمني القراء ، في القرن الواحد والعشرين مثلاً ، بالمبالغة او بالجور على معلّمي ذلك الزمن .

وتفصيل الخبر انه كان في أحد أديار قضاء جزين مدرسة بدائية مجّانية تقوم على تدريس بضعة عشر تلميذاً ، فيها راهب قبرصيّ الأصل ، فاسد النطق ، هجين اللهجة والنسب ، مجدول الساعدين ، ألَفُّ الساقين ، مُندَحِق البطن ، كسول نهم ، قد أبطره العيش الخفض ، والماء الكوثر ، والتخفّف من تبعات المعاش ، فتنازعته ضراوة الحيوان ، وإنسانية الإنسان ، فكانت الغلبة للأولى ، فصُفِقَ وجدانه الأدبي حتى سدّ على القبس الإلهي كل منفذ ، وأخرس دون الرحمة المسيحية كل جارحة ، فتراكمت فيه تلك الطاقة الحرارية فابتغت لها مُتَنفّساً ، فوجدت كبش المحرقة في غلام فقير يدعى (انطونيوس) . وكان الصبي في العاشرة من العمر ذكراً وحيداً بين بنات خمس . أبوه نشّار ومزارع مسكين في ارض صلداء[1] وذات حصى ورمال ، هي من عين البخيل أضيق ،

---

١ – صلداء : صلبة .

يتوسطها بيت وضيع يأوي اليه والد انطونيوس كل مساء يتبلّغ زاداً مجبولاً بعرق الجبين ، وانما العقار والكوخ كلاهما ملك الدير .

وشاء الجد العاثر ان يقصّر الغلام في حفظ درسه ، فثارت ثورة الراهب الشفيق ، وتناول الصبي باللكم تارة ، وبالرفس أخرى ، فقوّم حنايا أضلاعه الواهنة لفرط ما رضّها ، ومات الصبي متأثراً بنزيف داخلي بعد هذه الوقيعة التأديبية اللطيفة بثلاثة ايام . وسُدل الستار على المأساة ، وما سدله الا الفقر والجهل ومناعة الأب الذي نسي ، في غضبته المضرية ، انه كاهن المسيح .

قيل ان بُرداً والد بشّار الشاعر الأعمى الهجّاء عوتب في ولده الدائب على النيل من أعراض الناس .

فأجاب والده : ولكنه أعمى وليس على الأعمى حرج. فقال احد المهجويين: إن فقه بُرد أغيظ من هجاء بشار .

وكان أغيظ من جلافة المعلمين ، وقتئذ ، غباوة الأهلين ، إذ كانوا يصحبون أولادهم الى الكُتّاب[1] الريفي ويقولون للمعلم : لك اللحم ولنا العظم ، أي اضرب ولا تشفق. كأنما هَشْم الأنوف وهَتْم الأسنان، وعرك الآذان ، أسباب الى الاجتهاد . وما الضرب إلا جناية على الجهاز العصبي . وقد يورث ضحاياه مرضاً نفسانياً لا شفاء منه . ومهما يكن من أمر فأقلُّ سيئاته إضعاف الشخصية وإيقاظ الرذائل في نفوس الأطفال من مثل الكذب والرياء وحب الانتقام .

رسالة المعلّم

قال أحمد شوقي :

كاد المعلم ان يكون رسولا

بَلى ! وليس في الألقاب ما يربي شرفاً على لقب المعلم ، فان السيد المسيح

---

١ ـ الكُتّاب : موضع التعليم .

نفسه قد عرف بهذه الصفة . فالمعلم الخليق بهـــذا النعت يشارك الله في خلق الشخصية وإنماء الإنسانية ، في صدور الأحداث ، حتى ليرى واحدهم نفسه في الآخرين مكرّرا ، ويدرك ان المرء قَبَس من الضياء الإلهي الأحد مقسّماً في النفوس .

وعندي ان أفضل المربين هو المعلم القدوة ، إذ أن الصغار بالكبار يتشبهون، ويكون لكل صبي أو صبية مثال في البيت او في المدرسة . فعلى ذلك المثال ان يفعل ما يقول . ألا ترى أن السيد المسيح قال : أنا الطريق والحق والحياة ، ولم يقل أنا أدلـُّكم عليها ثم تنحّى .

وما زلت اذكر أحد تلك المُثـُل العُلى من أساتذتي بالأمس . فلقد حبّب إلي الإيمان وكان تعليمه – بمشيئة الله – عاصماً لي من الإلحـــاد ، في سَوْرة الشباب الأولى ، ذاك هو الأخ جوزيف دي ليونيسا ، رئيس معهد الأخوة المريميـين في صيدا . فلقد كنا نحن تلاميذه نشعر بمثل الدفء يغمر نفوسنا، إذ يحدثنا – رحمه الله – بخلود النفس والقيم العلى. لقد كان ذلك الاستاذ يخرج من نفسه ليتّحـد بنا . وهو من النوع المنبسط في الأمزجة ، أما المنقبضون في الحياة فلا يفلحون، سواءٌ أكانوا زعماء أم كانوا قديسين . وبدهيّ انه كان مصدر تلـــك الحرارة الأدبية ، فليس في مقدور الانسان أن يعطي ما لا يملك .

ولا يخفى ان المحبة والثقة تفعلان في النفس فعل السحر ، فتدفعان التلميذ من الداخل الى التعاون المجدي . أما أن يُزجر الطالب ويُحدى من خارج ، فذلك بالسوائم أليق . إلا أن ابتسامة واحدة في الوقت المناسب لتأتي بما تقصّر عنـه النواهي جميعاً . وغالباً ما يكون التحريم إغراءً . بيد أن الإفراط في التساهل وخيم العاقبة ، ومدعاة إلى الفوضى . فالمعلم الحكيم هو الذي يُداوِل بين الشدة واللين . ولا بأس ان يصرف بعض همه الى تلقين الدروس ، وإصلاح الفروض ، وإنجاح تلاميذه في الامتحان ، كل ذلك حسن . ولكن ثمة ما هو أجـــلّ من

إعداد الطلاب للفحص ، عنيت اعدادهم للحياة الدنيا تلك المعركة الكبرى التي لا تنتهي بالموت اذ الموت حياة من طراز آخر .

رسالة الأهل

أما رسالة الأهل فهي من الخطر بمكان عظيم . لأن الطفل الذي بين أيديهم هو رجل بالقوة ، وسيصبح رجلاً بالفعل ، وفي الفترة الممتدة بين الثالثة والعاشرة من العمر تتهيأ الحياة كلها . أليس من البزرة الصغيرة تنبثق الدوحة الوارفة الظلال . ولقد تقدم لي أن أوجزت رأيي ، في هذا الصدد ، منظوماً في ابيات من ملحمة عيد الرياض هي هذه :

الصبا صورة الحياة بما فيها ، فما شابَ صدَّقها التصغير
وسجايا الإنسانِ مُذ هو طفلٌ منبئاتٌ بما إليه يصير
لا تقُلْ قاصراً ، فكلُّ معانيهِ ، حواها ذاك الإطار القصير
كل أمسٍ غداتُه في ثناياه كما تُضمِرُ النَّبْتاتِ البذور
صفحةٌ توجز الكتابَ لتصديرٍ وصدرُ العمر الطويل شهور
حِقبةٌ ينهلُ الصغيرُ حُمَيّاها كما تنهلُ الترابَ الجذور

الصّبوة منبت خصب فلينظر الأهل في جودة البذور ، فمن نوع الزرع يكون الحصاد .

ولا ريب ان الحديث الذي يخالط مسمع الطفل ، والإشارة الشاذة التي يعلق بها بصره ، وما إلى ذلك من القبائح ، التي يعتبرها الكبار توافه عابرة ، تستقر من الولد في صميمه ولا تعبُر ، بل تؤتي أضعافها شوكاً وحسكاً ، حين تبلغ سوْرَة الشباب ذراها ، ويهبُّ العقل الباطن من سباته فلا يدع في السرداب المظلم شيئاً إلا نبشه .

الولد بمجموعة ميول ، هي في مستهلّ الطفولة أشبه شيء بالبحر الساجي، فعلى الأهل توجيه العقل ، وهو بمقام الشراع في ذلك اليمّ ، وعليهم تركيز الإرادة ، وهي صنو الدفّة في المركب ، فإن لم يفعلوا فلا يأمنوا يوماً تهدر فيه الأعاصير ، ويتعالى آذيُّ الخضمّ فتندفع السفينة في هوى الريح المتناوحة[1] ولا تلبث ان تنشعب فتذهب ألواحها بدداً على الصخور الهوادي[2] .

ويرى العلماء بالنفس ان الانسان الأقرب الى الكمال هو من اجتمعت له ثلاثة عناصر ، هي الحس ، والذكاء ، والإرادة ، شرط أن تتعادل هذه الُمقوّمات فيما بينها بحيث لا يطغو عنصر على آخر . ولا أرى بأساً في أن تطغو الإرادة على رفيقيها بعض الطغيان ، فإذا لم يكن الحس رهيفاً ، والذكاء ثاقباً ، سَدَّت الإرادة القويّة النقصان . ومما لا ريب فيه ان المرء الخليّ من الإرادة ليس بشيء مذكور .

ولقد عرفت واحدة في السيدات قلّ نظيرُها في العفاف ، وسلامة الطوية ، ونبل القصد ، ولكن فرط حسها أوهن إرادتها . وجاوزت عاطفة الأمومة حدها ، حتى غدت الوالدة حناناً مجسداً ، لا يعرف للتضحية حداً ، ولا للزجر سبيلاً . فجنت على بعض اولادها أيّ جناية فما ردّت لهم طلباً ، ولا صرفتهم عن رغبة ، ولا صدّتهم عن مشتهى ، إلاّ ان يكون اجتراح إثم عظيم .

وشبّ أبناؤها ، وهم على طيب عنصرهم ، كالغصون يحركها مرُّ النسيم ، فلم يتمرسوا بالعقاب ، ولا اخشوشنوا فثبتوا لدى الصعاب واضطلعوا بالتبعات الجسام . وبلغ التخنُّث من أحدهم أن تهرّب من المدرسة غير مرة ، وبرّح به الكسل ، وطفق ينزلق من سهولة الى مثلها . واستمرّ بعدما نيّف على العشرين في طفولة موصولة ، يفيء الى ظل والدته ، ويصرف همه الى إزعاج عائلته ليبقى

---

[1] – المتناوحة : التي تهب من كل النواحي .   [2] – الهوادي : الناتئة .

مدار اهتمامها ، فأخفق في الحياة أيّ إخفاق ، ومـا انفك ينحدر من زلـّة الى أدهى منها فشقي به ذووه ، وأبكى أمه طوال السنين ، وندمت ولات ساعة منـــدم .

واعلم يا عزيزي فادي ان والدتي كانت القمّة في الحنان ، ولكنه حنـــان تُغَشّيه الحكمة فيبقى مكبوتاً . ولا أذكر انها فرّطت في تأديبي مرة واحدة. وكنت أخشاها اكثر مما أخشى والدي . وهو الذي اذا عبس تهدّ هيبته أشداء الرجال . وأذكر اني شاجرت ابن الجيران مرة ، فأخذت قضيباً لأخوض بـــه المعركة ، كما فعل خصمي ، والتفتُ فلمحت والدي فأقدمت ، فاذا بوالدتي من النافذة مُطلـّة فسقط القضيب من يدي ،وأيقنت اني اذا أكملت الشوط فستكون ساعة لها ما بعدها. ولا اذكر اني تجرأت على المزاح بحضرتها، حتى بعد زواجي، فاذا غلبتني النكتة تجنـّبتُ ما ينافي الحشمة ، ولو من بعيـــد . وكان لي من تقواها وإمعانها في القنوت ما يعصم لساني من الزلل .

●

ملاهي الريف

قد يخطر لك يا عزيزي فادي ان تسائل نفسك عن الدواعي التي أهابت بي لأحدثك بالماضي ، فأقف الوقفات الطوال على طفولتي وصبوّتي ، ثم على شبابي . وانما يحملني على ذلك أسباب تفوق الحصر . أهمها وحدة الحياة فانها موصولة اتصال النهر بالينبوع والمصب في البحر . ولئن تواطأ البشر على تقسيم الأزمنة ، فلقد تمردت الحياة على تلك التجزئة . وليس ماضي الإنسان وراءه بل هو أمامه أبداً ، منه يقتبس ، وبه يهتدي ، واليه يفيء عندما يأخذه الحنين ، ويثقل عليه الحاضر ، ويستغلق المستقبل . إن ماضينا هو قلبنا خافقاً أبداً ، وهو حاضرنا وإن البسَت معالمه ، ورَانَ الغبار على بعض دقائقه .

بيد أن هذه الخطوط الباهتة تستقرّ في العقل الباطن ولا يفلتها أبداً . مَثَلُه مَثَل القبو المظلم ، يحفظ كل ما يلقى فيه ، فإذا أنرتَه بالأشعة برزت الخفايا من مخابِئها . وقد تكون بينها الدنان المعتّقة ، وفيها نشوة القلب والعين والشميم . ولقد ذكرت في كتابي (مذكرات جريح) ، عند الكلام على المخدّر ، كيف كان ذلك الماضي ينتشر في مثل سرعة الصوت ، قُبَيل دخولي في الغيبوبة .

أما ملاهينا في الجبل فكانت في غاية البساطة والبدائية . فمنها لعبة (الكلّة) و(الطابة) والسباحة في بركة الضيعة ، أو في غدران الساقية صيفاً ، بعد أن نأكل فوق الشبع من ثمر الصنوبر الاخضر ، في غفلة من الأهل والناطور .

وأعترف اني كنت في ارتقاء الشجر حذوراً هيّباً . وكذلك القول في السباحة، أ كاد لا أتجاوز الرحراح والغدير الضحل ، وكأن ابن الرومي عناني حيث قال:

وأيسَرُ إشفاقي من الماء أنني أمرُّ به في الكوز مَرَّ المُجانب

وكانت أُلسْهِيَّتُنا المفضّلة ، في الربيع ، مُباكرة العصافير في أعشاشها، على أنني كنت بفراخها رفيقاً ، فما وافقت أترابي مرة على أذيتها .

وفي جملة هواياتنا او غواياتنا الصبيانية إهاجة الزنابير في خَشْرَمِها[1] وما نبالي لَسْعَها الأليم . ويا طالما سابقنا الريح في طلب الفراشات المائية الزاهية الألوان ، المُذَهَّبة الأجنحة ، إذ تنشدها على ضفاف الصهاريج البديدة في كل منحنى ، فكأنها وقد تفتّح من حولها السوسن والآس ، والتفّ عليها الحور والجوز والدوالي الفاغية ، جنّات بابل معلقة في السفح والمنحدر .

وكنا إذا ابتعدنا عن الضاحية ، و جُنّا غـاب الصنوبر الدائم الخضرة ، المتأصّل في أرض رملية صلدة ، لونها لون الشمس في الطَّفَل ، فلا ننفك نبحث عن الحجلان في أوكارها ، فنتوقّل حيناً شعفات الربى ، ونتدلى أحياناً الى قاع الوهاد. ونستمسك تارة بالدفلى ، وطوراً بالشيح، ونتعثر بالخزامى والبيلسان والزنبق . لقد كان لنا أنوف تستطيب الفوح ، وعيون تأخذها المباهج ، ولكن أنّى لنا البصائر لندرك ذلك النعيم الذي لا يقدره الكبار ، إلا بعد فقدانه إلى الأبد . فإذا راودتهم فكرة الرجوع اليه ، وجدوه مخضّباً بآثامهم أو مغشّى بألف هَمٍّ وهمّ .

سَهرات الشتاء

ولعلّ أمتع ما في الجبل ، سهرات الشتاء حيث يَحْلَولى السمر ، ويطيب

---

١ – الخشرم : مأوى الزنابير والنحل.

الدفء ، وبيتنا يومئذٍ أفضل بيوت القرية للاجتماع. وكانت الغرفة المشتى تتسع لثلاثين شخصاً جلوساً ، بعضهم على (دَشَك) ، وبعضهم على سجـّـاد يغطي الأرض ، أو على جلود الكباش المحيطة بالمدفأ . وكانت هذه المقاعد الوثـيرة مراكز الشرف ، وأحبُّها الى الشيوخ الألى ودّعتهم حرارة الشباب .

وكنا نحن الصغار ، ننتظر العشايا ، بمثل الشوق الذي يحسّه فتيـان اليوم حيال الأفلام السينمائية العارية العارمة . فإذا أضيئت المصابيح ، وهدر المدفأ ، واندلع الدخان من انابيبه على السطوح، رأيت السامرين يَؤمُّون بيتنا جماعات، ويلقون من الترحيب ما يلقاه الوافد بعد غربة ، ذلـك ان الأنس كان متبادلاً بين الزائر والمزور .

ولا تسل عن بهجة الاجتماع في الليالي الدوامس يخوضها الساهرون ، وما في أيديهم سوى مصابيح ضئيلة مغموسة الذؤابات بزيت الزيتون ، فإذا اطمأنوا في مجالسهم شعروا بمثل أواصر القربى تشدُّ كل واحد منهم الى الآخرين جميعـاً ، حيال الطبيعة الثائرة ، وكأنهم بهذا الاتحاد يستقوون على الرياح العـواصف ، وقواصف الرعود ، وما اكثرها حول قريتنا ، وللصواعق ، كما تعـلم ، شغف بالأشجار الصمغية ، ذوات السنابل الهيف ، اي انها مولعة بالصنوبر الذي باسمه سميت قريتنا (بتدين اللقش) فإنما اللقش هو لباب الصنوبر . وهذه الإضافـة (اللقشيّة) صدرت عن الامير بشير ، تمييزاً لقريتنا الصغيرة من بتدين المجردة ، عرين ابي سعدى . وكلتا اللفظتين سريانيّة الأصل ومعناهـا (بيت الحكم) . وبدهيٌّ انه كان لقريتنا في سالف الأيام شأن في السيادة طواه الدهر فيما طوى .

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر

وفي طليعة الحلاوات التي كنا نسيغها في الليـالي القارّة[1] : الحكايات .

---

١ – القارّة : الباردة .

ولعلّ الذهن البشري مطبوع على حب القصص والأساطير لأنهـــا تعبّر عن الرغائب ، ما ظهر منها وما بطن . قال بول فاليري الشاعر الفرنسي الكبير : في البدء كانت الحكاية مُعَرّضاً بفاتحة انجيل يوحنا القائل: في البدء كان الكلمة . واني لأستنكر هذا القول من جهة الايمان وبصفة كوني مؤمناً ، ولكنني أرى ان الحكاية رافقت البشر منذ كانوا ، وحيثما كانوا .

ويتولّى السرد أحد شيوخ القرية ، ولا بدّ له من خصال أربع : حافظة قوية ، ومخيلة مبدعة ، وصوت جهير ، وحماسة في الأداء مصحوبة بالنبرة الثاقبة تارةً ، وبالتصفيق الحادّ طوراً ، فتغدو الحكاية وكأنها واقع يعانيه القصّاص والمستمعون . وكان مدار السرد في معظمه شؤون الفرسان والملوك، وما يتّصل بذلك من روائع تُذكي الهمم ، وتبعث المروءات في صدور السامرين، وتسري النخوة في أعصابهم فعل الكهرباء .

ولقد اختلف علماء النفس في نتيجة القصص ومدى تأثيرها في الأذهان ، ولا سيما أذهان الأحداث . فمنهم القائل بسوء عقباها لأنها تبعد المرء من الواقع وتطير به الى عالم الاوهام ، ومنهم القائل بأنها تروض المخيّلة وتفتح القرائح على اجواء الفن . وأرى ان ذلـــك الضرر المزعوم ، ليس بشيء يذكر في جانب السموم التي تبثها الأفلام السينمائية المجرمة في أفهام النشء ، لان القصص الذي يتناوله الخيال والسمع لا يعدو كونه أساطير تروى . أما الأفـــلام السينمائية فتحمل على انها حقيقة عارية، بين يدي المُشاهِد، فلا تلبث ان تدنس بأرجاسها البصر والسمع والإدراك جميعاً ، فتوقظ غريزة الجنس وتُدرّب على انتهـــاك المقدسات المجتمعية فتُحبّب السرقة والاحتيال وسفك الدماء .

ولم تكن الحكاية لتستنفد الوقت كله ، فهناك هُواة الورق يتحلّقون بضع حلقات ، ويكدّون الخواطر في مختلف الألعاب ، والويل للمغلوب إذ يعامل معاملة الميت ، فيجلل بالسواد ويُؤَبّن ، ويتنافس الغالبون في تعداد مناقبه ،

او تبيان معايبه ، وهو باسمٌ لا يتحرك ولا يثور ، بل يخضع لإنفـــاذ الحكم الفكاهي الذي يشترك في إنفاذه لفيفُ الساهرين . أما آفة المقامرة فلم تعرفها قريتنا . وأجزم أن الفضل في منعها يعود الى المرحوم أبي ، فقد كان يهزّ العصا لكل من سوّلت له نفسه نشر هذا الوباء في بيئتنا الصغيرة .

وفي بعض السهرات كان الاهتمام يصرف الى مطارحات الأحاجي ، وفكّ الالغاز . ولا تخفى على أحد فائدة هذه الضروب من السلوى التي يشترك فيهـا العقل تحليلا وتركيباً ، وهي من أجدى أنواع الرياضة الفكرية ، بيد أن كل ما أشرت اليه من ألوان السمر ، ومُتَع السهرات لم يكن إلا شيئاً يسيراً ، بجانب الموضوع الأهمّ ، الذي كان يستغرق لياليئا الريفية ، عنيت مطالعة روايات البطولة .

الجوّ الملحميّ

تقدم لي القول يا عزيزي فادي ، ان المغفور له والدي كان صليب العضل جبّار الارادة ، بيد أنه كان يشعر بالدونيّة من جهة العلم ، على مضاء ذكائه وحضور بديهته . وكان حلمه الأجمل أن يسدّ ولده ذلك الفراغ الذي فتح ثغرة في حياته ، فيكون الابن امتداداً لأبيه وخلوداً في الزمن ، ولا تسل عن ابتهاجه بي يوم استطعت قراءة المشكل بدون لحن . وراح يباهي بي أترابه ، ولا سيما أهالي رفاقي ولِداتي. فكان إذا تدجّى الليل، وغصّت الغرفة المشتى بالساهرين، وقد احمومرت انابيب المدفأة ، وهدرت نرجيلته فسمع لها قرقرة ، أجلسني في الزاوية ، على شبه منصّة لأكون بمرأى ومسمع من الحاضرين ، ثم كلّفني القراءة بصوت عالٍ . وكان توّاقاً للمعرفة ، شديد الرغبة في استيعاب اخبار الغابرين، تعي ذاكرته كل ما تسمع فيعيده مفصّلاً . وكانت أولى القراءات العلنية أسفار مختارة من العهد العتيق ، فيطيب له ، وللكهول أصحابه ، تلاوة الفصول المحدّثة بالفتح والبطولات، نظير وقائع جدعون بن يوآش، ويفتاح الجلعاديّ، وشمشون الجبار ، ومصرع جليات الفلسطيني بحصاة من مقلاع داود بن يسّى ، وأمثال هذه الأحداث . ولكن القصص المفضلة الفاعلة في النفوس فعل الخمرة ، كانت سيرة عنترة . والمهلهل ، وتغريبة بني هلال . وكان عليّ أن ارفع الصوت مرنماً في تلك الروايات ، سواء أكان القصيد قريباً من اللغة الفصحى ، كما في سيرة عنترة ، أم كان عريقاً في العامّية كما في سيرة الزير وتغريبة بني هلال . ولا يخفى ان الإنشاء في إذكاء الحماسة أفعل ، وفي إشاعة الطرب أوقع . وما كان صوتي

– وانا يومئذ في العاشرة من العمر – مُنَفِّراً ولا مجلبةً للسرور ، بل ربما كان الى الرخامة أقرب . وأُرجِّح أن والدي كان يعتبر عنترة ، والمهلهل ، وأبا زيد الهلالي سلامه ، ودياب بن غانم ، أنداداً له تقدّموه في الزمن . وبمَ يبذُّه اولئك الفرسان الذين بالغ الرواة في تجسيم شأنهم ، فرفعهم القِدَم الى مقـام العاديات والنفائس الأثرية . أليست قصعة الفخّار الجديدة تباع بنصف ليرة ، وأن أختها العتيقة ، إذا نسبت الى الفينيقيين ومن جاورهم في الزمن الخالي ، تباع بمئـات الليرات ، وتُرفع زينةً على رفوف ذوي اليسار .

أليس الأموات كانوا ومابرحوا يُؤلِّهُون فيعبدهم ،في بعض القبائل البدائية ، أنسَالهُم ، فيحملون الأطعمة الفاخرة الى قبورهم صباحَ مساء ، وكان يُضَنُّ عليهم بالقوت أيام كانوا في الأحياء ؟ أليست المسافة في الزمان كالمسافة في المكان تحوط الأمور بهالة من الغموض والوقار ، فتبدو كأنها تَحَدَّرَت من مـلأٍ مسحور؟ وإذن فِيمَ يسبقه السابقون؟ أفلم يَلوِ القضيب الحديد والريال المجيديّ غير مرّة؟ أفلم يُغنِ قريته وجوارها عن طبيب أسنان فيقتلع بإصبعيه اكثر من مئة ضرس . أفلَم يَتصدّ في (مزرعة الشوف) لثور هائـج أعجز مطارديه ، فلما مرّ من أمامه ضرب بكفه على قرن الثور ليوقفه ، فصاح به المطاردون أين قوتك يا يوسف ؟ فرفع يده فاذا أُذن الحيوان ، ومعها قطعة من الجلد تشخب دماً ؟ ومن ينسى يوم اعترض فرسه مُكارٍ يسوق حمارته المحمَّلة قمحاً في مضيق بلدة (مليخ) قضاء جزين ، إذ ترجّل ورفع الدابّة ، وعليها حملها ، الى حائط يعلو عن الطريق زهاء ذراع واحدة ، فلما أجاز فرسَه أنزل الدابة الى مكانها .

أوَ لم يكسر (كرز) الصنوبر بضربة واحدة من جمـاع كفه سنة ١٩٣٠ بمرأى من أهل مزرعة (صيدون) قضاء جزين ، وكان يومئذ شيخاً قـد ناهز السبعين من العمر ؟ وبمَ يتفوّق عليه فرسان الجاهليّة أبالسّلاح وقد اجتمع له من قديمه (القرابينه) (والطبنجه) والسيف . ومن حديثه مسدسان وثلاث بنادق حربية . وبمَ يفخرون عليه ؟ أبالرماية . وهو الذي كان يرمي بمسدسه ،

وفي ظلمة الليل مصدر الصوت فيصيبه ، كما وقع له في مزرعة باب مارع (البقاع الغربي) إذ رمى كلباً نابحاً على مسافة سبعين متراً برصاصة من مسدسه ، والليل بهيم فصرعه ، وما زال شهود هذه الحوادث وسواها أحياء يرزقون .

بلى يا عزيزي فادي ، لقد كان جدك الأعلى أبو قيصر واحداً في الآحاد القلائل القلائل ، يهتز للبطولة ، وينتشي للصور الشعرية ، لأنه كان زاجلا يرتجل المغنّى والقصيد والموشّح والمخمّس المردود ، وقلّما استعصى عليه إدراك الجمال حتى في الشعر الفصيح ، ما لم يكن مغرقاً في المجاز ، أو في وحشيّ اللفظ وغريبه .

ولا يخفى ان قصة عنترة تكاد تجري في السرد على خط واحد ، فترى مؤلّفها يصف بدء كل هجوم بعبارات هذا بعضها « وأقدم عنتر وهو في صهوة جواده الأبجر ، وكأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل ، وصاح صيحة تداعت لها الجبال وزمجر وقال : الويل لكم ايها الأوغاد ، لقد جاءكم أسد الآساد وحية بطن الواد ، القادح النار من غير زناد ابو الفوارس عنترة بن شداد » .

وما كنت آتي على هذا السجع حتى أسمع والدي يهدر ، ويضج من حوله الساهرون ، وكأنهم في صميم الوقيعة وقد همّوا بنجدة بني عبس ، وكذلك القول في شوقهم الى الإثآر من جساس والانتصار للمهلهل ، أما في تغريبة بني هلال فالسامعون فريقان في المفاضلة بين القطبين الهلاليين ، فواحد يعظّم الفارس الأشقر دياب ابن غانم راعي الخضراء ، وواحد يؤثر الفارس الأسمر أبا زيد الهلالي سلامه راعي الحمراء .

وهناك ظاهرة (بسيكولوجية) نفسانية لا يسعني إغفالها ، وهي ان بين القارىء أو الخطيب ، أو المغنّي والسامعين تجاوباً عميقاً ، فاذا امتدّت الموجات التي تحتلّ المشاعر ألّفت بين الجماعة وصهرتهم في وحدة شاملة ، وكلما نما العدد نما التفاعل ، وربما ألقيت القصيدة نفسها على سامع فرد فظل ساكناً ،

فاذا سمعها في حفل كان أول المصفقين . ذلك ان الجمهور أشبه شيء بالطاقـات الحرارية فكلما ازدادت الكمية اختلفت النوعية .

وكان يعجبني من اولئك الريفيين فطرة الشهـــامة الراسخة في نفوسهم ، فكنت أراهم في إصغائهم الى سياق الرواية يهتفون لمواقف الرجولة والمكرمات، ويسخطون أيّما سخط على الرذيلة ، ويستنزلون اللعنات على الخائن . فكأنهم هم الألى يعانون المشكلة ويعايشون أحداثها ، ويا طالما رأيتهم يذرفون دموع الأسى لمصرع بريء ، ودموع الفرح لانتصار كريم .

ولا تحسبنّ يا بنيّ اني كنت بمعزل عن الجوّ الذي تثيره قراءاتي ، فقد كانت الموجة التي تغمر الجمهور ترتدُّ الي انا الصبي الرخص البنان ، وهي أشد عنفـــاً فأحس بقشعريرة تسري بين كتفيّ ، وهي أشبه بالثلج الذي يبرّد ثم يكوي .

تراني قد أطلت الوقفة على تلك الليالي ، وانما بحق أسهبت ، لأنها فترة من العمر وَسمت حياتي كلها ، فان ذلك الفتى الذي تعمّد بجوّ البطولات صبياً ، هو نفسه الذي تناوشته المباضع ، في ثلاث وعشرين عملية جراحية ، ولكنه من خلال الجراح الفواغر مجّد البطولة في ملحمتين . ولم ينسَ في (عيد الرياض) أصحاب الطفولة ، فتغنى بعنترة ، والمهلهل ، وربيعة بن المكدم ، ونظائرهم ، وأطال الوقفة على بني هلال في زهاء ثلاثماية بيت .

لقد استمر جوهر البزرة في الدوحة التي شبّت واكتهلت ، وها هو لبابها آخذ في الشيخوخة ، ولن يفارقها طبعها حتى تهوي الى مصرعها .

●

المدرسة الدّاخلية

في أعقاب صيف سنة ١٩١٣ فوجئت بنبأٍ كان صداه في نفسي مزاجاً من ألم ورجاء ، من شقاء وغبطة ، لأنه انتقال من حاضر مألوف رسّخته العادة حتى بات سهلاً ، فلا يقتضي صاحبه جهداً ، الى مستقبل مجهول يبدّل في المصير تبديلا جذرياً . ومعلوم ان الانسان الى بذل الجهد الأقــل أمْيَل ، بَيْدَ انه بمعرفة المجهول أكلف ، لأن الخيال يتشوّف أبداً الى ما وراء الأفق. أما المفاجأة فهذا هو مؤداها :

قيل لي سنهبطك مدينة صيداء بعد أيام ، وندخلك مدرسة الإخوة المريميين (الفرير) ، فلا يُتاح لك اللعب إلا بمقدار ، ويحدّ من حريتك سور لا تستبين العينُ ما وراءه ، إلاّ ما شمخ من أدواح ، وتعالى من بناء . وأذكر اني لم أنم ليلة السفر إلا غراراً . ورافقني أبي ونفر من المُكارِين الذين كانوا الصلة الدائمة بين الريف والمدينة ، في أمْدَى رحلة عرفتها حتى يومي ذاك . ومشى الركب وأنا ذاهل عن ماضيّ ، مأخوذ بمــا أرى في الطريق ، إذ ألمح خلف كل تلّة أفقاً طالعاً ، وعند كل منعطف عالماً في بزوغ ، فغرق بصري في المناظر سفحاً ورابيةً وقاعاً . وكانت الدهشة الكبرى حين أطللت بعد مسير ساعات ست على مشهد لازمَني وسيلزمني مدى الحياة . ذلك اني رأيت في منتهى السفح بحراً أخضر يتعالى آذيّه ثم يتكسر على قلعــة ذات قناطر . ولمحت خضماً أخضر، يكاد يكون في رأي العين أسود، وقد سمق نخيله ، واشتجرت أدواحه،

وفجّره الله حدائق غلباً . وقد نهض ، بين البحرين ، مدينة كأنها برزخ فلا يبغيان .

تلك صيداء ، التي أحب ان تبقى صورتها الأولى في حافظتي مشفوعة باسم المدينة ، ولن أرغب عنها بحواضر الدنيا جميعاً ، لأنها تؤرخ في حياتي حقبة هي أجمل ما لقيت .

ومعلوم ان الآتي من (بتدين اللقش) الى صيداء يبلغها اليوم في نصف ساعة . وتنقله السيّارة بيُسر فلا يدلّي رجليه راكباً على ظهر حمار ، او فرس هرم ، تارة يطلع ثنيّة وطوراً يهبط وادياً . فلا يعرّج على خان أو ظل شجرة يستريح فيه ويتغدّى مما تيسّر من زاد ، بضعة أرغفة لفّتها ربة البيت ، وطوتها على إدام لا يخلو من البيض المسلوق والجبن والتين المعقود بالسكر . وبدهي ان السيّارة اختصرت المسافات ولكنها كذلك اختصرت الحياة .

بلى إن عصر الآلة قد جعل المرء نفسه آلة حية . ولم تقتصر الآلية على المظاهر والأحداث الخارجية ، بل تعدّتها الى صميم الإنسان ، فبدّلت في المشاعر والمقاييس والمباهج ، وأقصت الآدميّ عن طبيعتين ، أولاهما الطبيعة المحيقة به ، وثانيهما الفطرة التي يحيق هو بها ، فشوّهت الاثنتين معاً . وقد حُقّ لنا ، نحن معشر المخضرمين ، أن نقارن بين أمس وحاضر ، بين غابر متأصل في العمق ، وحاضر معرق في السطحية .

وأول شيء سعيت اليه بعد إذ ترجّلت عن مطيتي هو الإشراف على البحر. ولم أكن قد شهدت قبله من الماء المجتمع سوى بركة الضيعة ، فأنست بالزوارق الراسية في الميناء . وكنت أجهل يومئذ أن ذلك المرفأ هو آدم المرافىء ، منه انطلقت أول خشبة عام عليها بشر . وكان الفتح والرسالة الحضارية وتعريف المجهول .

بلى من هنا انطلق الشراع ، وعلى سِيْفِ هذا البحر ولد الحرف .

فكأنَّ الزمان طفلا ، وفجرَ الحرفِ بكراً كانا على ميعاد

يوم فينيقيا أطلّت على الدنيـا ، بفيض من ضوئهـا الوقّـاد

ولد الحرفُ والشراع بصيدونَ هنيئـاً صيدونُ بالميلاد[1]

لقد وجدتني في يومي الأول غريباً أيّ غريب، وبرغم التعب الذي اعتراني في الطريق فـلم أنم في ليلتي الجديدة إلا ساعةً أو بعضها . وأنـّى يوافيني الكرى ، وحولي زهاء خمسين سريراً يتخطـّر بينها ناظر مديد القامة ، أسود الثوب ، جهم الأسارير ، يأمر وينهى بلهجة عسكرية ، وبلغـة أفهم بعض معانيها منفردة وأجهلها مركبة . وما كاد يلتقي جفناي في الهزيع الأخير من الليل ، حتى سمعت جُلجلَ الناظر داعياً الى النهوض ، فقمت متثاقلا كالأسير يجرُّ اغلاله . وغصّت لُهـاتي بمثل زفرة مكبوتة . وذكرت الحرية الفقيدة وأنس البيت والعائلة ، ورفق الوالدة في إيقاظي . وأوحشتني تلك الغربة في المنام والطعام ، والسمع والبصر ، والدرس واللعب . ولكنه اغتراب لم يطل أمَدُه فقد أَلِفت حياتي الجديدة حتى أصبحت لا أبغي سواهـا . ولو انني خُيِّرت اليوم – وقد بلغت الستين -- في أن أعيد سيرتي الأولى ، لمـا رضيت عن المدرسة الداخلية بديلا ، فإنها تعوِّد المرء النظام والطمأنينة والحـدَّ من الانفلات .

أُدخلت الصف السابع الفرنسي والرابع العربي ، وأخذت نفسي بالحزم ، فانقطعت عن مخاطبة رفاقي بالعربية ، فبدأت الصعوبات بالتلاشي ، واستطعت بعد أشهر أن أعبّر بالفرنسية . وكانت الجملة الفرنسية الأولى محـاولة فاشلة

---

[1] – من قصيدتي في تأبين المرحوم الشيخ عارف الزين المجاهد العربي الجليل ، صاحب مجلة العرفان .

مضحكة معاً ، فلقد كنا في نزهة بين البساتين ، ومرّ من أمامنا كلب يركض فقلت لرفيقي (Joseph regardez chiens Courez) فسمعني الناظر، وبيّن لي وجه الخطأ . ثم شجعني قائلاً : « خير لك ان تتكلم وتغلط من أن تصمت وتظل جاهلاً ، فإن الفارس لا يصبح فارساً ما لم يتعثّر ، وكذلك القول في كل متعلم يتدرّج من الجهل بالأمور الى العلم بها . »

وأصبحت بين الخمسة الأول في الصف الفرنسي ، والأول في الانشاء العربي . وقد أذكى سليقتي الأدبية اطلاعي القصصيّ ، عـــلى النحو الذي وصفته في (ليالي الشتاء) . ثم إقبالي في المدرسة على مطالعة (كليلة ودمنة) ذلك الكتاب الذي يفيد منه الفتيان والكهول والشيوخ والراسخون في الأدب . وهو أحد الروائع القليلة التي عاودتها نحواً من عشرين مرة في مختلف حقب حياتي .

●

الحرب الكونية الأولى

وفي آخر السنة المدرسية (تموز سنة ١٩١٤) غادرت المدرسة الى الجبل ، وفي نيتي إتمام فرض العطلة الصيفية لأعود في تشرين تلميذاً أدّى واجبه، وتأهب لمتابعة دروسه، في خط صاعد ، لا عِوَج فيه ولا انحراف . ولكن ذلك الصيف كان أشأم حقبة أطلّت على البشر . فقد أُعلنت الحرب العالمية الأولى، واهتزت لها جوانب المعمور ، وأقفلت مدرستنا أبوابها . وجيء للقرية بمعلم يُلمّ باللغتين العربية والفرنسية بعض الإلمام ، فكان صائناً لنامن اللعب والنسيان أكثر منه مُدرّساً يأتينا بالجديد ، وما أن أقبل الربيع حتى أقبلت معه أرجال الجراد ، فخرجنا نحن التلاميذ مع الاهلين لمكافحته ، تارة بقرع الصواني النحاسية لإبعاده ، وطوراً بإحراق أو طمر ما تجمّع منه . وكان عملنا ، نحن الأحداث أميل الى اللهو منه الى إبادة عدوّ راعب ، لم يدع نباتاً أخضر سوى الدفلى والصنوبر. إذ جرد الأرض جرداً وقشر الأشجار حتى اللحاء. وعادت الغِيَاض الخمائل والكروم وبساتين التوت عاريةً وكأنها في مَنَاحة . وأذكر انه في يوم شَامِس من اوائل أيار ، وقع الجراد على الأرض فغطّاها بمقدار شبر ، فران على الحجر والمَدَر جميعاً ، وانتنت منه الينابيع والسواقي ، حتى كاد العِطَاش يعافون الشرب ، إلاّ من ماء محرز مصون ، وتكاثفت أرجاله في الجو فأين منها قطع الغمام . وأشهد انه كسف الشمس كسوفاً جزئياً في مدى ساعتين ،

حتى لا يحتـــاج المسافر الى مظلّة ، واستحال الشعاع من ذهبي ساطع الى أغبر قاتم .

ولو اكتفى ذلك الضيف الثقيل بالعبور لهانت الكارثة ، فلقـد استطاب المناخ وغرز في الأرض وباض وفَرَّخ .

وحاولت وأترابي إحصاء بيض الأنثى ، وهو في اجتماعه وتلاصقه أشبه شيء بعرناس الذرة ، فوجدنا المعدل المتوسط لنتاج الإناث الغوارز يراوح بين الثمانين والمئة . ونَقَفَ البيض في مستهلّ الصيف وانفرج عن الدَّبَى[1] . ويكون الدبى أسود اللون بعد خروجه الى النور ، ثم يغبرّ ، فاذا شبّ ونبت جناحاه غدا أحمر لامعاً ، فاذا اكتهل عاد أصفر ذهبياً ، وكانت الأرض ، التي لحس الجراد نباتها فمحاه ، تتبدّل ألوانها تبعاً لهـــذه البُسُط الجراديّة المَوّارة . والدبى أول ما يطلع يكون زحّافاً ، فلا يعترضه حاجز إلا الماء العباب . وتراه يتسوّر ويعرش على الجدران ، ثم يقتحم البيوت دامقـــاً ، فيدخلها من غير أبوابها، منسرباً اليها من كوة ، أو نافذة ، أو من ثقب الباب نفسه ، وكان أول ما انفتحت عليه قريحتي في النظم بضع محاولات زجلية في الشكوى من الجراد ، ولي من العمر ثلاثة عشر حولاً غير كاملة . انفتحت قريحتي وأغلقت المدرسة أبوابها ، واشتدت أهوال الحرب فاندلعت ألسنة النار والدمار ، الى كل قطرعامر . وأخذ اللبنانيون يتنسّمون ريح المجاعة . ذلك انه تلاقى على لبنان وسوريا خطبان عظيمان ، ليس في ما ُيمنى به الآدميون من مآسٍ أدهى منهما وأشدّ : الجراد وجمال باشا السفاح ، وهو شرّ النكبتين ، فلقد أخذ على نفسه تجويع لبنان وتعليق أحراره وأحرار السوريين على أعواد المشانق . ولقـــد أجملت الكلام على ذلك الطاغيـة في مقطع من ملحمة (عيد الرياض) هذا بعض نصه :

---

١ — الدَّبَى أصغر الجراد والواحدة دباة .

(مَرْجَةُ) الشام بالمشانق غَصَّتْ فمتى الصُلْبُ أنبت العيـــدانا[1]

في دُجَى الليل ، راحَ يزرعهـا (البـاشا) رؤوساً فأثمرت أوطـانا

غوطــةٌ في دمشقَ ثالثةٌ طرَّتْ ، وشاءت أن تنبتَ الإنسانــا[2]

أخَلَّدُ الغــوطتين تنتظمُ الدهرَ ويُفــني شبابُهــا الأزمانـــا

قد قَضت عصبةُ الميامين أبطالاً يصيحون : فليعش (بَرَدانـــا)[3]

مُرْسَلَ الصوت يسكب الخير حرّاً وطليقـــاً يوشوش الغــدرانا

كلما رَنَّح العصورَ التـــوالي للرياحين والقرون روانـــا

يا (جَمَــالاً) وما ذكرناك إلاّ سَوَّدَتْ عتمـةُ الرموس رُؤَانا

جيفةٌ أنتَ في الضمير ونَتْنٌ كيفما هَبَّ أبرَمَ البلدانـــا

كان سِقطَ الأيّام ، أو بصقةَ الدهر ، صباحٌ ألقــاك في لبنانـــا

لو سألتَ الحسامَ ، في ذلك اليوم ، لأوْدَتْ عزيزةٌ موتانـــا

حاكم الظـلم ، يسلب القوت منا لِيُغذّي بخبزنـا (الألمـانـا)

الطواحينُ أصفرت من حبـوب فعلى نفسهـا تدور رَحَـــانا

وعلى نفسها تــدور عيون هــائمـات تطــارد الرغفـــانا

ناتئــاتٌ تكاد ، من شدة الجوع ، المآقي تفـارق الأجفانـــا

زائغــاتٌ ، وما أصابت مُداماً ما أصابت إلا حُثـــالاً زؤانا

---

١ – الصلب : المكان الغليظ الحجر .

٢ – لدمشق غوطتان الغربية والشرقية ، وقد جعلنا ، على سبيل المجاز ، المرجة غوطة ثالثة .

٣ – بردى نهر دمشق المشهور .

حينما تكثرُ المزابلُ تلقى جائعاتٍ تُدافع الغَرثانا[1]
تجلبُ الجوعَ القمامةُ ، كالأجياف في القفر ، تجذب الغربانا
ثلجُنا لاحَ قاتماً في الصياصي[2] والأزاهير أدمعت في قرانا
باكياتٍ أمثالَهن جمالاً فتياتٍ وفتيةً غُرّانا
سَمَكوهَا قُرى البهاء وكانوا للثريّا والمشتري جيرانا
يعجب الطرف حائراً في سناها أنجوماً يَشيمُ أم سُكّانا
كلُّ شبرٍ من أرضها مَدرجُ الخلد ، فَعَدِّدْ مدارجاً وجنانا
رَفَعوها فكل زَندٍ عمودٌ من رخام مُمَرَّدٍ من ذرانا[3]
مِعصمٌ أجدلٌ كجذع لُبانٍ طالما جاورَ الذرى واللُبانا[4]
باتَ خيطاً لِضُعْفِه ، ويكاد العظمُ يغزو ، من جوعه ، الشريانا
السقوف المُمَرّدات تهاوى وعلى الأهل تسبلُ الأكفانا
وَائِداتٍ أنقاضُها أمّهاتٍ علّقَت في ثُديّها الرضعانا[5]
شَبَحُ الموتِ يرضعُ الموتَ ، من ثديٍ ، وقد جَفَّ نضرةً وحنانا
رُبَّ أمٍّ من جثّة الطفل راحت تتعشّى فَتَلْهَمُ الجثمانا[6]
بعضُها هَاضَ بَعضَها ، وكلا الجزئين أورى ، فأشبع الذؤبانا[7]
من يدقّ الأجراس حزناً وينعى ؟ قد أبَحَّ النُحاسَ حزنُ الحزانى

---

١ – الغرثان : الجائع . ٢ – صياصي الجبال : أعاليها . ٣ – مرّد البناء سوّاه وجعله أملس . ٤ – اللبان : الصنوبر . ٥ – ثديّ : مفردها الثدي .
٦ – لهَم : بلع . ٧ – هَاضَ : كسر وفتت .

ربما البُومُ ، والبيوتُ رُموسٌ في المشيّات للضباع نمانا

. . .

وصبايا كغُدْوة الأرز حسناً قد أضعنَ النفوس والأبدانا[1]

تَتَهاوى أطمارُهُنّ ، ويهوي العرضُ في إثر عريها أحيانا

يَتَملّى الكعابَ من يملك الخبز ، وتستعبدُ العبيدُ الحِسانا

سِلَعٌ من بَراثن الفقر تُشرى فتقاضى أبْدَالها أدرانا

وطغت موجة الإرهاب ، ولفحت ريح الموت فما نجا من ضحاياها دسكرة ولا حاضرة ، وأعرض الناس عن كل شيء سوى الأكل والاهتمام بمدافعة شبح الجوع ، وما يرافقه من الأوبئة وانتشار الحشرات ناقلات الجراثيم كالقمل وما شاكله ، ولم يبق للناس من حديث سوى الخبز والسعي وراء الرغيف ، وفيه قلت :

إنّ شأن الرغيف من بَعدِ ، شأن الله ، أوْلَى ما تعلق الأفكار

الرغيف الرغيف ! ينشده الجاني ، وما إن تَعَافه الأبرار

حيثما تفرغ الجسومُ من القوت ، فشيءٌ من الحجى ينهار

في سبيل الغذاء ، جلجلت الأقلامُ ، قِدماً ، وَهَبّتِ الثوار

وكان من البديهي أن ينصرف المرحوم والدي الى شؤون العائلة ، فإنه مع احتفاظه بتجارة بزر الحرير والفيالج ، رأى ببصره الثاقب انه سيندر وجود الحبوب في لبنان ، وسيقبل النـاس على التقاطها من روث الحيوان ، بعد ان

---

[1] — الغدوة هي بين الفجر وطلوع الشمس .

ينافسوا البهائم في رعاية العشب ، فادّخر من الحنطة والذرة مقداراً كبيراً . والتزم سواد غابات الصنوبر في قضاء جزين ، على ان يجني ثمارها ويدفع للعمّال والعاملات ، في مقابل أجورهم ، حبوباً يختارونها من أسهل الطرق .

وكيل اعمال :

وكان لزاماً علي أن أسهم في العمل بعد وداع المدرسة ، وحسبته فراقاً الى بضعة أشهر فتمادى بضع سنوات ، فانقلبت حياتي رأساً على عقب . وعهد اليّ والدي في مراقبة العُمّال ودفع أجورهم ، وبيع المحصول وما يتصل بذلك، وأنا يومئذ في مستهلّ العام الرابع عشر . وما كانت هذه الولاية تقتضي دقة في الحساب ، فمعرفة القواعد الأربع تكفي لهذه الشؤون . ولكنني شعرت اني اصبحت رجلاً قبل الحلم ، تلزمني التبعات والموجبات . وأولتني هذه المرحلة الجديدة ضروباً من الخبرة جديدة . فتعلمت كيف استنهض همة العمّال بالرفق والكلم الطيب ، وتمديد الاستراحة بعد الغداء، وتخفيف التعب في أثناء العمل بالغناء البلدي، والحداء في طريق العودة من الغابة الى البيت . وبالجملة فلقد ألِفت حياة الريف بمشقّاتها وبساطة مفاتنها. وأهم تلك المباهج اندماج الانسان في الطبيعة، وجمال الغياض ، ولا سيما اذا كان منها غابة صنوبر سمقت أدواحها، فانطوت الأجيال في جذوعها ، وانسربت أصولها في أرض ذات صَدْعٍ وصخور رمليّة ، تلتمع كالذهب الإبريز تحت عين الشمس .

وللغابة روعة أين منها حسن البساتين والرياض التي تتعهدها الأيدي بالغرس والريّ والعناية ، فهذه صنيعة اليد ، وتلك بنت الطبيعة النابضة بالحياة ، كأنما هي ذات روح . من أجل ذلك ترى البدائيين من البشر ، في مجاهل افريقيا وأستراليا والبرازيل ونظائرها ، يدينون بروح الغابة ويؤلّهونها ويتعبّدون لها . وبسبب هذه الروعة والرهبة تآخى الهنود — وسوادهم سكان غابات — والطبيعة فألّفوا بينهم وبين الآجام وما حوت ، ممّا ينجم ، ومما ينبت على

ساق ، ومما يعرش على الجذوع . وامتدّت هذه الاخوّة الى الحيوان « سواءً في ذلك ما دبّ منه وما درج ، فلا تراهم يعرضون له بشرّ . وكأيّن من مرة دعاني الربيع الى ربوة طَلَّها الوسميّ فانفرجت عن الزوفى والسعتر والبيلسان ، فاتخذت من ذلك البساط وساداً ومرتفقاً ، ونشقت عبير الثرى ، وليس أطيب منه في الخياشم غبّ رذاذ نيسان ، ودَيِم الخريف ، فكأنما التراب يختلج ليذكّر الناس بأنه أبو آدم ، وأن اليه معادهم ومنه ينشرون . وها هي ذي غابات قضاء جزين تتراءى لي الساعة في خطّ متساوق يمتد من مشارف جبع الى دير مشموشة في الطريق الآخذ الى (صبّاح) فبكاسين ماراً بظهر الرملة . وأخصّ بالذكر غابة دير مشموشة المتحدة بغابة بسري ، وهي الأجمة الوحيدة التي دعيت غابة ، وكل ما عداها حَرَج ، وهو في مصطلح اللغويين المكان الضيق الكثير الأشجار ، فالتسمية هنا علم لا نكرة . وانما دعيت كذلك في عرف أصحابها لأنها جد شجراء ، غيناء الأدواح ، سوداء الخمائل ، ملتفة الآس لفرط الخصب وامتداد الظلال . وكان يومئذ يتداخل فيها العوسج والعلّيق والعرعر ، فيتقوّس فوق سواقيها ووهادها ، ويغدو مخابىء للطير اذا شدّ عليها الصيّادون فكلّت قوادمها وملّت خوافيها .

ولقد انتصبت في مقابل هذه الأدغال ، الى الغرب الجنوبي ، على حرف الجبل الصاعد الى عازور ، أحراج من سنديان تشابكت واندمجت في وحدة (فدرالية) فكوّنت غابة (الجوبة) ، ولقد كانت موصولة العرائن الى مستهلّ القرن العشرين ، فيها مرابض النمور ، يسمع زئيرها من في مَبَاسِط بسري ومزرعة المطحنة ، ومن في مشارف عازور ، فلا غروَ أن يتغزل أنبياء التوراة بأرز لبنان ولبانه ، ويصفون جبله بالمنَعَة فيرون في شعفاته ملاعب الأسود وأخدارها . ألا إنّ لكل تلّة من جاراتنا حديثاً ، ولكل وهدة خبراً . ولا ريب انك يا عزيزي فادي تستغرب من جدّك إطالة الوقفة على وصف أحراج وأدغال ، بدلاً من الإسهاب في صفة الحواضر والدساكر . فاعلم يا ولدي ، حفظك الله ، أن هذه

الأرجاء التي أخطها بالقلم هي فلذة مني ، وكان أليق بي – لِمَّا تواضع الناس عليه من تصنّع الوداعة – ان احسب ذاتي قطعة منها ، لولا ان الإنسان ، أيّ إنسان ، يشعّ فيه قبس من النور الالهي ، وإذن فهو داخل في اللانهاية ، والمكان مُتناهٍ مهما اتسعت آفاقه . ولكن هذه الطبيعة المتحيّزة ، تندمج في المرء بنباتها وحيوانها وجمادها ، ومن هنا انطلقت فكرة الحلولية والعقيدة بوحدة الوجود .

فاعلم ان غابة (الجوبة) التي حدثتك عنها مربضاً للنمور ، لنصف قرن خلا ، هي أول ما اكتحل به بصري لما أطللت على العالم الخارجي من شباكين معاً : الطفولة ونافذة بيتنا المشرفة على أفقين هما : البحر البعيد وواد تغيم فيه العيون ، بعد ان تنزلق من آكام الى وهادٍ ، الى مَرْجٍ يتقلّب فيه نهر تغصّ ضفتاه بالدلب والغار والصفصاف الباكي . وبا طالما تمنيتني في الطفولة محلّقاً فوق الوادي مع الطير القواطع ، أو متوشحاً بطارف السحاب إذ الشمس في الأصيل ، ويتشكّل الغمام فترى فيه أوهامُ البصائر والعيون مهما تبتغي حتى أجنحة الملائكة .

بعد هذه النزهة القصيرة ، هات يدك وعد معي الى الغابة يا بنيّ لأريك بعض مَشَقّاتها . فقد كنت ، أنا الغلام اليافع ، مسؤولاً عن الثمار التي يرميها العمّال من أعلى الشجر وتَلمها العاملات ، فيضيع معظمها بين الأدغال . وكان هذا التفتيش يقتضي جهداً غير يسير ، أقلّه الغوص على الأشواك وتفريج الممرّ بينها تارة باليدين ، إذا لانت إبرتها ، وطوراً بالمنجل اذا رهفت وصلبت ، وبينها القتاد ، والعوسج ، و(القندول) والزعرور البريّ ، وهشيم السنديان . وقد تصدّك الصخور العِقاب ، والثنايا التي تزلّ فيها قدمك . وقد تفجأك – اذا كان العمل في الخريف – أفعى تتشمّس ، أو حنش ينساب الى جحره . فاذا

كان في الشتاء ، فما أكثر ما يباغتك المطر هتّاناً ، كأنما قد تفتحت كُوَى السماء ، وتصحبه الصواعق ، والصنوبر أجلب النبات لها ، لذلك لا يجرؤ الناس على اللواذ بجذوعها اجتناباً للبلل . كل هذا فضلاً عن خطر سقوط العمال من رؤوس الأشجار ، ودونهـــا الأرض العَزاز[1] والصخور الجلاميد . وكان قلقي يشتد ، على الأخص ، عندما تهب الرياح وتميد بهم الغصون فيترجّحون فوقها .

●

---

١ – العزاز : الصلبة .

في صميم الجبل

ولكن هذه الأمور ونظائرهـــا ، وجوّ السياسة الفاحم ، والبؤس الممتد الرواق ، والوَكْد في سبيل العيش ، كل ذلك مرّسَني بالصعاب ، فاخشوشنت بعد لين ، ولما وجدتني قد أُنزِلتُ منازلَ الرجال ، ونهضت بمثل الأعمال التي ينهضون بها ، رأيت ان أستكمل عدة الرجولية ، فنقلت البندقية للصيد ، والمسدس للزينة والابتهار[1] .

وفي أواخر الشتاء كان والدي يعود الى الاشتغـال ببزر الحرير والفيالـج (الشرانق) . وكان معظم البزر يستخرج في لبنان لانهماك أوروبا في الحرب . وقد ألممت بالتبزير وبرعت في خنق الفيالج لادّخارهـا وبيعها في الخريف والشتاء .

وإن أعْجَب اليوم لشيء ، فلتلك الثقة التي كان يوليني إياهـــا المرحوم والدي ، في مشترى الشرانق ، من القرى المجاورة وإقليم الخرُّوب وأنا في السادسة عشرة من العمر ، والمهمة خطيرة تقتضي دربة ونضجاً وضبط أعصاب ، فالمنافسون في الشراء سماسرة لمعامل الحرير الكبرى ، وقد تأصّلوا في ضروب المداورة والمزايدة والمناقصة ، وما يتبعهـــا من مؤامرات ينسجونها كما تنسج

---

١ ـــ الابتهار : يقابلها في العامية لفظة البهورة .

الفيالج بإحكام ، ويكون ضحيتها البائع في الأغلب ، أو فتى غِمرٌ مثلي . ولم يكن إرشاد والدي ليعصمني من السقوط في حبائلهم ، فكان عليّ أن أرتجل الرأي أحياناً . وأعجب من ثقة أبي بمعرفتي ، ثقته بشجاعتي او بحكمتي ، فلقد كنت آتي إقليم الخروب ماشياً ، أهبط وادياً وأتوقّل جبلاً ، حاملاً في جيوبي من النقود المعدنية ما يبهظ الجيب والجأش ، إذ العصابات يومئذٍ تقطع الطرق سابلةً ونجداً وَفجاجاً . وقد أضفت الى حملي ذاك عشرات من قذائف الرصاص ومسدساً وبندقية حربية . وكان في بيتنا منها ثلاث: إنكليزية وألمانية وفرنسية ، وكأنما والدي ، وقد حُرِم العلم ومعرفة الألسنة ، أراد استكمالاً لرجولته أن يُلمّ بلغات أوروبية من طراز آخر .

وما كان يهمّني بعد قطع المسافات ، في ارتفاع النهار ، ان يبلّني العرق فأبدّل قميصاً . أليس الأكّارون والعمّال والرعاة يشويهم القيظ فتتفصّد جِبَاهُهم عرقاً ولا يبالون ! ثم اني جبليّ قحّ ، فان كنت لم أزاول أعمالهم فلست بالغريب عن اورشليم . فأنا اعرف المحراث والمعول والمجرفة ومصطلحات الرعاة في تسمية أبقارهم ومعيزهم . وأظن أن ما من آلة وترية تعدل في مسمعي شبّابة الراعي ، مستلقياً على صخرة ، في ظل سنديانة عاتية الجذع ، ليّنة العسلوج ، وليس في المعازف ما يضاهي ثغاء الحملان ، وتغريد القماريّ ، في مستهلّ العشايا ومطالع الأسحار . فإياك يا عزيزي فادي ان تتنكر للجبل – على ما فيه من سيئات سأذكرها لك في موضع آخر من هذه الرسالة – فإنه لَمَنبِت الأبطال ، منه برزت السواعد الملتفّة ، والصدور العامرة بالإيمان . ولا تنسَ قول الإمام علي بن أبي طالب الى عامله عثمان بن حنيف إذ يلومه على الترف والتخنث ، في رسالة هي من أنفس ما جرى به قلم ، ومنها قوله : ألا وان الشجرة البريّة أصلب عوداً ، والروائع الخضرة أرقّ جلوداً ، والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً .

ولا تغرّنك المدينة ومباهاة بعضهم بالانتساب اليها ، وهم دخلاء عليها منذ

أول من أمس . وقد ينتحل ذلك النسب قرويٌ هبط المدينة أبوه ، فزاول حرفة وضيعة فقتر على نفسه فاستغنى ، أو هزل الدهر فرفعه فأبطره . وربما انتمت الى أسرة مجيدة بنتُ جاريةٍ ترعرعت في مطبخ دسم ، الى جانب أمها الزَّمِنة ، فلما نهدت شَقيَ بهـا مُغفّلٌ من ذوي اليسار ، أو غريبٌ همّه في الأنثى لا في شرف الصهر ، فصعّرت الهجينة خدّها وألحقت نسبها بالمنذر بن ماء السماء .

ولا تخلبنّك الألقاب والقصور ، فاني على احترامي لفئة قليلة من ابنـاء البيوت الألى تأصّلت فيهم الشهامة فجروا من الشيم الغرّ على عرق ، لا أرى في سوادهم إلا عنجهية يسترون بها فراغـاً رهيباً . وما قصورهم سوى أهرام دفنت فيها الأخلاق والأفهام ، قبل ان يتوفّى الله أنفس أصحابها .

من ذلك الريف الجبلي وغابه وأجوائه ، وسِيَر البطولات ، ونماذج البداوة التي سأقصها عليك في حينهـا ، انطلق جدك الى الأدب الملحمي . وإليك هذا المثال من ملحمة (عيد الرياض). وهو ينطبق على الحديث الشريف: « تخوشنوا إن النعم لا تدوم » ، وعنوانه بطل الصحراء :

لا يَشبُّ الرئبـالُ في روضة غيناءَ ، حيث التفـّاح والريحان
تتشظّى على القتـاد لبُودُ الأسْد ، حيث الأدغـالُ والغيران[1]
شظفُ العيشِ ، والبلاءُ الذي تلقى ، سبيلٌ الى العُلى ومِران
خذْ من الحنظل المُذوّب كأساً رُبَّ يومٍ أتتكَ منه دِنان
لوّحِ الجسمَ بالهجير ، فـلا تأبَهْ لحَرٍّ ولو طغى بُركان

---

١ – لبود مفردها لبدة ، وغيران مفردها غار .

واذكرِ الخلَّ ، إن فقدت رضاباً   وتَلَظّى من الجفاف اللسان
فلعلَّ الوهمَ المجسّمَ يجدي   حيث ضَنَّ السحابُ والغدران
لا سَمُومٌ تؤذيك لا زمهريرٌ   لا رُقادٌ مُقطَّعٌ وسنان[1]
لَنْ تذوقَ المنام إلاّ غِراراً   فتخشّنْ ، فالغانم اليقظان
من إذا نام ظلَّ في أهبة الواعي ،   فما سايرَ العلى غفلان
لم ينَمْ مِلءَ وعيه عبقريٌّ   فهو كالنجم ساكنٌ سهران
عقلُه الباطن الدؤوب على الجُلّى ،   فعولٌ ، وان ، وَنَتْ أجفان
تعمل الروحُ ، إن تكن فَذَّةً عُليا ،   ولو نَاءَ مُتعباً جثمان
فتخطُّ الغدَ المحجّل ملآنَ ،   ويرسو على الخلود الآنُ
عوّدِ الطرفَ أن يرى من وراء النقع ،   كيف الوطيس والمعمعان
أن يلفَّ المدى بدورة عينٍ   فترى أين يُؤثَر الميدان
عوّد الطرفَ أن يُحدّقَ للهيجا ،   فلا خفقةٌ ولا زيَغان
شيمةُ النسر أن يرى الشمسَ ضحيانَ ،   وإنسانُ عينه صوّان
عوّد الأذنَ أن تحسَّ دبيب النحل في الليل ،   فالدجى آذان
ألصِقِ السمعَ بالصعيد فتدري   أخيولٌ مغيرةٌ أم هِجان
عوّد الصوتَ أن يجلجل رعداً   فيهبَّ الضياغم الشجعان
يبعث العزمَ في رجالك مدراراً ،   ويُودي من الزئير الجبان

---

١ – السموم : الريح الحارة .

عَوّدِ الصدرَ أن يكون حديداً ربما استهدف الجبانَ السنان

وادّرِعْ من خشونةٍ وصقالٍ إنما تصدم الظُبى الصَفوان[1]

وَلْيُحرّك بنانُكَ الرخص أرسان المهاري ، ولترجف القيعان

ولْتُصرّفْ كفُّ الشمالِ عناناً حين يسخو من اليمين الطِعان

أو فَقَاتِلْ براحتيك ، فتعتزّ المواضي ، وَتُزهر الُمرّان

واركب المهرَ عارياً فله من صاعق الصوت دُرَّة وعنان

فحصانُ الخيّالِ ما شاءه الخيّالُ ، ما همَّ أن يشاء الحصان

غَالِبِ الجوعَ ، طالما غَالَبته في مطاوي تأريخها عدنان

الألى دوّخوا البلادَ ومنهم كل ليث طاوي الحشا خمصان

إنما روضة القصور زِيَانٌ يبسم الوردُ فيه والبيلسان[2]

في وُعور الغابات ، تسمقُ أدواح ، ويقسو الشربين والسنديان

وبها الأرز يَفْلِقُ الصخرَ أسراباً ، ويعتو ويشرئبّ اللُبان[3]

ذاك ان العظيم في كل شأنٍ كان مهمازَ وَعيِه الحرمان

فتأمّلْ تجدْ أشدّ غرام حيث كان اللهيب والذَوبان

حيث غاضت من السعير دُموعٌ واستحرّتْ في الأضلع النيران

ومِنَ الكبْتِ غرّدَ البلبل الشادي ، ومَالَتْ بسحرهِ الأفنان

واسترّقَتْ على اللهاة أغاريدٌ عِذابٌ وأُغنيات حسان

---

١ – الظبى . مفردها ظبة وهي حد السيف والصفوان الحجارة الصلدة الضخمة .

٢ – الزيان : ما يتزين به .

٣ – أسراب مفردها السرب بفتح السين وهو السرداب .

تقدم لي ياعزيزي فادي القول ان الفتوة يستتبع بعضها بعضاً، ولا بد للطاقة الحيوية من الظهور ، إذ الحياة لا تنفك تعبّر عن نفسها عفواً ، فتكون خضرة أو ثمراً في النبات ، وتغريداً في لهوات العنادل ، وحدّةً في مخالب السباع ، ونشاطاً يبدو ، أول ما يبدو جنسياً في الشبّان . وكان لا بدّ لي من كبت هذه الغريزة أو معظمها يومئذٍ ، لأسباب سأبينها لك في موضعها من هذه الرسالة .

ذلك النشاط الزاخر ، ومصدره العافيـــة ، كبرى منن الله على الإنسان الجسد ، كان في حاجة الى مصرف . ولقد اعتبرتـُني رجلاً تامّ الرجولة يوم استطعت قرع الجرس الأكبر في دير مشموشة عشر ضربات متوالية . وهنأني رفاقي حينئذ تهنئة الفاتحين . وقال بعضهم : لا غروى إنه ابن فلان . وعلى ذكر هذا الجرس بالذات ، لا أزال اذكر حادثة ، أغتفر من أجلهـــا للفتيان بعض مغامراتهم واعتدادهم بقواهم ، ومؤداها : اني ونسيبي جوزيف سلامه[1] طلعنا من بسري الى دير مشموشة ، لنقرع ذلك الجرس في منتصف ليلة الفصح ، فقطعنا زهاء سبع كيلومترات مصعّدين في طريق عرقوب ليس في الشعاب أوعر منه ، مزوّدين بكمية من البيض المسلوق المُلوّن (للمفاقسة) إقامة لسنـّة العيد. ولقد أبلينا تلك الليلة بلاءً حسناً . فبعد أن قرعنا الجرس بمرأى ومسمع من عشرات القادمين للصلاة من القرى المجاورة ، خطر لجوزيف ان يشابك بين أصابعه وأصابع شاب يدعي القوة وهو منها خالٍ ، وكادت إصبعه الوسطى تنفك . وبعد هذه المقدمة الصراعية دخلنا الكنيسة، واشتركت أنا مع المرتلين،

---

١ ــ المحامي المعروف وكان تربي ورفيقي الدائم في الدرس .

وكان صوتي، على جهارته وبعض غنّة فيه ، يظـــل ناشزاً كالعمود المنفرد بين القبور الدوارس .

وكانت جوقة المرتلين خليط أصوات متنافرة ، تذكّر ببرج بابل . ينخرط فيها من يشاء من الوافدين ، ولا من يصدّه ، فمنها النابي ، والأخنّ ، والمختنق ، والأغنّ والناعم ، والكرواني والأجش ، والأبــحّ والمصلصل كأنه صدى النحاس ، الى آخر الباب .

وبدون ان يكون لنا في ذلك الزمن منظمات رياضية ، كنا معشر الفتيان ، لا نفتأ نباهي برفع الأثقال كالأجران والمحول ، وما كنت في الرعيل الأخير بين لِدَاتي ، ولكن أبي لم يشجعني مرة واحدة في هذا الصدد لسببين : أولهما رغبته في تحويل طاقتي الفتيّة الى الصعيد العقلي ، وثانيهما خوفه من أن أسوّد وجهه فلم يَرَني حيــاله جَلْداً أيِّداً . وما كانت الحالة الوسطى لتروقه ، فلم يكن ليرضى عن الذؤابات بديلاً ، فإمّا ساحل خصب وَادِع ، وإما ذروة تتلقى أولى قُبل الشمس .

في تلك الحقبة ، وهي مطلع الشباب الأول ، كنا نسمع بالمرض من بعيد ، ونكاد لا نصدّق به ، ولا غروى فإن الإنسان لا يحسّ جسده ، إلاّ حين يعتلّ عليه ، فلا يشعر ان له أضراساً إلا حين تضرب عليه إحداها ، أو عيناً إلاّ إذا رمد . ولقد وقع لي مرة أخري شبه مغامرة . رافقني فيها يوسف سلامه نفسه (سنة ١٩١٩) ، وكنا يومئذ بمزرعة الضهر (إقليم الخروب) في مدرسة موقتة .

وكان حافزنا الى الرحلة رغبتنا في أكلة مشمش، وعلى زهاء ستة كيلومترات من مزرعة الضهر تقع مزرعة (الداوديّة) وفيها ينبوع يسقي بستان المشمش ومنابت البقول . واخترنا عيد العنصرة لتلــك النزهة (الفاكهانية) . وفي الأرجح ان الباعث عليها ، لم يكن الشره الى المشمش ، بقدر ما كان رغبة في سبق أترابنا ، الى بواكير الثمار ، التي لم يتداولها العموم بعد ، فعلَ الأغنياء

الذين يشترون الفاكهة غاليةً في بكورها ويعرضون عنها شائعةً قريبة المتناول. وما ذلك سوى مظهر من مظاهر المفاضلة ، ومردّها الى حب السلطان الذي يُسيّر المجتمع .

سرنا الى (الداودية) بعد الغداء ، في يوم قائظ ، ريحه سَموم (شرقية) ، وسماؤه غبراء ، فهبطنا من قرن الى وادٍ ، في منحدر تدحرجت فيه أقدامنا غير مرة ، لأننا صدفنا عن الطريق السابل ، وسرنا في خط مستقيم لا نبالي بالصخور النواتىء . وقد جنينا على الياس سلامه شقيق يوسف لاننا اصطحبناه في تلك السفرة المضنية ، وهو يومئذ يحبو الى العاشرة ، ولم يكن به حرص على الفاكهة وسواها من الطيّبات . وقد أطلقنا عليه لقب (بك) من قبيل التنادر ، لفرط أنَفته ورصانته وميله الى الأناقة ، وهو في تلك السنّ المبكرة . وقد رافقته سجايا الطفولة الى يومنا هذا ، فلقد كان كبيراً في صبوته وما زادته الأيام إلا رفعة وكرماً وخلقاً طيباً .

وقد حاولت التخفيف من وعورة المسلك وشدة الحر ببعض أبيات زجلية من نوع (القرّادي) . وباطلاً جهدت في تلقين يوسف أوزان الزجل (من قرادي وقصيد ومثمّن منفرد ومثمن مزدوج) لأنه كان بطبعه ميّالاً الى الرياضيات . وقلما تأتلف السليقة الشعرية والمقاييس الحسابية .

بلغنا البستان وأفرطنا في أكل المشمش والخيار ، وكلاهما لذيذ الطعم ثقيل على المعدة . واستكمالاً لطيش الصبا تابعنا السير الى بسري مباشرةً ، والشمس تصهرنا صهراً . وسبحنا في أحد غدران النهر ، وأنقذنا الله من سوء الهضم. ولقد تقدم لي القول اني في السباحة جهول ، أما يوسف سلامه فخبير ، لانه شب هناك على شاطىء النهر ، ولقد صدق من قال : إن للبقاع تأثيراً في الطباع ، فإن السباحة وركوب الخيل لا يحذقهما إلا من تمرس بهما صغيراً يجهل الخطر ، ومن هنا كان أمهر السبّاحين جيران البحار والأنهار . أما الخيّالة فسوادهم أهل

سهول ، حيث للسنابك ملاعب ، وللصواهل مجـــال ؛ وقبل ان تدول دولة الخيل ، كانت سهول عكار والبقاع ومرجعيون منابت الفوارس اللبنانيين الذين اعتزت بهم الصهوات ، وزهت الميادين .

الكتاب :

بعد هذا الاستطراد المديد ، الذي يبدو نفـــلا لأصحاب الرأي الفطير ، ولكنه يتحتم فرضاً على المؤمنين بأن المرء يتكوّن من مجموعة ظروف وتجارب ، لا بد لك يا عزيزي فادي من السؤال عن حياتي الفكرية في الآونة المتمادية بين سنة ١٩١٤ و سنة ١٩١٨ . فاعلم ، حفظك الله ، اني في هذه الغمرة من البلوغ والعمل والصيد ، وفي ذلك الجوّ المفعم بأشباح الموت لم أقبـل على الكتاب كل الإقبال ، ولم أتخلّ عنه كل التخلي ، فكنت أحمـــل في جعبتي الى الأحراج والوعور تارة سيرة عنترة ، وطوراً (كليلة ودمنة) أو (مجاني الأدب) ، وفيه طائفة من أخبار العرب ونوادرهم ، وكل ذلك يمتّ بسبب الى القصص وتقويم الأخلاق وتمجيد البطولة . وما كنت أملك سوى هـذه الكتب وبعض كتب للقراءة الابتدائية الفرنسية . وشاء الله ان أنفتح على كتاب كان له أثره البعيد في حياتي، إذ نبّهني الى المطالعات الدينيـــة ، بعد قطيعة طال أمدها ، ذلك الكتاب هو التوراة ، واليك تفصيل اهتدائي اليه .

كان جدّي لأمي[1] ، رحمه الله ، شيخ صلح القرية ، وقد أهّله لوظيفته تلك صفتان : صلاح سيرته وعلمـــه . والعلم في مفهوم فلاّحي القرن التاسع عشر معرفة القواعد الأربع في الحساب ، وقراءة مزامير داود قراءة ساكنة فراراً من تكاليف الإعراب ، والكتابة بخط أوضح من خط المغاربة . وكان جدي قـد تجاوز هذا الأفق الضيّق الى التضلع من اللغة السريانية والعلم بالتوراة كلها ، بدءاً

١ – هو المرحوم حبيب حنا القطار .

من سفر التكوين إلى سفر المكابيين . وقد أعلمني غير مرة أنه لن يثق بمعرفتي ما لم يَرَني واقفاً الى جانب المقرأ [1] مرتلاً بالسريانية ، وانه لن يرضى عني ما دمت أجهل التوراة ، فاتممت رغبته ، ودرست عليه مبادىء السريانية في أسبوعين ، ورتّلتُ على المقرأ في أول جنازة عرضت .

وما إن أقبلت على التوراة حتى كلفت بمطالعتها ، ولا سيما الجانب القصصي منها ، كسفر الخروج ، والقضاة ، وراعوت ، والملوك ، ويهوديت ، وأستير ، وطوبيا . واستهواني ، أكثر ما استهواني ، أخبار الأبطال من أمثال جدعون ابن يوآش ، ويفتاح الجلعاديّ ، وشمشون الجبّار . ولئن فاتني يومئذ ادراك الناحية الجمالية من المزامير والأمثال ونظائرها ، حيث يستعلي الشعر ، ويكثر التجريد ، وهو أسنى مراتب المعرفة ، فلقد ابتهجت بالبيان الأنيق الذي جرى به قلم المعرّب الشيخ إبرهيم اليازجي . ذلك المعلم بدون دعوى ولا منّ . وانه ليستميل الأفئدة بتلك البساطة الصعبة والأصولية (الكلاسيكية) التي لا عجيج وراءها ولا انتفاخ . ولقد انتفعت بديباجته الحريرية على قدر طاقتي في الاستيعاب ، وان كان غرضي الأول هو الرواية . ألا ترى ، مثلاً ، ان القادم الى بيروت بطريق صيداء ليشهد حفلة ، أو يشتري فاكهة ، يجعل همّه في ما هو ذاهب اليه ، فقلما يستوقفه البحر الأخضر وفوح الأريج في الربيع ، ولكنه ينعم باللون والشذى وينحدران الى عقله الباطن ، ثم يطفو كلاهما ، ويبرز الى دائرة العقل النيّر ، كلما اتجهت البصيرة الى الأفق الضاحك وطيب الشميم ؟

ولقد استوقفني منذئذ — على حداثة شأني بالاستقراء والاستنتاج — بعض أحداث التوراة من الجهة الخلقية ، وعلى الأخص المهمات الجسام المسندة الى المرأة

---

١ — المقرأ يدعى بلغة العامة (قرّاية) وهي طاولة مربعة يوضع فوقها كتاب كبير يحوطه جماعة من المرتلين بالسريانية .

يهودية الأمس ، وما حفيدتها اليوم إلا امتداد لها ، وعليها ينطبق كلام سليمان ، ان لا جديد تحت الشمس .

وأول ما يطالعك ، من الوجوه الصِباح ، وجه سارة ، إذ عهد اليهـا أبو الآباء ابراهيم في استجلاب رضا فرعون ، فضرب الربّ فرعون وأهله ضربات عظيمة بسببها . وكذلك القول في موقفها من أبيملك ملك جرار . ولقد تعزّى الخليل عن سارة هذه ، فتزوج بعد موتهـا حسناء تدعى قطورة — وكان قد نيّف على المئة — فولدت له زمران ويقشان ومدان ومدين وبشباق وشوحاً ، فيا نعم الزوج المخصاب .

أما مضاجعة بنتي لوط لأبيهما غب خمر وسكر ، غـيرة منهما على انسلالة فبدعة ، في باب التناسل ، أيّ بدعة . ولا يضاهيها إلا احتيال تامار على حميها يهوذا ، إذ خلعت ثياب إرمالها وتطيبت واتخذت خيمة بَغيٍّ ركزتهـا شركاً على طريق الشيخ فصادته ، فحملت منه بتوأم هما : فارص وزارح . ولا تسل عن مهارة رفقه ، في دلالة ابنها الأثير يعقوب على طريق الكذب ، لاختلاس بركة أبيه الأعمى ، حتى جرت خدعته مثلاً في افواه الناس الى يومهم هذا إذ يقولون : اللمس لمس عيسو والصوت صوت يعقوب .

وهناك عجوز لبيبة أريبة أمهر من رفقه — على أنها أصفى نيّة — هي نعمى زوجة اليملك، تلك التي قالت لكنّتها راعوت : « والآن فان بوعز الذي كنت مع فتياته هو ذو قرابة لنا ، وها هوذا يذرّي الشعير في البيدر هـذه الليلة فاغتسلي وتطيبي والبسي ثيابك وانزلي الى البيدر ، ولا تظهري له حتى يفرغ من الأكل والشرب ، فاذا رقد فعايني الموضع الذي رقد فيه ، وادخلي واكشفي جهة رجليه واضطجعي فانه يخبرك بما ينبغي أن تصنعي » .

ولكن المرأتين القمتين اللتين جسّدتا الجمال والفتنة ، وكانت كلتاهما بركة على الشعب المختار ، هما يهوديت وأستير . الاولى حقنت دم اليهود اذ تبرّجت

وازّيّنت وأسكرت عدوهم الرهيب القــائد اليفانا فسقته بالكأس الرويّة ، فازداد عطشاً الى الجنس ، فاحتزت رأسه وحملته هديّة الى شيوخ بيت فلوى فسبّحوا بحمدها ورفعوها الى صفوف القديسات . أما الثانية أستير ، فقد تتيمت أحشويروش الملك فأنقذ جما لهــا اولئك الذين هادوا ، فكان حسنها الشفيع الذي لا تُردّ له شفاعة .

أما عبقرية اليهود في الكسب والاستغلال فيضيق المجال عن بحثها في رسالة بل في كتاب ضخم لأنها ماهيّة اليهود التي بها كانوا وبدونها لم يكونوا . ومن قبيل التمثيل نشير الى أكلة العدس وهذا نصها : « وطبخ يعقوب طبيخــاً ، وقدم عيسو من الصحراء وهو قد أعيا . فقال عيسو ليعقوب أطعمني من هــذا الأحمر فاني قد أعييت ، ولذلك قيل له أدوم . فقـــال يعقوب بعني اليوم بكريتك ، فقال عيسو إنمــا انا صائر الى الموت فمالي والبكرية فقال يعقوب احلف لي اليوم فحلف له وباع بكريته ليعقوب . فأعطى يعقوب لعيسو خبزاً وطبيخاً من العدس فأكل وشرب وقام ومضى » .

أمّا انعزالية اليهود فلا داعٍ للتبسط فيها ، وانما أقتصر على مقطع من كتابي (مذكرات جريح) هذا نصه :

لم تزل الأمة اليهودية محتفظة بطابعها الخاص ، منعزلة عن سائر الشعوب ، بالرغم من وجودها بينهم ، فهي من هذه الجهة كالبطّ يعيش في الماء ولا يبتلّ ريشه . وكان من المفترض في هذه الملـّة ان تكون السبّاقة الى المثالية والكمال وبلوغ الذروة في الروحانية ، ولكنها لا تدين بسوى المادة شأنها اليوم كشأنها بالأمس . فلقد انتظرت منذ غابر الدهر مسيحاً يوفـّر لهــا الثروة والملذات ، ويمتـّع اسرائيل بفردوس أرضي ، ولشدّ ما كانت خيبتها ، عندما أتى يسوع يبشّر بمملكة من غير هذا العالم ، ويأمر بالرفق والتواضع والمحبة ، وينطق في موعظة الجبل بأسمى كلام ، تلاقت عليــه الشفاه منذ مولد الكلمة ،

بل منـــذ كانت الكلمة في الممكنات . ولم يحفظ اسرائيل من كل الأسفار المقدسة ، سوى العبارة التي وجهها الله لآدم حـــين طرده من الجنة : بعرق جبينك تأكل خبزك . فتعلق اسرائيـل بالخبز ونسي الله . ومن سخرية الأقدار ان يكون هذا الشعب المختار (وقد سمي كذلك بسبب يسوع المنتظر ظهوره من بيت داود) وان يكون الداوديون أسبق الناس الى التنكيل به . ومن أشد الأخطار على القيم الانسانية هـــذه العنصرية البغيضة ، التي تدوس الفرد في سبيل الشعب . ولقد كان اليهود أسبق الناس الى تأليه الشعب وتحقير الفرد ، وايجاد الهوّة السحيقة بين الإنسان والله الرحمن الرحيم . فصوّروه في التوراة إلهاً غضوباً يندم كما يندم الانسان ، ويحزن ويتحمّس ويتكبر حتى لا يمكن الانسان ان يواجه ملاكاً من ملائكته ويبقى قيد الحياة .

وكان من ثمة للاسرائيلي إلهان : أولهما الله الذي يكرمونه بالمقدار الذي يكرم به أحد الأصنام في الصين ، لأنه يجود على الصينيين بالسمك والأرزّ ، والثاني الشعب الأشعبي المطامع، منذ كان في مصر على عهد الفراعنة حتى احتلّ فلسطين في القرن العشرين .

ولا يغيب عن خـــاطري ما رسخ فيه يومئذ من أمر داود . فإنه شخص تجسدت فيه المتناقضات ، مما يوطد نظرية اجتماع الأسود والأبيض على صعيد واحد . فلئن أمعن هرقليط ، الفيلسوف الأغريقي الأول ، في ترسيخ مبـــدأ التناقض – وكان بهـذا السبب آدم الديالكتيك الذي انتهى الى هجل وكارل ماركس – فلقد أفرط أريسطو أيضاً في تكريس مبدأ الوحدة والاستقرار . فبينا ترى داود الملك راعي ضأن في هضبات بيت لحم ، تراه بعـــد أن صرع جليات الجبار موسيقياً عازفاً بآلات الطرب ، عليماً بطبقات الصوت وتصنيف الأجواق ، وشاعراً من الطراز الأول ، وقائداً حربياً ذا دربـــة ومرونة ، وملكاً رئيفاً بشعبه أثيراً لديه . ثم تراه يفعل ما يفعل بأوريا الحثي فيسطو بالنعجة الواحدة ويصرع صاحبها . ثم يسحقه الندم فيجود قلبه بمزامير التوبة

التي ما انفكت الحياة فيها مختلجة منذ آلاف السنين . ولما شاخ وطعن في السن لم يجد الى الدفء سبيلاً ، إلاّ بين يدي فتاة جميلة تضطجع في حجره ، واسمها أبيشج الشونمية .

ولقد أوجبت عليه السياسة ان يعفو عن أعدائه ولا َعنيه يومَ عـاد من الحرب منصوراً ، بعد مصرع ولده أبشالوم . ولكن ذلك الصفح الموقت محاه بغض ما انفكت ناره تأجج في صدر داود ، وهو في ساعاته الاخيرة ، فيوصي سليمان الحكيم ابنه بما هذا نصه « وعندك شمعي بن جيرا ... وهو الذي لعنني لعنة فظيعة يوم انطلقت الى محنائيم ثم نزل للقائي عند الاردن فحلفت له بالرب اني لا اقتلك بالسيف . والآن فلا تبرئه فانك رجل حكيم فاعلم كيف تصنع به وأنزل شيبته بالدم الى الجحيم » .

ومُؤدّى ذلك ان داود أقسم انه لن يقتله بسيفه فقتله بسيف ابنه . قتل تائباً مرّ على جرمه الزمن ، فعاد شيخاً ِهمّاً [١] ، فأبى داود إلاّ خضب هامته البيضاء بالدم ، حقـّاً ان في ذلك لعجباً . أما سليمان فأمره أعجب ، وحكمته تظل فريدة في التاريخ ، وليس أدلّ عليها من اتـّساع صدره لتسع مئة زوجة ، مع ان امرأة واحدة تستطيع العبث بتسع مئة رجل . فلله درّه منصفاً عدل بينهن فلم يُشوّشنَ سفر (الجـامعة) بصدى التذمُّر واللغط . وأعجب من حكمته وعدله ، شجاعته في الإقـدام على ذلك الجيش المؤنث ، وتضحيته الموصولة ، ثم تواضعه بعد ذلك الفوز الكبير أو سأمُه الذي بلغ حدّ (القرف) فأملى عليه قوله : باطل الاباطيل وكل ما تحت الشمس باطل . ولو نزلت عليه تلك الحكمة وهو عَزِب لظلّ بتولاً .

ولقد فاتني ، يا عزيزي فادي ، يومئذ الشعور بعظمة سفر أيوب ، فمررت

---

١ ـ الِهمّ : العجوز الفاني .

به كعبور المسافر على جسر مَوّار وقد صرف َهمّه الى الضفـّة الثانية فما أَبَهَ للشميم ، والخضرة ، وصفاء العندلة .

ولعلي تعمدت الفرار من ذكر الفواجـــع ومرارة الآلام ، وصورة ذلك الرجل الذي ُضرِبَ بقرح خبيث من باطن قدمه الى قِمّته . وكنت يومئذ في السادسة عشرة من العمر ، والشباب يصدّ عن القصص القاتم ، فانّما الربيع يحب الربيع . وما كنت أعلم يومئذٍ اني سأعود الى هـــذا السفر ذي النفس الملحميّ ، وأكون أنا في رأي المنصفين شاعر الملحمة وأيوب الثـاني . لذلك تراني ايها العزيز فادي ، بعد أربعين قرنا تفصلني عن أيوب ، قد خاطبته بمقال أُدرج فيه كتابي (مذكرات جريح) وعنوانه (بين ايوب وبيني) فراجعه في موضعه ذاك .

•

بعد الحرب

انتهت الحرب في تشرين سنة ١٩١٨ ، وتَبَاشر الناس بحياة جديدة ، وكان طبيعياً ان يعودوا ، بعد زوال الحال الشاذّ ، الى حياتهم العادية التي هجروها قسراً في مدى أربع سنين . بَيدَ أنه لم يكن في مقدورهم وصلُها بمثل السهولة التي يوصل بها الخيط المنقطع في يد الحائك . أليس الانسان في تغيّر مستمرّ ، فلا تمر به ساعة كأختها .

وكان علي أن أعود الى المدرسة لِأصِل الخطّ الذي انقطع ، ولكن الى أيها؟ وسوادها ما برح في طور الاستعداد . وبعضها كان ثكنات للجيوش التركية ، أو زرائب لخيولهم . ورأيت ان استعد في بضعة أشهر للرجوع الى مدرسة داخلية ، فجئت مزرعة الضهر ، (إقليم الخروب ومعي يوسف سلامه ، لنتلقّى دروساً خاصة ، على شمّاس عليم بالفرنسية والعربية[1] .

قال الشاعر :

إن الغصون اذا قوّمتها اعتدَلت ولا يلين اذا قوّمته الحطب

ونحن لم نكن قد أصبحنا حطباً ، بيد اننا لم نكن في الغصون الاماليد ،

---

١ – هو المونسنيور يوسف عبد المقيم حالياً في الولايات المتحدة .

فلقد كنا ندرس في النهار ونسمر في الليل . وقد غمرت القرى اللبنانية حينئذ موجة من غبطة لانتهـــاء المجاعة وتدفق أموال المغتربين على ذويهم . وكان من حقنا ، بعد إذ بكينا مع الباكين ، أن نفرح مع الفرحين .

وأذكر أنا أدّينا قسطنا للسهرات والأعراس ، غناءً ، ورقصاً ، وابتداع ألعاب . وكان رقصنا بلدياً بحتاً ، من صميم الفولكلور اللبناني وأهمّه (الدبكة). ويومئذٍ كنا نسمع ان الفرنجة يتراقصون متلاصقين، ويكونون أزواجاً أزواجاً، ذكراً وانثى يدرجان ويطفران ، ينفصلان تارة وطوراً يلتحمان ، كالبحرين إذ يلتقيان ، وليس بينهما برزخ فيبغيان ويبغيان .

وكان طبيعيا ، بعد تلك السهرات ، ألاّ يعلق في أذهاننا شيء كثير من حكايات لافونتين ، وتمارين الغراماطيق ، وقد كنا نجري في الدرس على غير منهج ، فنختار الدرس الأسهل .

وفي أول تشرين الأول سنة ١٩١٩ دخلنـــا مدرسة « الحكمة » فكأننا لم نغترب لأن جوّها لبناني جبلي خالص ، بدءاً من الرئيس الى الخادم الذي يكنس المطبخ . وكذلك القول في رفاقنا ، فسوادهم جبليّون أقحاح ، فمنهم من يرتدي (القنباز) ويعرّض (الزنّار) ويعقف الشاربين . ومنهم المُلتّون بالسريانية ، والناطقون بالقاف المقلقلة ، ونَدرَ بينهم المدلّهون بلغة لامرتين . كأنما الجوّ العدناني ، الذي بعثه الشيخ عبدالله البستاني والشيخ يوسف الأسير وأمثالهما ، يأبى رطانة الأعاجم . وكأن تلك المدرسة التي شهدت ساحاتُها بشارة عبد الله الخوري ، باعث شعر الغزل في مستهلّ القرن العشرين ، وأحد أساطين القصيد في الشرق العربي ، والأمير شكيب أرسلان ، ومحمد كرد عـــلي ، وأمين تقي الدين ، وشبلي ملاط ، ووديع عقل ، وجبران خليل جبران ، وداود بركات ، ونعوم مكرزل ، وسواهم من أمراء البيان ، كانت بطبعها تقدس لغة القرآن المجيد ، فلا تكرم لغة راسين إلا بمقدار ، وباعتبارها نزيلة محترمة ، ولا قهرمانة ولا ربّة بيت .

ولا غروى فلقد كان العهد عهد البستاني عبدالله الذي قال فيه تلميذه الشاعر الكبير وديع عقـــل ، بمناسبة حفلة إكرامه ، قصيدته المشهورة ، ويحضرني منها قوله :

أمعلّم الفصحى وربّ بيانها — هذا مقامك في بني قحطانها
وَفَدُوا، وهم أمراؤها وشيوخها — ليبايعوك وانت فرد زمانهــا

وختمها بهذين البيتين :

ناداهُمُ للمهرجان فضحضحوا — مثل السيوف تُسَلُّ من اجفانها
هذي عكاظ وسوقها معقودةٌ — والشيخ راحته على ميزانهـــا .

ومنذئذٍ خطر للقائمين على المعهد إقامة عكاظ الحكمة ، فيا سقى الله تلك المواسم التي شهدها منبر الحكمة ، فكاد خشبه يندى ويُورِقُ طرباً .

بلىَ يا عزيزي فادي لقد كان معهد الحكمة سنة ١٩١٩ شبيهاً بأحد الأديار اللبنانية ، ولولا صفير القطار والبواخر لظننتني في الجبل . ولبثنا في الحكمة حتى آخر الشتاء ، وغادرناها لوعكة صحية ، عقبهـا الإخلاد الى الراحة ، فالكسل المتمادي ، وصرفت الربيع في بتدين اللقش .

شيخ صلح القرية :

في تلك الآونة ، كان القسم الاوفر من الانظمة التركية ما برح قائما . وكان في نظام لبنان الصغير ان يتولى الشؤون الادارية في القرى مشايخ الصلح ، يعاونهم المختارون . وتُوفّي شيخ صلح القرية فأجمع الرأي على اختياري بديلا عنه، وكان لي من العمر ثماني عشرة سنة غير تامّة. تلك حادثة وحيدة في بابها، وخرق للنظام صارخ . وكانت سلطة المشايـخ في العهد العثماني أوسع من

اختصاص المختارين في أيامنا هذه، إذ تخوّل الشيخ فصل الدعاوى المالية اليسيرة والتوقيف الاحتياطي مدة أربع وعشرين ساعة ، وجباية الاموال الاميرية ، وأجلّ من ذلك سلطة الشيخ في انتخاب اعضاء مجلس الادارة ، اي نواب لبنان في عهد المتصرفية .

بعد هذا ترى ان شيخ الصلح لم يكن خفيف الوزن في كفـّة المجتمع . ولقد كان الترك يحوطون كل ذي مهمة رسمية بهالة من الالقاب والنعوت بدءاً من (السلطان ابن السلطان الساكن الجنان ، قطب الازمان ، سلطان البرّين ، وخاقان البحرين) الى شيخ الصلح ، فيبعثون اليه (بالبيورلدي) اي مرسوم التعيين صادراً عن المتصرفية ويستهلـّونه بهذه العبارة :

حضرة سليل الاماجد الكرام ، قدوة الاماثل الفخام ، فلان زِيْدَ قدره

وعندي ان كثرة الالقاب دليل على ضعف الشخصية ، وان الذين ابتدعوها إنما ارادوا بها التهويل على الناس ، إذ لو برزوا للمجتمع ، وقد تجرّدوا من تلك الدروع السخيفة ، لهـَانوا في الابصار ، فلم يبقَ وراء القبور المكلسة إلا الرفات البالي .

ولقد سرّني ، في مبتدأ الامر ، إجماع الاهالي على احترامي واختياري شيخاً ، بينا كان اترابي يلعبون العاب الصبيان . ولكنني تبيّنتُ ، بعد قليل ان ثقة الجماعة سلبتني حريتي ، فعاد ضحكي ابتساما لئلا يقال : إن الشيخ استغرق فخرج عن وقاره . وغدا سيري بطيئا لئلا يقال : خِفـّة في القدم خفـّة في الرأس . اما حياتي العاطفية فكان علي ان اجاوزها من الكـَبْت الى الخنق التام ، لئلا ارمى بالطيش . وألسُن اهل القرى مسنونة ابداً للطعن . ومعظم خطايا سكان الدساكر النميمة والافتراء . فتراهم تارة يختلقون الاخبار المريبة وطوراً يجسّمونها تجسيم المآسي . وفي ذلك تنفيس عن كروبهم ، وتلبية

لغريزة العدوان التي بدأت بقايين قاتل هابيل . وبحسبهم حادثة تافهة ليتلهّوا بها بضعة اشهر، ويقلّبوها على الف وجه ، يستعيضون بها عن الجرائد والمسارح ودور السينما ، ولا سيما ان الراديو لم يكن معروفاً بعد .

ولا يخفى ان الرصانة في رأي القرويين مقياس الإحترام . غير أنهم كانوا يغالون في مفهوم الرصانة حتى يبلغوا بها حد الجمود ، بل حد الصنميّة . فكلما كان المرء ثقيل الحركة بطيء اللسان ، خافت الصوت ، كان إلى قلوبهم أقرب ، وبإكرامهم أجدر . وأظن ان إيثارهم للسكون ، ومقتهم للحركة ، ناجم عن رواسب اعتقاد تليد ملخصه : ان الله تعالى جامد ، لذلك صوّرته الاوهام شيخاً جليلاً ذا لحية بيضاء ، ونعتَته الخيال بأنه (القديم الأيام) .

لذلك تراني وقد مررت ، يا بنيّ ، بفترة محرجة ، فحُرمت مباهج الفتوّة وربيع الشباب الأول، بسبب الحرب التي حتمت عليّ أن أصبح رجلاً في الرابعة عشرة من العمر،وها هي الشيخوخة القسرّية تدركني ولم أتمّ الثامنة عشرة بعد.

تلميذ مُتَمرّد :

لقد أسلفت القول ان والدي كان يبغي تعليمي مهنة حرة مهما تكن التكاليف جسيمة ، فرأى بعد مشاورة العارفين، ان يدخلني الجامعة اليسوعية، المشهورة بدقة الأنظمة وشدة المراقبين . ولكن اليسوعيين يقبلون التلاميذ أحداثاً لا شبّاناً قد طرّت عوارضهم ، وتَصلّبت عضلاتهم وآراؤهم . وشفع بي لديهم تلميذهم[1] ومعلمي في (مزرعة الضهر) ، فتوسط وساطة مشروطة بدخولي الصف الثاني . ولقد كنت في مستوى الصف الرابع من جهة اللغة والخامس من جهة الرياضيات .

---

١ – المونسنيور يوسف عيد .

أُدخلت الجامعة اليسوعية في أوائل تشرين سنة ١٩٢٠ ، فوجدتني في جوّ ارستقراطي أين منه بيئة (الحكمة) حيث ترتفع الكلفة ، وتسقط الحواجز ، فتحل المشاكل حلاً (عشائرياً) كأن تلك العائلة الكبرى امتداد للبيت الجبلي اللبناني . وأين منها مدرسة الفرير المتواضعة في صيدا ، فشتّان وشتان !

في اليسوعية تبدأ الفخامة من البوّابة التي تلج ، الى المبلغ الذي تدفع ، الى الساحات الفِيْح والطبقات ذوات الأبهاء والمقاصير . ومعلوم ان اليسوعيين لا يقنعون بالوسط ، فما يستطيبون سوى المناخ العالي ، فهم إذا ثقّفوا رفعوا ، واذا أنشأوا مطبعة كانت رأس المطابع ، واذا رصدوا أو استقطروا الخمر في كساره ، جـاء مرصدهم ثقةً في الرصد ، وخمرتهم السلاف السلسبيل ، واذا خاضوا في السياسة لم يأتوا في الرعيل الأخير . وكنت سنة ١٩٥٧ أحدث أحد اقطابهم ، وهو صديق لي ، فذكرت له تلك الخصائص ، فوافقني عليها حاشا السياسة ، فقلت له : إن هذا الإنكار أيضاً هو أصيل في السياسة .

دخلت الصف الثاني وهو صف البيان فمكثت فيه خمسة أيام غير كاملة ، أُنزلت بعدها عفواً ، بدون صعوبة ، الى الثالث . فلما أمرني المعلم أن أقوم الى اللوح لأحلّ مشكلة في الجبر – وكنت بالجبر أجهل مني بالهندسة – سألته وما المراد بهذا العلم ؟ فأمرني أن أعود الى مكاني فأيقنت اني لا محـالة منحدر الى الصف الرابع بدون عناء .

وجرياً على العادة السنوية وَافَى أسبوع الرياضة الروحية ، فلم تحلّ عليّ نعمة الروح القدس إلا حلولاً جزئياً . وممّا لا ريب فيه ان العيون كانت مبثوثة على التلميذ الجديد ، وكان الرقبـاء عليّ غير واحد . ويشهد الله اني كنت الى الصلاح أدنى مني الى الشر ، ولكنني لم أتكلف الخشوع والتقوى فِعلَ سَواد رفاقي ، فما خالف ظاهري باطني . كذلك كنت، وعلى الصراحة بنيت حياتي كلها ؛ فأنا أمقت الرياء والمرائين . وما أحببت ان يمدحني أحد بما لا استحق ،

بل كنت أصغر في عين نفسي ويثور علي ضميري ، اذا تركت الناس ينسبون اليّ فضيلة أنا خلو منها .

ويمكنك يا عزيزي فادي أن تباهي بجد – على ما فيه من عيوب – لم يتواضع كاذباً ، ولم يستكبر مبالغاً في قدر نفسه ، فهو يفعل ما يفعل على وضح النهار ، وانت ترى في سياق هذه الرسالة اني أجَلّ من أن أظهر بوجه غير وجهي .

انتهت الرياضة الروحية وعقبها يوم عطلة صرفناه في حديقة صغيرة تملكها الجامعة ، في ضاحية نهر بيروت . وكان الغداء شهياً ، والنزهة جميلة ، بيد أنها كانت وخيمة العاقبة .

وتفصيل الخبر ان أربعة من الرفاق الداخليين أنهوا الى الناظر اني انسللت الى طرف الحديقة وأفرطت في التدخين ، فأنّبني تأنيباً يحطّ من مقام (شيخ صلح) . وفرض علي عقوبة بعد ان استولى على (السيكارات) وأعاد الي العلبة المفضّضة . وكانت مع المسدس الصغير الخفي ، والخاتمين البارزين في إصبعي أحبّ الرفاق الي .

أما الواشون الأربعة فشعرت أن ظليّ قد ثقل عليهم يوم دخلت الجامعة ، وهم أبناء عمٍّ في ما أذكر ، وقد تقلّبوا في عيش خفض ، فعادوا مخنثين سخفاء ناصلين ، لا خصائص لهم . تلك فئة من الناس لم يُسغها ذوقي ، لا في ذلك الحين ولافيا بعد . فان بين خشونة الرجولة والنعومة المصطنعة خصومة واضحة ، كما بين الفضيلة والرذيلة . الأولى مصدرها قوة في غير صلَف ، ومن مظاهرها السماحة وانفتاح الصدر والمروءات ، والثانية تهذيب مُزيّف كأنما صُبّ في قوالب جاهزة ، ومن ثماره البخل والجبن والروغان الثعلبي .

ولكنت تحملت عقوبة الناظر لو لم يكن سببها وشاية دنيئة ، فاني أزدري القوارض اللاطئة في السراديب ، العاملة في الظلام ، وهمج الطير الزواحف ،

وأجلّ السباع ، إلاّ ما كان منها غادراً خاتلاً. واني في حياتي القضائية كنت أطرّح الشكايات المغفلة اذا لم يكن في إغفالها ضياع لحقّ مُبين .

وفي طريق العودة الى المدرسة مررنا بمحلة السيوفي ، وهي يومئذ وعر بين صخوره الصنوبر والشوك ، وقد غربت الشمس وبدأ الليل يَتدَجّى ، ورأيت الأربعة يمشون متساندين مُقهقهين ، وكان الناظر يسير في المقدمة بعيداً ، فخيّل إليّ انهم شامتون (بالشيخ) الريفيّ التلميذ ، فاستيقظت في خـاطري (العنتريّات) التي قرأتها ، والجوّ الذي نشأت فيه ، فخففت اليهم لألقي عليهم درساً لا يعودون بعـده الى وشاية . وردعني عنهم انكسار نفوسهم ، والذعر الذي هدّهم فاكتفيت من الفوز بهذا المقدار .

وفي صبيحة اليوم التالي دعاني المدير الى مكتبه ، فتبينت في سيمائه نذيراً شبيهاً بالغمامة الدكناء تتقدم العاصفة ، فبسطت وجهي لئلا تصطدم الغمامتان فيكون منها رعد يطيح بوقـار المدير الكهل ، وصبر الشيخ الشاب الحَمِس . وهكذا انقلبت الزوبعة الى ريح مألوفة . فقـال لي المدير : لقد كان قبولك مرتهناً بجدارتك ، فما أنت في مستوى الصف الثاني ولا الثالث ، لذلك أنصح لك بالذهاب الى مدرسة ثانية . فتلقيت الحكم باسماً ، وكأنه صادف هوًى كامناً في عقلي الباطن . وفي بضع دقائق ، ارتجلت لمستقبلي تصميماً لا أزال أضحك من نفسي كلما عاودتني ذكراه .

ذلك اني رأيت رأياً فطيراً فأخرست عقلي ، وأنْطَقْتُ هَوَاي ، ونويت أن أطلّق المدرسة طلاقاً لا رجعة فيه ، فأتّخذ لي دكّاناً ، في صيداء ، على البحر ، إيثارا مني للمدينة الأولى الـتي أحببت ، ثم أتّجر بالتبغ والتنباك . وتصورتني جالساً على كرسي دونه منصّة ، عليها نرجيلة شاميّة ذات ألوان وخطوط ، عمودها من خشب الصندل المطعّم بالعاج ، فوقها صينيّة من نحاس ، تلتمع لفرط الجلو كأنها الذهب الأحمر ، وقـد غطّاها نثير من الورد وزهر

البرتقال ، فوقها رأس من خزف يتألق (بتنباك) أصفهان فينشر سحباً من دخان يَصّاعد لولباً وراء لولب . وتخيلتني في هذه النشوة البحرية (النرجيلية) أنظم الزجل ، إذ لا سبيل الى الشعر ولم أتمكن من الفصحى بعد ، ودرسها يقتضيني بضع سنوات تصرفني عن الزواج ، حلم الشباب ، وأشهى مجّانيه . وإذن فتحقيقه أولى ، واختصار الدرب اليه أصوب ، أما وقد عزمت فتوكل .

تلك هي الخواطر التي احتلتني ساعة غادرت الجامعة اليسوعية في أواخر تشرين الأول سنة ١٩٢٠ . ونزلت أحد مطاعم بيروت فتناولت غداء دسماً مشفوعاً ببضع أكواب من خمر مُعتّقة أخرجتني سَوْرتها من طور التلمذة الى مرتبة الرجولة المستقلّة ، وتوَهّمْتُني شيخ بيروت كلها لا شيخ صلح القرية الصغيرة ، بتدين اللقش . وكان لا بُدّ للكبرياء من ان تتوالى حلقاتها فاستقللت الى صيداء سيارة، أبت عليّ ارستوقراطيتي الطارئة أن يشاركني فيها مشارك، فهذا جيبي مفعم بالقسط المدرسي المستَرَدّ ، وهذا صدري زاخر بالفتوة ، وبينهما يدور دماغي أيّ دوران ، مرنّحاً بين سكرتين : سورة الخمر ونعمة الحرية . فهآءنذا قد تفلتّ من المدرسة وأغلالها .

بلغت صيداء وأدرت بصري في جهه الميناء كأني أبحث عن الدكان المشتهى . وخطر لي في الهنيهة نفسها أن أزور مدرسة الأخوة المريميين التي غادرتها لستّ سنوات خلت . ولم أتبين ساعتئذٍ اني بين تيّارين أولهما عاطفيّ يُحبّبُ إليّ الانفلات واللذة العاجلة ، وثانيهما باطنيّ يشدّني إلى ماضٍ حلو ، يكتنفه من الظلال ما يزيده إبهاماً وإشراقاً في آن واحد . ولعلّ تلك المسحة من الغموض هي سرّ جماله .

ولا أدري كيف سمت بي قدمي الى مدرستي بالأمس البعيد . فلما بلغتها أخذت – على غير علم مني – أقارن بين حقارة بنائها ، وضيق أفنائها، وفخامة الجامعة اليسوعية وروعة داراتها، ورحابة مقاصيرها ، فزيّن لي شيطان الكسل

أن أعود بعد إذ طرقت الباب ، كأن دخولي وحده يحط من كرامتي ويحدرني من ذروة الى قاع ، وتغلّب حنين الطفولة على زهو الشباب ، ورأيتني وجهاً لوجه أمام الأخ جوزيف دي ليونيسا رئيس المعهد قبل الحرب وبعدها . فعرف مني ما عرف ، وأنكر ما أنكر . ذكر هُويّتي وقريتي وطفلاً بريشاً في جبينه خفر ، وفي عينيه طهارة الزهر غب العشايا النديّـة . وها هو يرى شاباً مارداً زائغ العينين ، مختال العطفين ، في سيمائه خمرة المخمور ، وفي إصبعه خاتمان من ذهب . وأدهى من ذلك جميعه مسدس في منطقته لا يخفى على مستبين ، فسألته: أفي المدرسة صف ثالث؟ (وهو يساوي الآن الصف الذي يولي الشهادة التكميلية) (Brevet) فأجاب : « ليس عندنا سوى الرابع » واضاف : « لقد تغيرت كثيراً يا بولس » . وبديهي انه لم يقصد بالتغيُّر النموّ الفيزيولوجي . فشعرت كأن عبئاً سقط عن كاهلي ، إذ لم أجد الصف الثالث وكأنها تصفية المحاسبة بين وجداني وبيني ، فمن يتهمني بالكسل بعد هذه المحاولة ؟ ولقد كنت في الواقع أُموّه على نفسي وأختلق عذراً للانفلات ، جرياً على سنة المذنبين الألى تخدّرت منهم الضمائر ولمّا تختنق .

ودّعت رئيس المدرسة الذي شيعني آسفاً ، وبعد ان دفعت عربوناً لسائق العربة الصاعدة الى جزين جلست في المقهى ريثما يكتمل عدد الركاب ، ويتمُّ إعداد الجياد الثلاثة التي تجرُّ المركبة ، إذ لم تكن دولة الخيل قد تولّت بعد .

على أن أفراس المركبات ، أو معظمها ، كانت عِجافاً غير ضوامر . وإنما يحدثك نحولها بشحّ أصحابها الذين يرهقونها بالعمل ويقتّرون عليها بالعليق ، ويقيمون عليها ساقةً غلاظاً شداداً يسومونها العذاب ألواناً . وترى سياطهم تلتوي على أياطلها ومتونها فتنفتح في جلودها أثلاماً ، فإذا تقهقرت في المراقي الصعاب قذفوها بكل يتيمة من الشتائم فيسمع الركاب ، وبينهم كثيرات من المحصنات والقاصرات ، من بذيء اللفظ ومُبتكر السباب ما لا يوجد ، إلاّ في مَعاجم الحوذيين الذين يجهلون رحمة الإنسان فكيف يرفقون بالحيوان .

جلست في المقهى زهاء ساعة أفعمتها بالشراب ، فنهلت منه نهلات العجلان الصادي، وفي الأرجح ، اني كنت أحاول إسكات وجداني وإخماد آخر جذوة فيه ، تحتدم ثائرة على الكسل والانفلاتية . ذلـــك ان في قرارة المرء وجداناً أدبياً هو الشاهد الصدق ، والقاضي العدل يأبى أن يداري أو يمـاري . أوَ لم يذهب المؤمنون الى تسميته صوت الله في الانسان ؟

لقد صرفت البال عن ذلك الحاكم الفصل ، فكان مثلي مثل النعّامة تغطي بصرها بجناحيها لئلا ترى الصيّاد ، وعين الصياد اليها ترصدها وتطلبها في السهل والنجد وخلف التلال .

ركبت العربة في الأصيل ، فسارت سيراً وئيداً يكاد يبعث على النوم. ولولا صرير العجلات المؤطـّرة بالحديد تشيل بالراكب وتحطّ فتذكـّر بالزورق ، على فارق بينهما عظيم ، فإنه يترجّح على بساط ليّن ، ولكن الدوائر المحدّدة تنبو على الحصى والجنادل ، فينقدح شرارها وتمخض الراكب مخض السقاء[1] . وكان في رفاق الطريق من يعلم اني أرتجل الزجل في الزوايا الحميمة ، فدعاني فلبّيت وبالغت في رفع الصوت كما يفعل الساري منفرداً في البيداء ، يجهر بالغناء فراراً من الخوف ، وأنا كنت هارباً من صوت وجداني الذي لم يطفئه السلاف المصفى. وبعد مسير ساعات ستّ بلغت العربة (ظهر الرمـلة) فترجلت وانحدرت الى بتدين اللقش في طريق وعر[2] طوله يناهز كيلومترين ، وفي كل من يدي حقيبـة كبيرة ينوء بمثلها مثلي ، فبلغت البيت في الساعة العاشرة ليلاً وقد تلاشت قواي ونضحني العرق فانطرحت على أول مقعد لقيته .

---

١ – السقاء : القربة .

٢ – لم يكن في سنة ١٩٢٠ من طريق سواه الى بتدين .

ولشد ما كانت دهشة شقيقتي[1] حين استفاقت وشاهدتني ، وفي يقينها اني داخلي في الجامعة اليسوعية ، فمن اين هبطت في هذا الليل . ثم دخلت والدتي وكانت في عيادة جارتنا المريضة ، فاعتراها ذهول عقد لسانها بضع دقائق ، ثم انفجرت حانقة في أشد غضبة شهدتها منها طول حياتي ، وربما تصرّمت السنون ولا تغضب . بل كانت مضرب المثل في الحلم والحنان . فلما رأيتها على تلك الحال تولاّني الذعر. وبادرتني بهذه العبارة : « ليتك متّ في المدرسة، اشكر الله ان أباك غائب ، فلو كان حاضراً لقتلك ، أخرج من البيت وعــد الى المدرسة » . قلت : « مطرود » قالت : « اذهب الى اية مدرسة داخلية شئت ولكن هـذا البيت محرم عليك » . فقلت : « غداً» . قالت : «بل الآن». فاعتذرت بالجوع والتعب ، فقالت : « أخرج فتتعشى وتنام في العربة التي جاءت بك » . وللحال استدعت ناطور القرية وأسلمته الحقيبتين وأمرته أن يسرع الى جزين فيحجز لي مكاناً في المركبة نفسها . ثم طوت بضعة أرغفة على كميــة من الجبن والزيتون والتين المطبوخ بالسكر، وضعتها في منديل ودفعتها إليّ وقالت أَمعَكَ المــال الكافي قلت : نعم، قالت : إذن اسرع قبل ان تفوتك المركبة . فخرجت أتعثر بدموعي وبالظلام الصفيق وكان الليل قد انتصف .

في تلك المعركة العاطفية الدامية لم تكن البنوّة كبش المحرقة بل الأمومة . فلقد أعلمتني المرحومة والدتي ، بعد هذا الحادث بسنين انها بعد خروجي من الباب شعرت بأن قلبها ينسلخ منها فأغمي عليها ، ثم استفاقت وظلّت مُسهّدة الجفن حتى الصباح ، وانها وضعت مستقبلي كله في الميزان ، وان صدرها تمزق غير مرة عندما طردتني وعاملتني بتلك الخشونة .

---

١ – زكيه زوجة الدكتور موسى عيد .

رحمك الله يا والدتي الغاليــة فلقد كان جفاؤك سبباً في رفعي من مرتبة بائع تنباك ، تمنيت ان اكونه ، الى منصب قاض أصبح بعدئذ في أهل القلم .

وبوركت الأمّهات اللائي يُداوِلـْنَ بين الشدة واللين ، ويُلائِمنَ بين العقل والعاطفة ، فيخرجن للأمة جيلا غير مخنث ، بما يوقظنَ في صدور أبنــائهن من آيات الرجولة والشعور بالتبعات الجسام ، وينصرفن عن الزينة والهذر والتوافه الى بناء البيت والأولاد ، فينشئنَ اسرة تكون عوناً للزوج على مصاعب الحياة لا أولاداً مائعين متمردين أوغاداً ، ينغّصون حياة آبائهم بما يبعثون في الصدور من حسرات ، وبما يخيّبون من آمال ، وربما كانوا السبب في تقصير أعمار ذويهم وخفض رؤوسهم في المجــالس اذا دار الحديث على الآحاد النابهين . وبعداً للأمهات اللاتي يمهــدن لأبنائهن سُبل المحرمات ، بما يبدين من تساهل وإغضاء . أما المقامرات فما أجدرهن بالعقم فلا تفشو سلالة السالبين في ظل القانون ، اذ المقــامرة أشرف ضروب الاختلاس وأوفرها أناقةً . وليس كجوّها مدرجة للمرأة الى الانحــدار . فالطريق لاحِب والباب رحب ، وبين هذا او ذاك درجات ومعارج .

بلغتُ المركبة وجبيني يتفصّد عرقاً ، وأحسست بدوار لا عهد لي به من قبل ، فقد تلاقى عليّ الجوع والكرى والصدمة النفسية في آن واحــد . فتناولت لقمات معدودات اسغت بعضها وغصصت بمعظمها ، ودخلت في سبات هو بالبحران أشبه ، فما نبّهني إلا صياح الدِيكة في ضواحي صيداء وقد أسبل الفجر على بساتينها وشاحاً ، فبعث في الأفق صباحاً جديــداً ومعه إنسان جديد .

التلميذ القدوة :

بين يدي رئيسي القديم ، في مدرستي القديمة ، ألقيت عدّتي ، ســلاح الجهالة والطيش ، فجثوت أمامه وأسلمته المسدس والخاتمين وعلبة التبــغ

الفضية ، وإرادتي المتمرّدة . فابتسم وقال : « الحمد لله الذي أعــادك وفي وجهك سيماء عرفتها بالأمس البعيد ، فكن رجلاً .» ولم يمر علي بضعة أشهر حتى أصبحت قطب الدائرة في مدرسة (الفرير) . وكأن ذلك الجــدول ، الذي سدّه الطمي الى حين فأَسِنَ ماؤه ، وتراكمت عليه الطحَالِب ، قــد عاد الى صفائه وتقلّب على مثل اليواقيت من الحصباء .

صرفت سنتين في صيدا، وسنة غير كاملة في جونيه . وليس في تلك الحقبة من الزمن ما يجدر ذكره سوى اجتهــادي الُمطـّرد . وشأني في الصمت عن أحداث هذه المدة شأن الُمعَافى لا يذكر ما كان من أمر صحتـــه ، بل ان الصحيح لا يذكر ان له جسداً ، فهو ينسى وجود عينيه ما لم يرمد ، ومعدته ما لم يعسر هضمه ، وكذلك القول في سائر الأعضاء تنسى سليمة وتذكر معتلّة .

وفي منتهى ربيع سنة ١٩٢٣ غادرت جونية نهائياً ، وفي نيتي إكمال السنة المدرسية في مشموشة غب عطلة عيــد الفصح ، على ان نحضر جوزيف سلامه وأنا دروساً خاصة على أستاذ طبيب . وكان رحمه الله فكِهاً ذا دُعَابة ونكتة موصولة، فكانت حلقتنا الى الضحك والنوادر أقرب منها الى الدرس والتحصيل . وهكذا وصلنا عطلة عيد الفصح بعطلة الصيف ، أي بدون جدوى .

وفي تلك الآونة ، زيّن لي شيطان المال – وقلّما كان يفلح في إغوائي – طريق الهجرة وابتغاء الثروة العاجلة . فأقلعت عن فكرة درس الطب ، المهنة التي كان يريدني عليها أبي . وأقنعته ان المجال ، بين الشهادة وبيني سنوات ثمان . فأقرّني على رأيي . قلت : « إذن أعينك على عملك في هذا الصيف فأجمع لك من غربي البقاع أثمان بزر الحرير واشتري الفيالج » . وأنفذت هذه الفكرة في شهر ونصف . وعدت الى البيت في منتصف تمــوز . فسألني صهري الدكتور موسى عيد عن رحلتي فقصصت عليه بعض ما لقيت من التوفيق والترحيب ، وذكرت مجالس أنس وخمر نعمنا بها على الينابيع بــين (الخريزات ومشغره)

وليالٍ زواهر صرفنا معظمها بين الدوالي والعناقيد . وكنت كلما أمعنت في وصف الذكريات الجميلة أمعن – وهو الرجل العملي الواقعي – في التجهّم والصمت. فصحت به : « ما لك يا أبا الهول ؟ أتراك في حداد ؟ » فأجابني : « اني آسف عليك فلو لم تهدر وقتك لاستطعت في تشرين ان تدخل الصف الإعدادي لجامعة الحقوق ، حيث تقضي سنة تجوز بعدها امتحاناً لدخول الجامعة » . قلت : « وما ظنك في من يدخل الجامعة نفسها في تشرين ؟ » (اي بعد شهرين ونصف) قال : « أنت وأكبر منك تعجزون عن هذا فلا تحدثنا بالمستحيل . انك لم تستعد لقطع النهر فكيف تعبر الأوقيانوس ! واذا دخلت الصف الاستعدادي في تشرين احسبك عبقرياً . » فغاظني منه ذلك الاستفزاز ، وطويت ليلي على مثل الشوك . بيد ان تلك الخميرة الكلامية فعلت فعلها في العقل الباطن فتخمّر العجين وطاب . ولعل قول الفرنجة : الليل يأتي بالنصيحة ، مردّه الى ذلك الاختمار الذي يعتلج في اللاشعور .

نهضت في الصباح كالصقر يبكر للصيد وقد أيقظته العندلة ، ففتحت لُهاته وأحَدّت مخلبه . وحزمت حقيبتي فسئلت فأجبت دمشق غايتي ، ومعهد الحقوق وشروط الدخول . وبعد ساعات أربع كنت على الحدود السورية . فاستعلمت عن المعبر فقيل هذا وادي الحرير ، فوجدت الاسم فوق المُسمّى ، فهو خليق بأن يدعى وادي الشوك . ثم جاوزناه الى وادي القرن وكان في نفسي من أخباره شيء كثير بصفة كونه حِمَى العصابات ومأوى اللصوص . ولكنني قطعته مطمئناً لقلة ما في يدي . وسرّني من دمشق مسجدها . ولعله الأثر الأمجد الذي يغطّي من جنايات بني أمية على الهاشميين . وراقتني غوطتها وهي أمدى خضرة علقها بصري منذ هام بالنضارة وليداً حتى يومي هذا . وقابلت أولياء معهد الحقوق السوري فقالوا : « تجوز الامتحان في تشرين » . وصادفت بعدئذ في بيروت ناصحاً خبيراً ، فرجّح لدي معهد اليسوعيين في

بيروت ، فبيّنت سهولة الامتحان في دمشق لمعرفتي باللسان العربي فأجـاب : « ليس على الإرادة متعـــذّر . الإنسان ارادة ، الإرادة هي كل شيء . ادرس الحقوق بالفرنسية تتمكن منها » .

فأطرقت هنيهة ثم جئت المعهد الفرنسي وتسلمت نسخة من شروط الدخول ومنهاج امتحان القبول ، واشتريت الكتب الضرورية لهذا الشأن ، وعدت الى بتدين اردد في الطريق هذه اللازمة : « الإرادة هي كل شيء ، الإنسان إرادة . »

الأسطورة الحقيقة

كان عليّ ان ادرس وحدي ، بدون معونة استاذ ، في شهرين ونصف ، منهاجاً يدرسه الطلاّب على أساتذة اختصاصيين في تسعة أشهر . وفي موادّ ذلك البرنامج ما لا يدركه المطالع ولو ذكياً. فاذا استطاع تفهّم البيان والتاريخ وقطرة من بحر الفلسفة، فأنّى له أن يدرك المرئيّات، والمثلّثات والصوتيّات، وهي تقتضي شرحاً وتمرّساً وتصويب خطأ يقع فيه الطالب . ولكن ألم يقل نابوليون : يجب حذف كلمة المستحيل من المعجم ، وعلى ذلك عقدت النية .

نهضت صباحاً ورجوت من والدتي ان تعلن غيابي عن البيت غيبة منقطعة ، لأكون مالكاً حرّاً لوقتي كله، واجتناباً للعبث وفراراً من الأتراب أو الطفيليين الثقلاء ، الذين يقيمون وزناً لكل شيء عدا الوقت .

كان في بيتنا يومذاك قبوٌ جعل منه المرحوم والدي مصنعاً للصابون في فصل الشتاء ، فهو بالسراديب أشبه ، لولا باب واحد ، فيه خوخة صغيرة ، يدخل منها النور شحيحاً [1] وما برحت حجارة جدرانه نواتىء جديدة لم تغمر بكلس ، فهي بادية الصدوع ، تغطّيها طبقة سوداء صفيقة لِما انعقد عليها من سحب الدخان ، في خلال ربع قرن غَبَر .

---

١ – وقد حولته عام ١٩٥٥ الى مطبخ ومرتفقات .

وفوق الموقد الكبير رُكزت خلقين كبيرة . وصُفّت خوابي الزيت والأجاجين والبراميل في كل ناحية . وامتدّ على بضعة أمتار مربّعة شبه دَكّة خشبية ، يُصبُّ عليها الصابون سائلاً فيجمد ، ويقطع في اليوم التالي مُربّعات مُربّعات ، بعد ان يختم بخاتم خشبيّ يناظر المطرقة ، ثم يُسمّك في الزوايا وعلى الرفوف ليجفّ ويصدر للبيع .

في ذلك الجوّ العابق برائحة الزيت والصابون (والقطرون) تخيّرت مقعداً ، فلم أجد أفضل من المَصَبّ الخشبي ، وهو لا يعلو عن الارض سوى عشرة سنتميترات ، ولا تجاوز مساحته ثمانية امتار مربعة . فافترشت إهاب كبش وثير جلست عليه ، كما كنت أفعل في أيام التلمذة الأولى ، بعد إذ نظّفت المكان ووضعت فيه بعض المساند والزُرابي[1] فأرتفق حيناً وأستلقي حيناً . فكان مكتبي الجديد بدعة في المكاتب . ولو فجأني أحد الأدباء المعرقين في تاريخ العرب ، لحسبني أحد الورّاقين القُدامى ، لولا فوارق صغيرة ، منها استنارتهم بالسراج ، وكنت أستضيء بمصباح زجاجيّ في الأسحار وبعد الأصيل ، وأعمل خمس عشرة ساعة في اليوم ، فلا أدع للراحة والنوم والأكل سوى تسع ساعات . وكنت اذا استغلقت علي مسألة في الفيزيا مثلاً عاودتها غير مرة بمثل عناد النملة في نقل طعامها ولو فَدَحها فأنقض ظهرها . وكأن في تخاذُلي حيال المصاعب امتهاناً لرجولتي ، فما حاولت قط أن أدور حول العِقاب . فقد رافقتني تلك الشجاعة في مجابهة الأرزاء ؛ لما ابتليت فتحملت ثلاثاً وعشرين عملية جراحية ، فكنت أنا الذي يَستحِثّ الطبيب فيعجل بالمبضع . وطالما راود الكرى أجفاني ، في غير ساعات النوم ، فاستعنت بالقهوة حيناً وبالتدخين أحياناً ، فاذا أخفقا أعملت الثنايا في طرف اللسان والشفتين ، وجهرت بالقراءة ولا سيما في مواطن اللبس . فكنت أنا الاستاذ

---

١ – الزرابيّ مفردها الزربي وهو ما بُسط واتُّكيء عليه .

والتلميذ معاً . وكان المعلم يحاول ترسيخ المسائل في ذهن الطالب ، فيتوسل الى غايته بكل الأساليب ، معلومها ومجهولها . فاذا تبلّد فهم التلميذ أنبَّهُ المدَرّس أعنف التأنيب .

بتلك القسوة أخذت نفسي ، وكنت اذا تخلّفت ذاكرتي في حفظ المجرد أخلعه على أحداث او أشخاص عرفتهم في الحياة ، فأجسّد الفضائل والرذائل في صور معلومة . ثم أتتبع في الدرس طريقة مؤدّاها درس كل مادة في أيام تتوالى . فاذا فرغت منها أطبقت الكتاب وأوجزت ، بعد مرور يومين على استيعابها ، خطوطها الكبرى في صفحات معدودات ثم ألصقتها على جدار القبو ، بعد تنظيفه ، فجلّلت معظم الجدران بتلك الموجزات التي كنت أمرّ عليها بين حين وحين ، فتظلّ المواضيع ماثلة في ذهني غضّةً لا تنطوي. وكيف تنطوي وقد نشرتها للبصر والبصيرة ألواحاً تفتح الذاكرة على المنهاج كله ، في بضعة أيام للمراجعة .

سلخت شهرين ونصف كالسجين في حبس العزلة ، فعرفت حياة النسك مصغّرة . فما باليت بالحلاقة والطعام إلا قليلاً . وكانت الخادمة تأتيني به على صينيّة. وساء حظها مرة فنبهتني الى ان الطبيخ قد برد ، وأنا لاهٍ عنه بالمطالعة ، فنهرتها صائحاً : « ويحك أنا الآن مع (أندروماك) وانت تفكرين بالطبيخ ! » فخرجت مذهولة تردد : « روماك روماك » .

في أوائل تشرين تقلّص بساط الصيف ، وانتشر في إدراكي بساط المعرفة . وتقدمت للامتحان في أواسطه فنجحت . ولا أذكر اني رسبت مرة واحدة في أيّ امتحان ، وكان مساعدي ، في الفحص الشفهي على الأخص ، ضبط أعصابي فكنت أجيب على الأسئلة بمثل البساطة التي أُحدّث بها صديقاً او نسيباً . ولقد جلّيت في معظم المواد وتوقعتْني لا محالة مفلحاً ، ولم يبق إلا التاريخ ، وأرجّح اني في هذه المادة كنت في مستوى الفاحص نفسه . فسألني

فأجبت وأسهبت ونقدت . وأظن انه أراد الحدّ من عنجهيّتي فسألني سؤالاً خارجاً عن المنهاج ومؤداه : هل نشأ الأتراك في تركيا أم جاؤوها من الخارج ؟ فاضطربت لهذه المباغتة ، لولا ان ذاكرتي الأمينة أنقذتني، فذكرت من قصيدة للخوري يوسف اسطفان قوله مخاطباً الترك .

بالله عودوا لتركستان منشئكم

فنظرت الى الفاحص ، ومن علُ أجبته : ليس أبسط من هـذا ، الاتراك نشأوا في التركستان ، فهنأني وخرجت من بين يديه ، وعلى الباب نفضت عن صدري غبار الخوف .

وتلا رئيس اللجنة أسماء الناجحين ، ولم أنم لشدة فرحي تلك الليـلة . وشيّعت الرياضيات بمناجاة طويلة ، ودّعت فيها كل ما يُرسم على الألواح السود من أشكال هندسية ، ومعادلات جبرية ، وأرقام حسابية وما جرى مجراهـا . وإذن فانا مقبل على دراسة الحقوق ، إقبال السمكة على الماء .

معلّم في الحكمة :

وأجزم أن أطيب أيام عمري هي تلك السنوات الثلاث التي سلختهـا في جامعة الحقوق . وفي السنة الأخيرة أضفت الى الدراسة عملاً جديداً هو تدريس اللغة العربية في مدرسة الحكمة . وتفصيل الخبر هو ان المغفور له المطران اغناطيوس مبارك عرفني في احدى المنـاسبات ، فتمنى علي أن أدرّس أحـد الصفوف العالية فاستجبت . وكانت الحكمة يومئذ في ذروة شهرتهـا ، بصفة كونها المعهد العربي الأول في البلاد اللاهجة بالضاد . وبحقٍّ تبوأت مكانتها تلك. وأقطع بأن الصف الثالث العربي كان في مستوى (البـكالوريا) اليوم ، ولا استثني مدرسة واحدة . يدلك على ذلك ، التضييق في اختيار المعلمين . ولشدّ ما كانت دهشتي ، حين أخبرني الرئيس ، ان نظام المدرسة يفرض علي امتحاناً.

واعتبرت ذلك الجواز خافضاً لمنزلتي ، اذ كانت بعض الصحف اللبنانية نشرت لي غير مقال ، صدّرته بوابل من الألقاب المدوّية، جرياً على العادة المألوفة المتمادية الى يوم الناس هذا . بيدَ اني لم أكن أنا موحيها ، ولا كاتب المقدمات بيدي ، كما يفعل بعض أدبائنا الألى احتلتّهم العنجهية ، فملأوا فراغ نفوسهم بضخامة ألقاب ونعوت يبتدعونها كلما اهتزّت من دونهم الأرائك الموهومة . وحسبت أن تلك الطائفة من الألفاظ الطنّانة ، التي أقحمتها في إنشائي ، كانت كفيلة برفعي الى سدّة الشهرة والتعليم . ويا طالما ندمت بعدئذ على نشر بواكير فجّة ، وإن هي إلا أصداء شباب صاخب ، وإن بينها وبين القلم الرصين لشأواً مديداً .

وسألت الرئيس مَن الفاحص فقال : هو عبدالله البستاني . فرأيتُني ، في أقل من دورة محجر خاشعاً ، حيال الاسم الكبير ، الشيخ عبدالله البستاني واحد الآحاد ، وإمام اللغة في متنها وصرفها ونحوها . وما أعلام البيـان في الأمصار العربية والمهاجر إلا تلاميذه ، في رحابه درجوا ، وعلى أدواحـه تنقّلوا . وترك الرئيس مكتبه لبعض الشؤون وبقيت وحدي . واذا بالباب شيخٌ ذَرّف على السبعين أو كاد، أسمر اللون مجعّد الوجه دميمه ، قصير القامة هزيلها ، في سيمائه ملامح اللبنانيين المعرقين في (الجبلية) ، وقد تفرنج بعض الشيء ، فقميصه بدون أُربَة (ربطة عنق) ، وثوبه لولبيٌّ في ما يُحَاذي الركبتين ، لم يمسّه المكوى منذ أسابيع ، فحسبته قد جـاء المدرسة ، في مطلع السنة ، يصحب نسيباً أو حفيداً ، فحيّاني فوقفت ، وتبادلنا مصطلحات السلام . فرجح لديّ ان الرجل من الشوف ، لأنه ينطق بالقاف المقلقلة ، وانه مسيحي ، اذ لو كان درزيا لتعمّم في مثل هذه السن العاليـة ، وهو ما برح (متطربشاً) ، برغم ان سحنته تنمّ عن التعقّل التام . فسألته عن صحـة أهل البلد ، زيادةً في الفضول ، لعلّي أستشفّ من جوابه اسم قريتـه — وأعترف اني مبتلى بداء اكتشاف اسماء الأشخاص والبلدان ، وقد ورثت هذه المزية عن والدي ، وقلّما جهلنا عائلة أو دسكرة في لبنان — وعائلتـه .

وظننت ان علمه لا يعدو علم أترابه المقصور على حفظ مزامير داود ، وقواعد الحساب الأربع ، وكتابة رسالة لحمتها الركاكة ، واللحن سَداها . وقد ارتفعت الكلفة بين تاآتها المربوطة والمبسوطة . فأجابني : أهل البلد بخير ثم أضاف « يا معلمي ، يا معلمي، ثم كذلك ، انت بولس سلامه ؟ » .

فقلت « نعم وحضرتك مين ؟ » فقال : عبدالله البستاني .

وبمثل هبّة الصقر انتصبت واقفـــاً ، وسلـّمت على الطريقة التركية ، أي برفع اليد اليمنى الى الصدر والشفة والناصية ، وأيقنت انه جاء لامتحاني. فكلفني أن أصف حنين مغترب لبناني إلى قريته ، وأن أنشيء ذلك في مدى ساعات ثلاث ، فقلت أتريد ذلك نثراً أو شعراً ؟ فأطلق حريتي في الاختيار، فاخترت الشعر . وفي نهاية الوقت المضروب دفعت اليه قصيدة تناهز الثلاثين بيتاً ، لم أنس أن أودعها بعض الصور والتعابير القديمة التي يحبهـا الشيخ ، اذ تقدّم لي أن تحسست ذوقه الشعري من قصيدته : الفرصاد[1] . ومن تشطيره لمعلقة عنترة :

هل غادر الشعراء من مُتردَّمِ فتسدّ ثُلـْمَتَـهُ برأس المرقم

فهزّ رأسه إعجاباً وقال : يا شبّ لو لم تكن حديث السنّ (وكنت في الثالثة والعشرين) لسلمتك صفّ البيان ، ولكن الخوري رافايلَ ابن خالي[2] فقلت وهو معلمي أيضاً . وهكذا عهد اليّ في تدريس الصرف والنحو وفقاً لنهج كتاب (بحث المطالب) فأفدت في تلك السنة معلـّماً أكثر مما حَصّلت في عهد الطلب .

---

١ – الفرصاد هو ثمر التوت الشامي الأحمر .

٢ – هو المرحوم الخوري رافائيل البستاني الذي تولى صف البيان في نحو من ربع قرن .

ولكن اشتغالي بالتعليم ، واهتمامي بمهرجان الحكمة ، لمناسبة يوبيلها الذهبي سنة ١٩٢٥ ، استنزفا وقتي وصرفاني عن متابعة معظم المحاضرات في جامعة الحقوق ، فكان علي أن أسدّ العجز بالانصراف الكليّ للدرس في الصيف ، إذ الامتحان ، في أواخر تشرين ، تجريه لجنة خاصة تجيء من فرنسا لهذا الغرض ، مرّة في السنة . ولم يكن ثمة دورتان ، واحدة في حزيران وأخرى في تشرين . واعتزلت الصيف كله في منزل مهجور – مما يذكر بعزلتي لثلاثة أعوام خلت – في مصنع الصابون ، فكأن النهاية تشبه البداءة وهكذا التقى الطرفان .

وكان ينقل اليّ طعامي من البيت ، أحد شبان القرية وينام في احدى غرف المنزل . وضربت مواعيد للدرس قيّدت نفسي بها ، كأشدّ ما يكون الانضباط العسكري . وحدّدت الساعة الحادية عشرة ليلاً ميقاتاً للنوم ، فكنت اذا نعست قبل حلولها كلّفت رفيقي ان يوقظني بالتي هي أحسن ، فاذا تثاقلت فليمسّ يدي بسيكارة مشتعلة، عملاً بالقول المأثور : آخر الدواء الكيّ . ولقد غلبني الكرى مرة فنمت فتهيّبني فتركني أشخر فاستيقظت فزجرته ، وكواني مرة فشكرته .

بمثل هذه القسوة كنت آخذ نفسي ايها الحفيد العزيز فادي . وانما حرصت على سرد هذه الوقائع لتعتبر بها أنت وتعلم ان الإنسان إرادة ، إرادة لا غير .

شهادة الليسانس :

هبطت بيروت في العاشر من تشرين ما يفصلني عن الامتحان سوى عشرة أيام ، ثوانيها أنفس من الألماس ، لأن في أثنائها يراجع الطلاب مواد الامتحان ، ويتعمّقون في المادة الكتابية الثانية التي عليها يُقتَرَع . وأبى الهمُّ إلا ملازمتي ، فأصبت بحمّى نافضة بلغت درجتها الأربعين ، وسمّاها الطبيب « ابو الركب » . ولعلها دعيت كذلك لأنها تحل الركبتين وتهدّ العزيمة هدّاً . ويعتري المريض بُحران عميق ، فيؤمر بالاقتصار على السوائل (الليموناضة) وقصب السكر

والماء القراح. فهالني أن ألزم الفراش، وسريري على مئة متر من مدرسة الحقوق، وأنا أدنى الى الشهادة النهائية من الشذى الى الربيع . وفِيمَ النسيئة الى القابل ، وقد سلخت الصيف بلياليه حبيساً ، أنام على الكتاب وأستفيق معه . ثم ان هناك شائعة تداولتها الصحف، ومؤداها افتقار القضاء اللبناني الى حملة الليسانس. إذن فمستقبلي كله في الميزان.

كنت أقرأ في أمثال العرب قولهم : نام على مثـل جمر الغضا ، فأبحث عن معنى الغضا ، فأجد في تعريفه انه شجر من الأثـل ، خشبه من أصلب الخشب ، وجمره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفىء . وفي ليالي (أبي الركب) تقلبت على أكثر من الجمار ، فتلهّب جسدي وروحي معـــاً . ونذرت اني إذا تزوجت ورزقت اولاداً فسأعلمهم المهن اليدوية لئلا يُمنوا بمثل ما مُنيت به . وأبى القدر إلا ان يقدم اثنان منهما على دراسة الحقوق في المعهد نفسه . وأعاد التاريخ عينه ، حتى في مواضيع الامتحان ، بعد ثلاثين حولاً .

حاولت الدرس محاولة اليائس . فتحت الكتاب فزاغت عينـاي وأخذني الهُدام فاستعنت باثنين من اخواني[1] يقرآن بالمناوبة وأسمع . بيد اني كنت أسمع كثيراً وأعي قليلاً لفرط الدُّوار والغثيان والقلق النفساني . وعادني في ليلة الامتحان الدكتور الياس الخوري ، فحتم عليّ أن ألزم فراشي . ولن أنسى في حياتي ذلك الليل الأسود الأبيض.

لقد توهّم أخو كِندة نجوم ليله مشدودة بأمراس كتان الى صمّ جنـدل . وكان همّه في كأس تصرعه ، أو غادة يصرعها ، وفرسٍ مذيال يصيد عليــه الأوابد ، وكان همي في مصير إذا أفلت من يدي زمامـــه ساورني القلق سنة كاملة ، وهيهـــات اعود الى الدرس والامتحان ، وربما راجعتني فكرة الهجرة الى اميركا .

---

١ – الاستاذ الياس سلامه والدكتور مارون تطار وكان كلاهما تلميذاً عهدئذ .

فتخيلت ليلي مديداً حتى لا فجر له ، وتصورت نجومه مشدودة بكل حبل مرير تدَلَّى على سفينة ، بدءاً من أول قِلْبس[1] فُتِلَ على سِيْفِ صيداء ، حتى انطوى آخر شراع على الأوقيانوس .

وأخيراً أشرقت الشمس ، فناديت جاري في الغرفة (يا مارون تعال[2]) فقال ماذا ؟ فقلت ساعدني انت وشقيقي بطرس على ارتداء ثيابي ثم احملاني الى مدرسة الحقوق حملاً اذا اقتضى الأمر . فقال : « حرارتك (٣٩) » فقلت : « خير لي ان اموت في الميدان او انجح » . فتناولت كأساً من (الليموناضة) وكعكة ومشيت متخاذلاً مستنداً على كليهما . فلما صعدت الدرج وبلغت قاعة الامتحان ، شعرت بمثل غمامة كثيفة بين أجفاني . ودخل رئيس اللجنة وألقى علينا الموضوع الكتابيّ فتفتح ذهني وكتبت فأبدعت . وكأن نشاط الروح أخرس الحمى والدوار والقشعريرة ، فعدت الى الغرفة وأكلت كما في الصباح . واستلقيت ثلاث ساعات نمت في خلالها ، وعدت الى الامتحان فأفلحت في المسابقة الثانية . وكذلك القول في الامتحان الشفهي ونجحت. فقلت في نفسي: « اذا انا متُّ الآن فلا عار علي يقولون نجح ومات » . وانطلاقاً من هذه النظرة ذهبت الى نادي الكيت كات فأمعنت في الشراب، وأفرطت في الأكل،ونهضت في الصباح وقد انهزمت الحمى بفضل الوسكي، والدجاج والسمك، وهكذا ودعت المدرسة .

واليك يا عزيزي فادي بمجموع سني دراستي : سنتان (تحت السنديانة) في بتدين . وسنتان في بكاسين ، وهذه السنوات الأربع تحسب عامين لا غير لِما تخللها من صيد العصافير في عشوشها، والفرار من الدرس، وإغضاء المعلمين . (ثم سنة في مدرسة الأخوة المريميين) في صيدا، عقبتها الحرب الكونية ، ونصف

---

١ – القلس : حبل السفينة الضخم .
٢ – الدكتور مارون قطار .

سنة في مدرسة الحكمة ثم ثلاث سنوات غير كاملة في معهـــد الاخوة المريميين وثلاث سنين في جامعة الحقوق . فأكون قد قطعت المسافة من حروف الهجاء حتى الليسانس في تسع سنوات ونصف، تخلّلها ما قد تخللها من حرب وأحداث ولهو . فاذا عرفت ان طلاب اليوم لا يبلغون في مثل هذه المدة سوى الشهادة التكميلية (البريفه) أدركت ان جدك لم يكن في الرعيـــل الأخير من رجال زمانه .

نجيب خلف :

شاءت المصادفات الموفـّقة أن أصرف معظم وقت التمّرس، في مكتب المأسوف على علمه وسجاياه المرحوم نجيب خلف، فلقد صرفت زهاء سنة ونصف متدرّجاً في مكتب ذلك المحامي الجليل . ويسرّني ويشجعني أن أنشر ذكريات طواها الزمن، في خمس وثلاثين مرة دارت بها الشمس حول الأرض . أكتبها وكأني أعانيها أو أعيشها (على لغة المجددين) الساعة . فلقد كان نجيب خلف واحداً من النخبة الألى أنشأوا أنفسهم إنشاءً فخلقوها خلقاً جديداً . فلئن ساواه أو تَقدّمَه في العلم بالشرع بعض متفقـّهي الرعيل الأول من زملائه ، أو نافسه في استكناه القوانين والأنظمة نفر من القضاة والمحامين ، فلقد تفرّد ، رحمه الله ، بخصائص ومدارك لم تجتمع لمعايشيه .

منها اجتهاده المعجز ، فلقد كان يشتغل باطـّراد سحابة ثلاث عشرة ساعة كل يوم ، وربما نيـّف على هذا المقدار فأبلغها الخمس عشرة في اكثر الايام . يعمل في المكتب والبيت والسيـّارة والقطار والمحكمة ، ماشياً أو قاعداً أو مستلقياً، فيتعذر عليك ان تراه ، في سوى ميعاد الأكل والنوم ، إلا قارئاً أو كاتبـــاً ، يحسب الوقت من ألماس لا من ذهب ، ويعتبر اللهو والعبث ، وارتياد المقاهي ودور السينما والسمر والكسل – ولو انه في سبيل الراحة – أرجاساً من عمل الشيطان فيتجنبها ، بوصفه جندياً وقف حياته على تحصيل المعرفة ، وبصفة

كونه قسّيساً انجيلياً متشدداً يحاسب نفسه على الهفوة اليسيرة ولا أذكر – على طول صحبتي له في المحاماة وبعدها – انه همّ بكلمة نابية ، فقد كان يغضب ولا يأثم .

ومن خصائصه تعظيمه لرجال العلم . واذكر أن رجلاً أرمنياً جاءه ذات يوم ليوكّله بدعوى جزائية ، فتقاضاه سبع ليرات عثمانية . ولما عرف ان موكله دكتور في الفلسفة أعاد اليه المبلغ، فسألته في ذلك فأجابني : « هذا رجل علم وهو رصيف لنا فخدمته فرض علينا » . وأعجب من ذلك بكاؤه على العلاّمة ، المغفور له الأب لويس شيخو اليسوعي ، حين بلغه النعيّ . واذكر اني نشرت حينئذ في جريدة « الاحرار » مقالاً عنوانه : قسيس إنجيلي ماسوني يبكي راهبا يسوعيا .

ومنها عناده ، بل استشهاده في سبيل الحق أو في ما يعتبره حقّا . وشجاعته في هذا الصدد نادرة مهما كبر الخصم وجلّ شأنه . ولقد اتُّهِم غير مرة بغرابة الأطوار، وما في هذه التهمة خفض لشأنه، فيا طالما اتّهم العباقرة من قبله بأكثر من هذا . وسواد الخلق يأنسون بالرجل العاديّ ، أي المتوسط الفهم ، الدائر في حَيِّز معروف ، تدرك ما سيقول قبل ان ينطق ، يعبّر بالرواسم فلا يجهر إلا بالجاهز من الكلم ، ولا يعمل إلا بالمتعارف من العادات ، يفكّر بفكر الناس جميعا ، ويحدّث بلسانهم ، فكل ما فيه مستعار . كتلك العقود والخواتم الزيوف ، تستعيرها النساء ويتداولنها في العرس ، والمناحة ، ومجالس القصف والرقص .

الرجل العادي لا همّة له في جديد ، ولا وثبة الى مبتكر أو شأن جلل . فهو عبد فطرة تؤثر الجهد الأقل ، ووليد عادة هي أعمق من ان تكون طبيعة ثانية ، لأن الطبيعة نفسها عادة أولى . وما اكثر أسرى التقاليد ومعظمها لا طعم له .

وهنا اسائل نفسي ما الفارق بين العاديّ العاديّ من البشر والقطار الذي يجري بين خطين من حديد ؟ أليست الآلة الحاسبة أفضل منه ؟ ويذكرني بهذا الضرب من الناس حادثة طريفة مؤداها :

اني سايرت الموكب الذي رافق جثمان المغفور له جبران خليل جبران الى بشري ، بصفة كوني أحد شعراء حفلة التأبين واذكر من قصيدتي يومئذ قولي :

هَلَعَ الأبلقُ ، سلطانُ الربى　　لربيعٍ مات في العمر النضيرِ

البساطُ الأخضرُ الغضُّ انطوى　　فعلى الزهر سلامٌ والعبيرِ

سأل البلبلُ نادي الطير في　　دَرَجَ الوادي عن الهمِّ الخطيرِ

ملأ الوادي حنيناً وجوى　　ومضى يشهق في الليل الضريرِ

. . .

رِقّةٌ كالماء في العود جرى　　أو كفيءٍ طاب في لفح الهجير

وترى الألفاظ (جبرانيّةً)　　قُطفت غب الندى ، عند الغدير

والمعاني سهلةً صافيةً　　دفقة الينبوع في الوادي القرير

المروج الخضر تفدي حلّةً　　لَبِسَتْها الضادُ كالوشي الحرير

كأنتِشَاء الروح من فوح الشذا　　واعتلاق الطلّ بالنبت الطرير

. . .

الخلودُ الرحبُ في عرس النهى　　قائم الزفّة مطلوق البشير

أمّهُ من مطلع الشمس فتىً　　نيّرُ الألفاف لمّاح السرير

خالدَ الشرق هنيئاً بالعلى　　فاسحب الذيل على الملك الكبير

المعريُّ مضت أيّامُه　　هاتِ أيام المعريِّ الأخير

وكنا نُستقبَل بالأعلام السود ، وأقواس النصر ، وخطب التأبين ، في القرى والقصبات التي نمرّ بها ، فينبري للردّ والشكر باسم حاضرة المُقدّمين (بشري) أحد أبنائها الذين يستغلّون مثل هذه المواسم ، ولم يكن يُعوِز الرجل سوى الوداعة ، والفصاحة ، والألمعية ، وحنجرة غير نوّاحة ، فاعتمد نموذجاً من البيان هذا بعض نصّه :

الخسارة هي خسارة لبنان بأسره . إن جبران الخالد لا يموت . نشكركم من صميم قلوبنا باسم آل الفقيد وآل بشري ، عوّض الله علينا بسلامتكم ، ولا أراكم مكروهاً ، وجعلها خاتمة أحزاننا وأحزانكم .

أعيدت هذه اللازمة في كل قرية ، وعلى كل مفترق طرق . فلما بلغنا البترون وجدنا أمام السراي حشداً كبيراً ، وتراحمت الخطب ، وتراكم الموكب . وكأن صاحبنا أدركه الوجل ، فتلا المعزوفة بصوت فيــه تهدُّج وَصحَل ، ونسي الجملة الأخيرة . وكان سائق سيارته قويّ الحافظة فغمغم : وجعلها خاتمة أحزاننا وأحزانكم . ذاك هو الرجل العادي ، والآن فلنعد الى نجيب خلف .

كان الاستاذ الكبير مُتبحّراً في اللغة العربية حتى ليندر مثله في اللاهجين بالضاد ، فقد ألـّف فيها معجماً (لم يطبع) يربي حجمه على حجم محيط المحيط نحواً من خمسة أضعاف . ولقد استنفد تأليفـُه معظم حياته . وفي سبيل هــذه الموسوعة كان يطالع كل سنة ألوف الصفحات ، بين مواقيت الجلسات ، ريثما تأتي نوبَتُه في المرافعة . ولكنه ، على إحاطته باللسان العربي ، وبُعد إدراكه في أصول المفردات وأساليب الأداء ، وتصدّيه للنظم والنثر والخطابة ، لم يحالفه التوفيق ، بل ربما نفـّر الناس فأعرضوا عن قلمه ، ومردّ ذلك الى رغبته في الإطالة المملـّة ، وشغفه بالغريب من الكلم ، وإهماله لحلاوة اللفظ وموسيقاه في المسامع .

كان يومَ التقينا في قصر العدل يبحث عن ليسانسيه متخرّج في معهد الحقوق الفرنسي ، بسبب القضاء المختلط يومئذ ، لأنه كان ضئيل المعرفة باللغة الفرنسية .

ولقي سواي من خريجي ذلك المعهد ، ومعظمهم يفوقني بلغة راسين ، بيد انهم يكادون لا يفقهون معنى رسالة عادية ، اذا ارتفعت لغتها عن رسائل التهنئة والمعايدة وغرام يتبادله طالب وطالبة . فكيف بهم اذا تاهوا في شعاب نصوص مجلة الأحكام العدلية ، اي القانون المدني القائم يومذاك ، ومصادره لا تدرك بالهيّن ومنها الفتاوى الحامدية والهندية ، والبزازية ، وملتقى الأبحر ، وردّ المحتار في الدر المختار ، والبحر الرائق ومؤلفات أحمد والزيلعي الخ ؟.

وإذن فقد كان صاحبنا أحوج ما يكون الى من (يفهم عربي) ويساعده على تفهّم دالوز وسيراي وغارسون وغارو الخ . فقال : « وجدت فيك طلبتي » فقلت : « وأنا بهذا القول أجدر » . ولقيت منه مرشداً ورفيقاً وصديقاً وفياً. وأفدت من علمه باللغة قسطاً غير قليل . ولما تأهل سنة ١٩٣٢ ، في ما اذكر ، وكنت يومئذ قاضياً في محكمة بيروت البدائية، هنأته بأبيات لزمت فيها الجدّ، وداعبته بأرجوزة ، هي من طراز أراجيزه في الغرابة ، وكان قد تقدم له نظم قانون الجزاء العثماني في أرجوزة مطلعها :

قال نجيب الخلف اللبناني — الحمد للمهيمن الرحمن
وبَعْدُ هذا نظم قانون الجزا — وقد توخّيت به أن أوجزا

أما ارجوزتي في التهنئة فاذكر منها قولي :

قال الفتيُّ الجهبُذ اللبناني — الحمد للمهيمن الرحمان
عِمتَ صباحاً يا نجيب الخلفِ — حفّاظَ كل حادثٍ مستطرف
وبعدُ أهدي وافر التهاني — لِلْعَيْلَم الزخّار من قحطان[1]

---

١ — العيلم : البحر .

تلك العروس طالمـا نشدتها	قل لي بأيّ مُعجم وجدتها
دع عنك حيناً ادّعاء المدّعي	وما رواه أحمدٌ والزيلعي[1]
وملتقى الأبحر والهنديّة	وكل تلك الكتب المنسيّة
بالله لا تعزف عن العروس	بالبحث والتنقيب في القاموس[2]
يا عالمـاً مستنسكاً تقيّاً	لم يخسر الأعزاب فيك شيّـاً
فليهنأ العريس بالعروسة	ولينعـم القسيس بالقسيسه
يا ايهـا القَملّسُ الخضمُّ	والناخِعُ الحبر به نأتمّ[3]
الكيثرُ اللهموم والغطريفُ	يقصدك النّفراج والملهوف[4]
جاءتك رِعْبِيبٌ بحسن جمها	ذكّرني بجدّها لفظ اسمهـا[5]
طَمسِنُ ذاك الآكل الصبّير	بدون بزرٍ ، آبَ باليسير[6]

ونشرت القصيدة كاملة في جريدة « الدبور » بإمضاء مستعـار . ولقيت في اليوم التالي الشاعر الكبير « المُحدّث الأنيق صديقي الغالي ، المغفور له الشيخ امين تقي الدين ، على ساحة البرج ، فعانقني فقلت : ماذا ؟ فقال : « يا بولس ، لقد انتقمتَ للذوق الشعري من نجيب عن خمسين سنة خلت وعن خمسين تجيء».

---

١ – اشارة الى كتب شرعية ومؤلفيها .

٢ – عزف عن الشيء زهد به .

٣ – القملس: الكريم والناخع : العالم وكذلك الحبر .

٤ – الكيثر واللهموم السخي ، والغطريف السيد الشريف والنفراج الجبان .

٥ – الرعبيب : الجارية الناعمة .

٦ – اسم العروسة ماي يوهانس طمسن ، ويروى ان رجلاً يدعى طمسن أراد ان ينقي الصبير من بزره قبل أكله فلم يبق في صحفته شيء يذكر ، ومنها قولهم : صبيرة طمسن.

فحاولت الإنكار ، فقال بل أنت صاحبها ، فضحكنا وضحك أكثر منا نجيب خلف نفسه .

في القضاء

وفي أوائل ايار سنة ١٩٢٨ نقلت من قوس المحاماة الى منصّة القضاء، فعينت حاكماً صلحياً في عاليه ، ثم في مختلف النواحي اللبنانية (بعبدا ، بيروت ، زحله ، مرجعيون، طرابلس) في خلال خمس عشرة سنة حتى أُحلت على التقاعد في سنة ١٩٤٤ ، لمّا برّح بي دائي فسمّرني على فراش الألم اعواماً. ولقد فصّلت ذلك في كتابي الحميم (مذكرات جريح) وليس لك من غنى ، يا حفيدي العزيز، عن مطالعة ذلك المؤلف الذي يوجز حياتي المأساة ، فتدرك السبب في تلقيب جدك بأيّوب القرن العشرين . وثق اني تفوّقت على أيوب عوص ، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه .

وليس في حياتي القضائيّة ما يستحق الذكر الا نزاهتي وشجاعتي . فما حابيت الوجوه ولا هِبتُ زعيماً أو صاحب سلطان، ولا ظلمت أحداً ، إلاّ ان تكون زلّة بغير علم ، فالعصمة لله وحده . ولكن وجداني – وهو أضيق من صدر البخيل وعين الجار الحسود – لن يحاسبني على خطيئة مسلكية . وأحسب ان ثمة عملاً يُدوّن لي في باب الحسنات وهو نهوضي ، ما استطعت ، باللغة القضائية ، الى مستوى يليق بالشعب اللبناني الذي تصدر باسمه الأحكام . ولا أزعم اني تفردت بهذا الإصلاح الشكلي ، فما انا بالمغترّ ، ولا بالدعيّ الذي يضع نفسه فوق موضعها . فلقد تقدّمني وسايرني في هذا الشأو نفرٌ من أجلّة المحامين والقضاة .

ومعلوم انه ، في تلك الحقبة ، كان اللحن فاشياً ، والركاكة متأصلة ، حتى ان احد القضاة كان يؤنث الرجل حيناً فيقول : وبما ان الرجل التي ، ثم يعيده

الى التذكير حيناً فيقول : الرجل الذي فلما سئل في ذلك أجاب : ان (التي) للمتزوج و (الذي) للرجل العَزِب .

وأدهى من هذه المضحكات ، التي مدارها الافراد ، مَغَالِط سائدة انبثقت من العهد التركي ، وظلَّت في الرواسب زمناً غير قليل . فمنها (ورقة الدعوتية) بدلاً من (الدعوة) ، ومنها التعابير الهزيلة كقولهم (الدعوى المقامة من طرف المدعي على طرف المدعى عليه) .

ومما لا ريب فيه ان حُبّي للغة العرب ، واستجابتي لنداء القوافي ، حين لا سبيل الى ردّه ، كانا عقبة في سبيل ترقيتي الى حيث استحق ، إذ الفرنسيون هم أولياء الأمر يومئذ ، وأنا من غير المقرّبين . وأعترف اني لم أكن بمودتهم خليقاً . فقد كنت في بعض مقالات مغفلة أو موقعة بإمضاء مستعار (مهيار الديلمي) أعرّض بهم ، غير جائر ولا مغالٍ في النقد .

وأذكر انه يوم أقامت مدرسة الحكمة حفلة تأبينية للمرحوم نعوم مكرزل ، أحد اعلام الصحافة المهجرية ، بصفة كونه من قدامى الحكمة ألقيت فيها قصيدتي وعنوانها (**نعوم يرثي نفسه**) . وكان ذلك بمناسبة وصول رفاته الى لبنان سنة ١٨٣٢ . وهذا مطلع القصيدة :

الغابُ يا أرض (الفريكة) غابي — مهما أطلت عن العرين غيابي[1]

يبسّانِ عـاد الليث من خطراته — نابي الأظافر أو حديدَ الناب

لك أُسْوةٌ بالسيف قد شهد الوغى — وارتدّ مفلولَ الظُّبى بقراب

صافي الفِرندِ فإن تبدّل حليةً — فجلالُ مجدٍ ، في جلال ضراب

---

١ – الفريكة : بلدة نعوم حيث وُلد ودفن .

لكِ ذمّةٌ عندي قضيتكِ حقّها ورجعت أبغي من ثراك ثوابي

تثِبُ الُمنى وثبَاتها حتى إذا أعيى الجهادُ مطامع الوثّاب

جمعتْ على الوطن العزيز شتاتها في نِعمتينِ : رُخامةٍ وتراب

وقد نقل اليهم أحد صنائعهم هذين البيتين :

حممٌ تَطايرُ من يراعي كلمّا دَقّ الدخيلُ على رِتاج الباب

ضرباتُ بتّارٍ ، وطعن أسنّةٍ وخفوقُ أعلامٍ ، ولمع حراب

ومنذئذ صدر تعميم يقضي بمنع الموظفين من الكلام في الحفلات بدون اذن سابق .

وأراني قبل ختام الكلام على حياتي القضائية ، ايها الحفيد العزيز، مُضطرّاً للكشف عن جهة لها علاقة صميمة بالجوّ العربي الملحمي الذي أبدعته في ملحمة (عيد الرياض) . وتفصيل ذلك : اني نقلت في سنة ١٩٣٣ من زحــلة الى مرجعيون حاصبيا حاكماً صلحياً . وكنت عهدئذٍ كَـلِفاً بالصيد ، تلك الرياضة الأثيرة ، التي لا يَعْدِلـُها ، في نظري ، أيّة نزهة رياضية جسمانية كانت .

ومرجعيون متاخمة لفلسطين وسوريا حيث تزخر الطرائد من حجلان ويمام وسماني وبطّ وأرانب ، ولا سيا في (الحولة والجولان) وكان لا بــدّ لي من النزول ضيفاً على عرب لم يبتعدوا عن الطور القَبلي والبدائي إلاّ قليلاً . ويا طالما آكـلـْتُـهم فأكرموا وفادتي. وتمادى بنا السمر بين حنين الرباب ودقـّة (المهباج) المثلـّثة المرقصة في الهاون الخشب ، تعقبها قهوة مصفّاة في أباريق من نحاس كأنه الذهب لفرط الألـَق. وتـُدار الفناجين على الشاربين فيرشفونها ويتلمّظون ويتفنّنون بالفروسية حيناً فيستهلّ سَامِرُهم بمثل هذا البيت :

يا راشباً من فوق صهوة عبيّان أدهم رجوج الراس ، سَرْجُو يماني

ولا يخفى ان (الشين) في (راشباً) هي بدل من الكاف . و (العبيّان) في النسبة الى (العُبيَّا) ، إحدى الأمّات الخمس لعتاق الخيل . ولقد اشتمل البيت أصل الجواد ، ولونه ، وحركة رأسه ، ونوعَ سرجه ، وفي ذلك من براعة المطلع ما فيه .

وكذلك القول في براعة المتغزّل حيث يقول :

يا بو نهيْدِنْ تِقِلْ فِنجانْ صيني	شلفـــات للقلب المشجّى ذوابيح
لا الخوخ لا الرمّان لا الدار صيني	لا مشمش البصره ولا َهِن تفافيح

وظاهر ان (النهيدن) في لهجتهم تصغير نهد ، فانظر شمول الوصف بالحجم واللون والطعم ، والتأثير النفساني في قلب الناظر .

ويا طالما توسدت حقيبتي وبندقيتي مشتملاً بعباءتي ،متلفـّعاً بكوفية يعصبها عقال مقصّب ، مصغياً الى حكايات البطولة تحكى عن أمثال ظاهر العمر ، ذلك البدوي الحضري النبيـل الخصال ، الذي بسط ظلته السخيّ على سواد الشآم حاكماً . ولكم ترنـّحت على قوافي شبلي الأطرش في حنينه الى الديار يوم كان منفياً . ومما كان يزيد في شجني زجليات نمر العدوان ، البدوي الشاعر ، في رثاء زوجته (وَضْحَا) التي أصبح ذكرها في شمالي الجزيرة مماثلاً لشهرة (جولييت) في رائعة شكسبير . فسُمّيت باسمها كل (زَيْنَة) كحيلة العينين، ضافية الهُدبين ، مِئناف محصنة ، ولا سيا في القبائـــل المجاورة من حويطات وحروك وفضل وزريقات وهوادجه وبني حسن ووهبان وتركان ، وباسم (وضحا) العدوان حدا الحادي بين اليرموك وبحر الجليل .

وكانت قبيلة الرولة ، وهي فخذ من عنزه ، تأتي قضاء القنيطرة الملاصق الحدود اللبنانية ، في مطلـــع القيظ ، فترتعي جماهم الحصيدة ، وهي أسافل الزرع الذي لا تنالـُه المـَنَاجل . وحينئذ تمتد مراعيهم الى مرج الخيام في لبنان .

ولقد شهدت جِمالهم ومنها الفصيل، والبازِل، والنياق العِشار، والمهاريّ السود الحدق. وأخبرني الثقات ان الهجّانة يعتلون الأباعر، بمثل خفة النسيم، وبينهم كل ضامر الكشح طاوي الحشا، يثب فيضع قدمه على العرقوب، ثم يقفز فإذا به يستوي على السنام، ولو ان الهِجّان في إحضارهـا. وإن اولئك الصناديد لمِن أحذق الرماة، يرمون الأهداف إذ المطايا في عنفوان وَخْدِهـا وقلّما يخطئون. ولقد نزلت مرة ضيفاً على أحد شيوخهم[1] فرحب بي أجمل ترحيب. وشهدت القعب والسِقاء وشربت اللبن المخيض. وحدثني الشيخ فما كدت أفقه له قولاً، لو لم يتداركني الحظ بترجمان من عرب الفضل. وانما بسطت لك هذه الصور يا عزيزي فادي، لتدرك أني عندما اتحدث في (عيد الرياض) عن شؤون البداوة، فإنما أصدر عن معرفة. ألا سقى الله أيام الشباب والصيد، فلقد كانت ربيع الحياة، أو الحياة كلها.

١ – ويعرف الشيخ بمضربه فاذا رفع الطنب على اربعة أعمدة فتلك علامة المشيخة.

العَرَبِّيات وَالوجَدانيات

ولست بنحويٍّ يلوك لسانه . ولكن سليقيٌ أقول فأعرب

لا أحسبني مغالياً أو عاقاً -- وأنا أول من يعترف بالجميل – اذا ادّعيت (العصامية) وجهرت بالقول إن معرفتي باللغة العربية – أضئيلة كانت هذه المعرفة أم واسعة – صرفاً ، ونحواً ، ومتناً ، وأدباً ، إنما هي ثمرة جهاد شخصي . والسبب في ذلك انقطـــاع سني الدراسة من جهة ، وضعف المعلمين في بعض الأحيان . ولقد عانيت ما عانيت في الوقوف على القواعد وشواردها ، وتعدّد وجوه الإعراب ، ولا سيا عندما عُهد الي في التعليم بمدرسة الحكمة ، في ظلّ نفرٍ من أساطين البيان ، على أسَلاَتهم جرت الفصاحة ، ومن أقلامهم أشرقت البلاغة ، بعد سباتها المديد في عصور الانحطاط ، عَهْدَ طغت العجمة (المغولية) على لسان العرب ، وأوشكت ان تذهب بنعمة القلم ، لولا القرآن الكريم ولولا طائفة من أعلام الضاد ، كانوا في أمصار العرب أباديدَ أشتاتا ، وفي جبل الأرز جماعاتٍ تَبتّلوا فتلبّسوا العباءات والقلانس ، وانقطعوا لعبادة الحرف بعدالله تعالى ، فأكبّوا على المحابر ، لا يستنيرون إلاّ بالسُرُج الخافتة أو القناديل الشحاح ، ومن بين الشحوب والسواد هَلّت لغة عدنان ، وشاعت بين مطلع الشمس ومغربانها .

ولقد أنشأت المقالة ، وقرضت الشعر ، فعرفتني الصحف وانا ما برحت على مقاعد الطلب . وبدهي اني ندمت على السرعة ، ولا سيا في إذاعة منظوم مرتجل

هو الى النثر العادي أدنى منه الى الشعر . وحبذا لو أمهلتني رَبّةُ القوافي ريثما أصيب حظّاً من النضج ، أو أتمرّس بأبحر الخليل فأُلِمّ بالعروض ، لكن السليقة الشعرية تهزأ بالخليـــل وأوزانه ، كما يهزأ الكروان بسلّم الموسيقى . ثم أليس العلم نفسه يستبق القاعدة . فلقد تعاطى الناس رحيق البيان ، وسَحَرَهم الأداء العَجَب ، قبل ما انبرى أبو الأسود الدؤلي لتنظيم النحو ، فما انتظرت الأهرام رياضيات أقليدوس ، ولا جنائن بابل مهندسي الزراعة . ويقينا ان البشر أقبلوا على الدواء قبل هيبوقراط . ولقد أخبرني أحد أدباء المصريين الثقات أن أحمد شوقي ، الذي بويع ، بإمارة الشعر ، لم يكن عليما بالعروض وما يعتريها من الزحافات والعلل ، والخبن والطيّ ، فسئل مرة عن قصيدة له أمن مجزوء الوافر هي أم من بحر الهزج ، فأجاب انه لم يشتغل مرة بالتفاعيل . ولقد شغلتني هذه الأوزان أسبوعا واحداً فطويتها ، بما فيها الأوتاد الخفيفة والثقيلة ، ولم اعتمد سوى اذني والمطالعة .

ولا بدّ لك يا حفيدي العزيز من السؤال عن حياة جدك العاطفيّة وأثرهـا في أدبه . فاعلم ان طفولتي خلت من المباهج ، إلا ما ذكرته لك من مسرّات ريفية ضئيلة، كنا نختلسها في المواسم والأعياد والأعراس النادرة ، فننتهب ذلك القليل منغّصا بقسوة الأهل ، وبيئة متمنّتة لا تنفكّ تسومُنا رَهَقا ، وشيوخ حسابهم عسير ، وملامهم لا ينقضي ، فأين ملاهينا من ملاهيكم ؟ وعيتم وبين ايديكم اللِعَب والدُمى ، ومطاياكم الدرّاجات والسيّارات ، وآلات طربكم شتات المعازف مجموعةً في الراديو . جهاز التلفزيون مُطلّكم على كل أفق عجيب ، ودارات السينما أنديتكم الأثيرة ومرتادكم الدائم . وشببتم والحرية قد فتّحت لكم سبل المتعة فنقلتم في رياضها على كل فنن. في عصركم رشدت المرأة وتساوى الجنسان في الحقوق وعلى كل صعيد ، فأمامكم السهل النضير ، وكان طريقنا الوعر الشائك ، ومنهلنا الغدير الضحل . محيطنا ضيّق تكاد تسمع فيه الوشوشة ، وللهمسة في أرجائه صدى . فإن ابتسمت فتاة لفتى في الساحة ،أو

على طريق العين ، تناولتها الأفواه النامّة ، واذا أحَدَّث اليه النظر ، في سهرة ، عقد أهلها مجلس تأديب لإدانتها، فلا يجد الأحداث إلاّ عيونا راصدة ، ومُربّين يمعنون في الزجر والتأنيب ، وتعداد الخطايا المميتة ، التي عقابها جهنم ، حيث النار المؤبدة ، وهكذا يطلعون جيلاً شبّ على الكَبْت والحرمان فعمد الى الصبر الجميل تارة ، والى الرياء طوراً .

في ذلك القفر الجزئي بلغت الحلم ، فأدركت الأنثى وما عرفت الحبيبة . ولم يكن في القرية يومئذ صَبيّة من لِداتي حقيقة بأن توقظ في نفسي غراماً . وكانت القرى المجاورة معزولة إحداهـا عن الأخرى لانعدام المواصلات ، فكأنما هي جزر متحاذية لا سُفن بينها ولا قوارب ، فمن شاء التنقل جازَفَ سابحاً عارياً ، فتناوشته الأبصار النَّهِمة من كل صوب . وليس أرهف من ألسنة الريفيّين للطعن ، وربما صحّ في معظمهم المثل القائل : دجاج مناقيرها من فولاذ . يملأون فراغهم بالمثالب فيجدون شغلاً حيث لا شغل . أخصّ بالذكر النساء الكسالى ، وليس أحبُّ اليهن من الخوض في هذه الشؤون .

وكانت المرحومة والدتي ممعنة في التقوى حتى لتعتبر أطهر أنواع الغزل خطيئة تستوجب النار المُعدّة لإبليس وجنوده . فما تجرأت مَرّةً على المزاح بحضرتها ، ولو في الحديث عن زواج بعيد . وأهمُّ الأسباب التي حالت بيني وبين الحياة العاطفيّة ، كارثة الحرب الكونيّة وسنوات الجوع . فأي أحمق يطيب له الغرام بين أشباح الموتى ، إذ الناس غرثى البطون ، صفر الوجوه ، يتهاوون كأوراق الخريف نثرتها ريح صرصر . وكان الحديث المفضّل عهدئذ حديثاً عن القمح . وأطيب الغزل وأشهاه التشبيب المبتكر ، برغيف من الحنطة أصفر لا غشّ فيه ، نقيّ من خليط الشعير والذرة والترمس ، أي خبز صافٍ كالشعر الهندسي، أسماهُ أخلاهُ من العاطفة، وأبعده من خلجات النفس . وأنا الى صفاء الرغيف أميل مني الى نقاء الشعر. وقبل أن أودّع الأول لأحدّث بالثاني أراني مسوقاً بحكم النكتة الى الوقوف هنيهة على بحث طريفة عربية . فلقد جاء في

باب المُثَنَّيات، الفرقدان: الشمس والقمر، الحجران الفضة والذهب، الأسودان التمر والماء، الأحمران الخمر والماء، الثقلان: الأنس والجن، الأعذبان الطعام والنكاح. والنكتة هنا في المثنى الأخير. فأما الطعام فلا غنى عنه، فإذا تعذّر وانقطع سقط الثاني، لأنه فرع على أصل. ولكن هذا الفرع له من الأهمية الاجتماعية مكانة لا ينكرها إلا منافق، فالزواج منطلق الحياة، لأن الذي خلقهما منذ البدء خلقهما ذكراً وانثى، فمن حذف التناسل حذف العالم، وأطفأ كل ذي نسمة حية. وما الحضارة بسواد مظاهرها إلا صدى له. من الشعر، الى الموسيقى، والرقص، والغناء، والتصوير، والأزياء، وضروب التجميل، والتسابق الى الأناقة، والإمعان في الخيال بدءاً من أحلام اليقظة الى احلام الرقاد. ولا تخلو منه شطحات المتصوفة نفسها فتحول من هيام جذوره في الأرض الى وجدٍ يتبخر في الأعالي. واني وان خالفت العلاّمة سيغموند فرويد في ردّه شؤون الحياة جميعاً، حتى الإلهيّات منها، الى الغريزة التناسلية، والعقدة الأوديبية، فمما لا ريب فيه أن شأنها فوق ما يتصور السطحيون. فمن كان في شك من ذلك، فان عند الاطباء، في مختلف وجوه اختصاصهم، ولا سيما اطباء الامراض العقلية، الخبر اليقين.

أما الغذاء، فلا َجرَم، ان أسوق بصدده نادرة موجزها اني كنت أقرأ على احد الأدباء فصلاً عنوانه: مآدب لبنانية، فأخذ على المؤلف اهتمامه بهذا الشأن التافه، شأن الولائم، معتبراً ان حاسة الذوق أحط الحواس الخمس مرتبة، وان حاسة النظر أشرف الحواس الخمس مقاماً، يليها في سلّم التقويم حاسة السمع ثم الشم. وانما جرى في ذلك على سنن المبتلين بمرض التقليد، فكرر ما زعمه الإغريق وقال به الفرنجة، وبدون أن يسترشد برأي نفسه.

وكنا، ذلك الأديب وأنا، مدعوين للغداء في اليوم التالي، في بيت غني متأدب، نـدّ بطبعه عن زمرة المُوسِرين، فكان سخياً غير أمّي الحرف ولا

الفكر . ولاحظت على المائدة ان جاري الأديب هو أشره المدعوين، فلم يُنكب الدجاج والسمك بأقطع منه ضرساً ، وأسوَغَ ريقاً ، واسرع ازدراداً . فكان يميل على الجفان سقوطَ الجراد على زرع أخضر . يسطو عليها بالشوكة والملعقة ثم يمسحها بالخبز حتى تبرق ، فرجح لديّ انه صام العشية والغداة ، وخاض الوقيعة بكل ما أُوتي من جشع . وسمعته يمتدح أصناف الشراب والطعام بما لم يوفّق الى مثله ابو نواس وابن الرومي مجتمعين .

بعد هذا الاستطراد أخالك ياعزيزي فادي متّهماً جدك بالولوع في الأعذبين، فلئن فعلت فلقد أسرفت في الظن ، فما انا بالصّوام القوّام ، ولا بالنّهِم ، ولا بصريع الغواني . بل ربما كنت أعفّ من المتلبّسين بالقنوت ، المحوطين بهالات الوقار ، وإن هم إلا ممثلون مسرحهم الدنيا العريضة ، وقصاراهم طيّباتها . وإنما بسطت لك ناحية اجتماعية لِأظهِرَك على جزء من الكذب المجتمعي الذي تواطأ عليه سواد الناس ، في ما اصطلحوا عليه من تمويه ، ولتدرك سبب الكَبْت في حياتي العاطفية ، وما مُنيت به من حرمان في مستهلّ شبابي، فلما انتهت الحرب عدت الى المدرسة والتزمت الجد كل الجد ، فكان الحرمان في سني الحرب قسرياً وفي حقبة الدرس اختيارياً ، كالرهبانية التي كتبها الرهبان على انفسهم وما كتبها الله عليهم . ولو كنت اميراً كصاحب : أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر لرددت معه قوله :

زين الشباب ابو فراس   لم يُمتع بالشّباب

بيد اني في أثناء دراسة الحقوق والسنوات الثلاث التي عقبتها ، إذ كنت عزباً ، لم أحرم فوحاً يهب من هنا ونفحة تسري من هناك . فتغزلت لا على قدر الموضوع بل على قدر خيالي ، إذ اني ، على إحساسي بالمرأة شاباً ، وإعجابي

بالجمال كهلاً ، لم أكن مرة واحدة روميو أو قيس بن ذريح . وكان لي في الغزل النظيف ديوان ضاع في ما ضاع من اثاث بيتي، يوم كنت في المستشفى سنة ١٩٣٩، وقد أشرفت على الموت . ولم يبق منـه سوى نموذج واحد هو قصيدتي : وردة الغاب المنشورة في مقدمة ملحمة (عيد الرياض) .

أما وقد أفضى بنا السياق الى الكلام على الشعر ، فاعلم يا عزيزي قادي، ان الناحية الأدبية التي تفرّدتُ بها هي ناحية الملحمة ، إذ لم يكن للناطقين بالضاد ملحمة قبل ان ينهض بها جدك المُسجّى على فراش العذاب ، فيطلّ على الأدب بالعيدين : عيد الغدير وعيد الرياض .

ولقد أسهبت القول ، في مقدمة عيد الرياض، على الشعر الملحمي ومُمَيّزاته، وأنصفت الشعر العاطفيّ ، وعرّفته بمـا يستحقّ من التقدير ، برغم قولي في معرض الذياد عن الشعر الخطابي الراقي « واني لعلى اكثر من اليقين بأن الشعر الخطابي الراقي ، بل النثر الخطابي النفيس ، أبقى على الدهر مما يبتلينا به مرضى الرومنطيقيين البكّائين ولا أطلال ، العاشقين ولا حبّ ، سوى ما يتقوّلون . وما هم في عصر جميل بثينة ، وكثيّر عزّة . وتراهم اختصاصيين في النـدب والنواح ، وقد تقاسموا مناطق التذلل والعويـل ، كما يتقاسم رجال السياسة مناطق النفوذ ، فواحد اختصاصي في الليل وما يجر من ويل ، وآخر مهمتـه سكب الدموع وتصعيد الشهيق ، وزفرات الحريق ، وآخر ماهر في الكدم والتقبيل ، وهكذا الى آخر الباب ، مما يُذكرك بتفجّع النساء في المآتم ، وبما يأتينه من شق جيوب، وخمش خدود، وغيبوبة تنتهي الى اللامحدود، وشطحات كشطحات الصوفية بعد الوقوع في الوجد » .

وإنما قصدت بهذا القول مخنّثين تفرّدوا بافتعال العاطفة ، وتأليه اللفظة ،

منحوتة كانت أم نُزعت من إطارها فاختُلِست مُغلّفة بغلالة من حرير .
ولقد تحمّل الناس من غنج أولئك المدلّين المُدلّلين عَنَتاً ، فأعادوا الى الخواطر ، بعنجهيتهم في الدعوى ، وخضوعهم في الالتماس ، ذكرى غلمان وادي العقيق.

ومن خصائص الشاعر الملحمي ، ايها العزيز فادي ، ان يكون واسع الاطّلاع ، محيطاً بالقضايا الفكرية قديمها وحديثها ، خصيباً مديد النفس ، يتفجر الشعر بين يديه كالينبوع الهدّار ، فلا ينحت من صخر ولو كان رخاماً . ويحسن به ان يعنى بالإنسان ، بما هو به إنسان ، من خلال سرد الوقائع ، وأن يترصّن فلا يتخنّث . وليس أدلّ على ذلك من المتنبي ، فلقد كان ذا نفس ملحمي ، وإن لم يقدم على ملحمة . ولقد رانت سجيته تلك على نقائصه الكُثر وأدناها اللؤم ، والتشاؤم ، وحبّ الانتقام ، والاستخفاف بالناس . أما الذين عهّروا أجسادهم ، وانصرفوا الى المجون والغلمانيّات ، فلقد كانوا – على شاعريتهم المرهفة – أبعد البشر عن اللون الملحمي ، مثال ذلك : أبو نواس ، وابن الرومي ، وحمّاد عجرد ، ومطيع بن أياس ، وديك الجن الحمصي الى آخر الباب . ذلك ان الشعر الملحمي هو شعر البطولة بنواحيها جميعاً . ألا وإن الغزل يبقى ببقاء الجنس ، أما الملحمة فلن تزول ، إلا بزوال هوميروس ، وفرجيل ، ودانتي ، والفردوسي ، وأمثالهم .

ولا يدرك صعوبة هذا الضرب من الأدب ، إلاّ من تمرّس به . وفي طليعة الصّعاب التي تقوم في وجه الشاعر ، عقبة السرد ، فليس أقتل منه للشاعرية ، وعلى الأخصّ متى ازدحمت الحوادث وتعدّدت أسماء الأعلام واستعصت على الوزن والقافية .

لذلك لم أقصر القلم على السرد ، بل تجاوزت الخاصّ الى العامّ ، ابتغاء

المطلق الذي لا يزول بزوال الواقعة ، ولا يذهب بذهاب المناسبة التي كانت مدار انطلاقه . وبهذا السبب أقحمت في العيدين (الغدير) و (الرياض) آلاف الأبيات التي تصلح لكل زمان ، لأن مصدرهـــا الفكر . وان الفكرة التي راودت هرقليط ، في القرن السادس قبل الميلاد ، احتلـَّت هنري برغسون في القرن العشرين . وكذلك القول في الخاطرة التي شغلت رأس افلاطون فلقـد ملأت حياة كارل ماركس . من اجـل ذلك نظمت في الملحمتين كثيراً من الفلسفة والاجتماع والأخلاقيات والسيكولوجيا ، فلم أتوكأ على الجماليات وحدها .

ولقد كنت في كل هذا منسجماً مع نفسي. وفي كتابي (الصراع في الوجود) ذكرت في المقدمة ما هذا نصه :

كل فلسفة تجرَّدت من الأدب فقد جنحت الى المقاييس الرياضية ، وبعدت عن الحياة ، فجفـَّت جفاف اللحم القديد فارَقه الدسم . وكل أدب تعرّى من الفكر عاد كلِماً مرصوفاً ، مهما يخلبْ َجرْ ُسه الأسماع ، ويخدعْ آلـُه الأبصار، إنه لسراب الصحراء ، حسبه نفحة من ريح الشمال ، فإذا هو الى زوال .

ولقد فصَّلت رأيي في الشعر والشاعر في ملحمة (عيد الرياض) فانظر الفصل الموسوم (بإلى مكة) . وأحب القريض إليّ ما كان منه فخمــاً جزلاً خالياً من التعقيد ، مشتملاً على الجماليَّة ، قريباً الى الطبع ، بحيث يظهر من خلاله الإنسان بعاطفته وعقله ، وجدّه وهزله ، وقوته وضعفه . ولن تجد في شعري ما قد خفي عليّ استدراكه وضبطه . ولكني نظمت في أشهر مـا يتعذّر على سواي في سنين . ذلك اني كنت أتوقـَّع منيـَّتي على فراش الألم ، فلم أفسح لقلمي في التنقيح والتجويد . فقد تجد في قصيدي ما يشبه النثر منظوماً ، وتجد المتوسط السائغ ، وتجد الرفيـع الذي ُيعجز الفحول من قدامى ومعاصرين ، وعلى الأخص من جهة النـَّفـَس الذي لا ينبهر والقريحة التي لا تجمد .

أما مذهبي في النثر فهو التزام الأسْر العربي ، على رشاقة في التعبير ، ودسم في التفكير ، فلا يكون الإنشاء خزفاً كثير التهاويل ، ضحلاً فارغاً إلا من زخرف القول والاستكبار. ويعجبني ، من الكتّاب اللبنانيين ، ابراهيم اليازجي في الغابرين ، وخليل رامز سركيس في المعاصرين ، على ان لي أسلوباً خاصاً مَردُّه الى مزاجي ، فإني أدقق ولا أمعن في التمحيص ، وأُكثر من الصور والنعوت ، بحكم سليقتي الشعرية وهي بالخيال أكلف ، وبالألوان أعلق .

●

الإسلاميّات والفلسفيّات

في القول المأثور : ان الإنسان عدوّ لما جهل ، وفي ما سأرويه مصــــداق لهذا المبدأ الصحيح .

وُلِدتُ وظللت الى الثانية عشرة من عمري في بيئــة ضيقة ، قرية تداني السبعين بيتاً . وكنا نحسبها في الطفولة قطب العــالم ، وان الدنيا تنتهي بمنتهى تخومها ، أو حدود الآفاق التي نبصرها بالعين المجردة .

وكنا صِبْيةً نلعب بالحصى ، فَيَسِمُ أظفارنا بنقاطٍ بيض . وبين أترابنــا يومئذ صبيّ لبيبب أوهمنا ان النقــاط خطايا تستوجب العقاب ، فإذا لَقِيَنا درزيّ أجبرنا على ابتلاع الحصى أو ما كان في صَلابتها من الأجرام .

فروّعنا هذا النبأ ، لِمَا كنا نسمع من أفواه الشيوخ عن قسوة الدروز في المجزرة الأهلية سنة ١٨٦٠ ، تلك الحرب التي أضرمها الأجانب ، فكان وَقُودَها إخوةٌ وجيران تُظلّهم سماء واحدة ، ويشربون من معين واحد . ويا طالما استبسلوا تحت لواء فخر الدين ، فما ميّز رصاص الترك بين صدر المسيحي وصدر الدرزي في مواطن الاستشهاد .

عدت الى البيت في تلك العشيّة ، وقد شبعت من اللعب والخوف . وكان والدي يضجعني الى جانبه في الفراش ، فقرأ في وجهي انقباضاً ، وأقلقــه

سُهادي ، فما برح ذكر الخطيئة والدروز أمام عيني ، فاستوضحني السبب فأوضحت ، فضحك وطمأنني ، وأضاف ان الدروز كرماء يطعمونك العنب الأسود ، لما يعرف من إيثاري لهذا الضرب من الأعناب. وكان بين والدي وبني معروف قرابة روحية هي قربى الرجولة . وربما كان ، بين أترابه ، الوحيد الذي يتعدى الأقليمية في نظرته . ومما لا ريب فيه انه كان خلواً من التعصب لاتصاله الدائم بغير المسيحيين -- بحكم تجارة بزر الحرير -- وكثرة اصدقائه من المحمديين . ولقد أورثني رحمه الله كثيراً من خلاله ، وفي طليعتها التساهل والألفة ، يوم كان رفاقي من الصبيان يُربّون على الخوف والبغضاء .

ولكي تدرك يا عزيزي فادي مدى العصبية الدينية يومئذ ، أسوق اليك نادرة تبين مقدار التحجّر في الرؤوس . فلقد سألت احد الشيوخ من انسبائي -- وكان بين البسطاء يُحسب عالماً -- عن الروم الكاثوليك وحظهم في الخلاص الأبدي . فأطرق غير قليل ثم أجابني وقد أخذه الإشفاق على اولئك التاعسين « إنهم في خطر » قلت : « ولِمَ » قال : « لأنهم لا يقدّسون أماسيّ شهر أيار للعذراء مريم ». فاذا كان ذاك رأيه في الروم الكاثوليك، وهم والموارنة سواسية، فيما عدا الطقس ، فماذا يكون رأيه في غير الكاثوليك من المسيحيين أنفسهم ؟ ذاك هو الجوّ الديني الذي نشأت فيه .

ولما بلغت التاسعة عشرة من العمر أقبلت على المطالعة الأدبية الرفيعة ، فبدأت بصيرتي تنفتح على أسرار البلاغة ، وتنتشي بالبيان الرفيع . ووقعت ذات يوم على مختارات من الأدب القديم جمعت في كتاب ، وبينها رسالتان من الإمام علي بن ابي طالب الى معاوية . ويسرني ان أنشرهما في هذا المقام ، لأنهما تذكراني ساعة مكوكبة في حياتي، منها تشوّفت الى أعلى قمم البيان، فاهتديت الى نهج البلاغة ، وهو أسنى ما جرى به مرقم كاتب عربي ، منذ انفتحت بالضاد لهاة ناطق . فمن الرسالة الأولى :

« وكيف انت صانع إذا تكشفت عنك جلابيب ما انت فيه من دنيا قد

تبهّجت بزينتها ، وخدعت بلذتها ، دعتك فأجبتها ، وقادتك فاتبعتها ، وأمرتك فأطعتها ، وانه ليوشك ان يقفك واقف على ما لا ينجيك منه مجنّ ، فاقعس عن هذا الأمر ، وخذ أهبة الحساب ، وشَمّرْ لما قد نزل بك ، ولا تمكّن الغواة من سمعك ، وإلاّ تفعل أعلمك ما أغفلت من نفسك ، فانك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه ، وبلغ فيك أمله ، وجرى منك مجرى الروح والدم .

ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية ، وولاة أمر الأمة بغير قدم سابق ، ولا شرف باسق ، ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء ، وأحذرك ان تكون متمادياً في غرة الأمنيّة ، مختلف العلانية والسريرة .

وقد دعوتَ الى الحرب فدع الناس جانباً واخرج اليّ واعفِ الفريقين من القتال ، ليعلم أيُّنا المرين على قلبه ، والمغطى على بصره ، فأنا أبو حسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخاً يوم بدر ، وذلك السيف معي ، وبذلك القلب ألقى عدوي ، ما استبدلت ديناً ، ولا استحدثت نبياً ، وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ، ودخلتم فيه مكرهين .

وزعمت انك جئت ثائراً بعثمان ، ولقد علمت حيث وقع دم عثمان فاطلبه من هناك إن كنت طالباً . فكأني قد رأيتك تضج من الحرب إذا عضتك ضجيج الجمال بالأثقال ، وكأني بجماعتك تدعوني — جزعاً من الضرب المتتابع ، والقضاء الواقع ، ومصارع بعد مصارع — الى كتاب الله ، وهي كافرة جاحدة ، او مبايعة حائدة .

ومن الرسالة الثانية :

أما بعد فقد أتاني كتابك ، تذكر فيه اصطفاء الله محمداً صلى الله عليه وآله ، لدينه وتأييده إيّاه بمن أيّده من أصحابه ، فلقد خبّأ لنا الدهر منك عجباً ، إذ طفقت تخبرنا ببلاء ، الله عندنا ، ونعمته علينا في نبيّنا ، فكنت في ذلك كناقل

لتمر الى هجر ، أو داعي مسدده الى النضال ، وزعمت ان افضل النـــاس في
لإسلام فلان وفلان ، فذكرت أمراً إن تمّ اعتزَلك كله ، وإن نقص لم تلحقك
ثلمته ، وما أنت والفاضل والمفضول ، والسائس والمسوس ، وما للطلقاء وابناء
الطلقاء ، والتمييز بين المهاجرين الأولين، وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم.
هيهات لقد حنّ قدح ليس منها ، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها . ألا تربع
ايها الإنسان على ظلعك ، وتعرف قصور ذرعك ، وتتأخر حيث أخّرك القدر،
فما عليك غلبة المغلوب ، ولا لك ظفر الظافر . وانك لذهّاب في التيه ، روّاغ
عن القصد . ألا ترى ـ غير مخبرلك ولكن بنعمة الله احدث ـ انقوماً استشهدوا
في سبيل الله من المهاجرين ، ولكل فضل ، حتى اذا استشهد شهيدنا قيل سيد
الشهداء، وخصّه رسول الله صلى الله عليه وأكبر بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه.
أولا ترى ان قوماً قطعت ايديهم في سبيل الله . ولكل فضل ، حتى اذا فعل
بواحدنا ما فعل بواحدهم ، قيل الطيار في الجنة وذو الجناحين . ولولا ما نهى
الله عنه من تزكية المرء نفسه ، لذكر ذاكر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ،
ولا تمجّها آذان السامعين ، فدع عنك من مالت به الرميّة ، فإنـا صنائع ربنا
والناس بعد صنائع لنا ، لم يمنعنا قديم عزنا ، ولا عاديّ طوَلنا على قومك أن
خلطناكم بأنفسنا فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء ولستم هناك . وأنـّى يكون
ذلك كذلك ، ومنـــا النبي ومنكم المكذّب ، ومنا أسد الله ومنكم اسد
الأحلاف ، ومنا سيد شباب أهل الجنة ومنكم صبية النار ، ومنا خير نساء
العالمين ومنكم حمّالة الحطب في كثير مما لنا وعليكم .

ومنها : ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان فلك أن تجاب عن هذه لرحمك
منه ، فأيّنا كان أعدى له وأهدى الى مقاتله ، أمن بذل له نصرته فاستقعده
واستكفّه أمّن استنصره فتراخى عنه وبث المنون اليه حتى أتى قدره عليه .

كلا والله لقد علم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم الينا ولا يأتون
البأس إلا قليلا . وما كنت لاعتذر من اني كنت انقم عليه أحداثاً فان كان
الذنب اليه إرشادي وهدايتي له فربّ ملوم لا ذنب له .

وذكرت انه ليس لي ولأصحابي إلا السيف فلقد اضحكت بعد استعبار ، متى ألفيت بني عبد المطلب عن الأعداء ناكلين ، وبالسيوف متخوفين لبّث قليلاً يلحق الهيجا حمل . فسيطلبك من تطلب ويقرب منك ما تستبعد . وأنا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان ، شديد زحامهم ، ساطع قتامهم ، متسربلين سرابيل الموت ، أحب اللقاء اليهم لقاء ربهم ، قد صحبتهم ذرية بدرية ، وسيوف هاشمية ، قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك وأهلك « وما هي من الظالمين ببعيد » .

أعدت قراءة هاتين الرائعتين غير مرة ، وكنت أبصر في كل تكرار جديداً . تلك مزيّة الأدب الخالد . جماله لا ينضب ، وبهجته لا تنقضي ، فهو لا يفتأ يعطيك مادمت قادراً على الأخذ . وتراه يتّسع ويضيق على قدر طاقتك في الغوص والتذوّق . ذاك اللقاء السعيد ، كان الأول مع أبي الحسن .

وأدركت لساعتي انه الذروة التي نشدتها أحلامي ، اذ كنت من قبل رائداً حائراً ، تارة يجوب السفح ، وطوراً يرتفع الى الرابية ، ولكنه لم يلمح الصَرْدَ إلا في هذه المصادفة . وتبيّنت ان مطالعاتي السالفة لم تكن إلا تمهيداً للبيان العجب . ويظهر ان الحصيلة التي خلّاها في نفسي بديع الزمان الهمذاني ، وأبو بكر الخوارزمي ، وابن المقفع ، وقصائد منسوبة الى عنترة ، وأشياء منثورة وَعتها الذاكرة من هنا وهنا ، كانت في خاطري أشبه شيء بالزُمَر البديدة تنتظر اميراً يسودها ، فأطلّ امير البيان أبو تراب[1] .

وكان في عقلي الباطن مدخّر ثانٍ تجمّع منذ الطفولة ، ينطوي على صور أبطال عايشتهم في المعامع ، فكدت اسمع الصليل والصهيل ، وأشهد التماع الأسنّة ، فهذا داحس جواد قيس بن زهير ، والغبراء فرس حمل بن بدر ، والهطّال والوِرد والكُمَيت جياد زيد الطائي ، والأبجر فرس عنترة ، والحمراء

---

١ – أبو تراب من ألقاب الإمام الأعظم ، سيد البلغاء ، علي بن ابي طالب .

حِجْر ابي زيد الهلالي ، والخضراء جواد الزغبي دياب بن غانم ، يراها خيالي شائلةَ العُسبَان[1] مرخيّة الأعراف ، كأنها من خلال النقع شواهين يستتبع منها الرعيل الرعيلا . وتلك السيوف القواضب ، والرماح العواسل ، يهزّها ويُدْلي بها دريد بن الصمة ، وعمرو بن معدي كرب ، وربيعة بن زيد المكدم ، وبسطام الشيباني ، والفند الزّماني ، والألى ذكرهم التاريـــخ وشهرتهم الاسطورة من صناديد العرب ، كل تلك السيوف كانت على ذي الفقار عيالاً ، إذ انـّه الحسام المفقود العديل ، كما ان أقلام أساطين الضاد كانت نجوماً ، فلما طلعت شمس نهج البلاغة توارت الزهرة والشِعرَى وبنات نعش. وان في مزاجي لظاهرة غريبة لم أجِـدْ لها في علم النفس تفسيراً ، إلا التجاوب العميق بين أصداء وأصداء ، فاني عندما أقرأ سِيَر البطولة التي عليها تتفرع النخوة ، والمروءات ، والأنفة ، استشعر بين كتفيّ انتفاضةً يُحدث مثلها الماء البُراد مسكوباً على بدنٍ شوته الرمضاء . ومثل هذه القشعريرة تعتريني عند ما آخذ في نظم البطولات شعراً .

ولقد تحسّس هذه الظاهرة سعيد عقل فأشار اليها في المهرجان الذي أقامته لي الكلية العاملية حيث يقول :

في عهده اختصر البطولةَ	ذو الفقار ، فَلا يُذَلُّ
سيفٌ تلفتت العصـــور	إليـــه فالنظرات سُؤل
يا باعث الطعنـــات	يُفعمهنَّ منك نَدى ونبل
دَوّنتَهنَّ كأنمـــا	قد كنت في الفرسان قبل

وبدهي اني ، بعد اللقــاء مع الإمام ، أقبلت على نهج البلاغة فأسلمني الى القرآن المجيد .

---

١ - العسبان مفردها العسيب وهو رأس الذنب .

شرعت في مطالعة مصحف غير مُفسّر ، مستنداً ألى إلمامي باللغة ، فلم أفقه منه إلا قليلاً ، فِعلَ المستمع الى الموسيقى ، وهو يجهل السلّم والمقام ، ولا يميز البيات من الصبا ، يحسّ الجمال ويفوته المعنى ، قرأت سورة النجم فسحرني ذلك السجع الذي يستزيد منه السمع ولا يملّه لِرُتوبه ، لانه جلّ عن التوازي والتوازن ، فانه يكاد لا يقع منه في الأذن ثلاث آيات متتابعة متعادلة في عدد اللفظات وحركات الوقف . هزّني الشكل وفاتني الأساس ، فلم أدرك ان الثاني عشرة آية الأولى مدارها نزول جبريل بالوحي في غار حراء ، ثم الإسراء والمعراج . وأدهشتني سورة الضحى ولكني لم أدرك معنى (ما ودّعك ربك وما قلى) وانها تطييب لنفس الرسول ، لما زعم خصومه – عندما تأخر الوحي – ان ربّه أهمله وأبغضه . فلما لمست تقصيري في التفهم اقتنيت تفسير (الجلالين) ، فبدأت أقرأ وأفهم . ولكن المعرفة شبيهة بداء الاستسقاء ، كلما نَهَل منها صاحبها ازداد اليها عطشاً . فلما نقلت سنة ١٩٣٤ الى طرابلس قاضي تحقيق ، عكفت على تفسير البيضاوي ، ثم على شروح طنطاوي جوهري . وكان لا بد لي من اطلاع الأحاديث استكمالاً للفائدة . بيد ان الكتاب الذي أثارني كثيراً في الإسلاميات هو السيرة الحلبية للإمام برهان الدين الشافعي ، فقرأتها خمس مرات في فترات متفاوتة . وخطر لي أن أطّلع التجويد ، فاخترت لهذا الغرض ، صديقي المرحوم الشيخ منير الملك ، ولم يُتَحْ لي من الوقت سوى جلستين وقفت فيها على الإدغام بغنّة وبدون غنّة ، والإمالة ، والفصل ، والوقف . وحالت العطلة القضائية ، ثم نقلي من طرابلس الى زحلة، دون إتقان علم التجويد .

●

الدّينيات والفلسفيّات

لا أكتمك يا حفيدي العزيز اني مررت بموجة من الريب أوشكت ان تزعزع ما قد رسخ في صدري من يقين ، شأن معظم الشباب أنصاف المثقفين ، يُغويهم كتاب زنديق أو ملحد، إذ يُطلّون منه على جديد فتستهويهم لذة الكشف عن الخفايا ، فتغريهم بالاستزادة ، كما تجتذب الهاوية رُوّاد المجاهيل .

وأدهى ما يختلب أفئدة الغواة ، في تلك المؤلّفات ، رشاقة الأداء، وسهولة البيان ، والظرف الذي يساير تلك الأقلام ، إذ تنــــثر آراءاً كعشب السطوح جذوراً ، فتستبدل الرصانة بالملاحة ، والجدّ بالتهكم ، والكـلِم الأنيق ، فينزل منها القارىء نزول طريد الهواجر على الظلّ الوريف .

ثم ان الإلحاد يُسقط عن الشباب كثيراً من التكاليف المرهقة ، ففِيمَ التحرُّج ما دام الله غائباً ، وليس هناك نشور ولا حساب .

قال السيد المسيح له المجد : « من نظر الى امرأة واشتهاها فقد زنى بهـــا في قلبه » . وقال شاعر ظريف :

لا تقف قدّام لذّاتك مكتوف اليدين

انت لا تأتي إلى دنياك هذي مرتين

أليس دستور الشاعر أحبّ الى قلوب الشباب من المسيح ؟ وبديهي انالشك

لا يعتري الأحداث وحدهم ، وإن كانوا بين رماياه أكثرهم عـــدداً ، وأقلّهم عتاداً ، فيا طالما هبَّت ريحُه على الشيوخ ، حتى الأتقياء منهم ، فحالت بـــين جفونهم والكرى ، فمـــا رقدوا إلا مجهدين ، وما ناموا إلا غراراً . ومنهم الفيلسوف الذي سفـّه الفلاسفة ابو حامد الغزالي ، وفي كتابه المنقذ من الضلال عبرة لذوي الألباب .

ويا نعم الشك إذا أفضى بصاحبه الى الإيمان ، كما وقع لحجة الإسلام ابي حامد ، أو إذا كان مُنـْطَلـَقاً لفلسفة جاءت نهايةً لفلسفة ارسطو وبدءاً لعهد جديد ، فما نجا من لقاحها مفكر الى يوم الناس هـــذا ، وبدهي أني أعني فلسفة رينه ديكارت . وعندي ان الذي لم يعرف الحيرة قط هو أحد اثنين : مغفـّل له جسم إنسان وعقل بهيمة ، أو بشر خصـّه الله بنعمة فائقة فرفعه فوق الناس والملائكة جميعـــاً .

وإذن فقد كان لي من سوْرة الفتوّة ، والكتب التي تعبث بالدين ، ما أيقظ في قلبي فكرة الشك ، بدون ان يطفىء جذوة الإيمان . ولمـــا أقعدني المرض فركدت أعاصير الشهوات ، وأخرس المنطق زوابع الأميال ، فلم يبق في المعترك الوجوديّ إلا عقل يعي وضمير يُقاضي ، رفعت مطالعاتي من الطبيعة إلى مـــا وراءها ، فوقفت غير قليل على شؤون المتصوفين ، والمعتزلة ، وعلماء الكلام ، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني . وأعدت الكرة غير مرة على التوراة والانجيل وقرأت اعترافات أغوسطين ، ثم الخلاصة اللاهوتية والردود على الخوارج لتوما الأكويني ، والقسم الأكبر من مؤلفات سرتيلنج ، وسِيَر القديسين ، وعلى الأخص أولي المؤسسات العالمية مثل إفرنسيس الأسيزي ، وأغناطيوس دي لويولا ، وجان دون بوسكو ، والعشرات من أمثـــال أولئك الأعاظم الذين تركوا في عنق المجتمع آثاراً لا تمحى . ولم ينته بي المطاف قبل المرور على كنفوشيوس ولاوتسو وبوذا ، وقد أطلـْت الوقفة على هذا الأخير ، وانه بها لحقيق .

ودفعني حب الاطـّلاع الى الإلمام ببعض المذاهب السريـّة ، ومن أهمها مذهب

الروحانيين ، اي المؤمنين بمناجاة الأرواح ، فطالعت عـــدداً من مؤلفاتهم ولم أحضر مجالسهم . أما الفلسفة فقد كان لقائي بها من قبيل المصادفة .

وتفصيل الخبر ان مكتبتي المتواضعة صَغُرت عن مـــدى المرض المزمن المتمادي ، إذ تمر السنون وكأنها الأسابيع ، فقرأت ما لديّ من كتب تكراراً ، كان الكتاب رفيقي الأحبّ ولمّا يزل ، وكان أشدّ ضروب الحرمـان – على وفرة ما لقيت منها – منعي من المطالعة بعد العمليّات الجراحية ، فكلفت أحد أصحابي من المحامين ، أن يأتيني بما تقع يده عليه من مكتبته ، فجاءني بكتاب : معطيات الوجدان البديهية لهنري برغسون . فلما شرعت في مطالعته عراني مثل الدوار واستغلق عليّ فهمه ، وأوشكت ان اطرحه من يدي ، وإذا بأحد الاطباء يدخل علي – وكنت يومئذ نزيل مستشفى الروم في العملية الرابعة عشرة – فلمح الكتاب في يدي وأطرى برغسون إطراءاً بالغـــاً . وأطال الوقفة على (مادّة وذاكرة) و (التطور الخـــلاّق) . فلما انصرف الطبيب خجلت من نفسي وعنّفتها على التخاذل ، واستيقظت كرامتي فعدت الى الكتـــاب ، وأوليته انتباهي كله . فربما وقفت على الصفحة الواحدة نصف ساعة ، وادّرعتُ مثل الصبر الذي يتحلى به العـــالم الأثري في حرصه على نبش النفائس ، ومغالبته العثرات ، وظهوره على الصعاب سعياً الى الفرحة الكبرى ، نشوة الاكتشاف والمعرفة . ولم يمرّ عليّ أسبوعان حتى طويت الكتاب ، وقد أخذت منه مـــا تأخذ الأرض الخصيبة من البزر الجيد . وطلبت تاريخ الفلسفة ، فتذكرت ان الباني يشرع بالأساس قبل السقف ، وهكذا عدت الى الأغارقة ، وصرفت معهم شهوراً بلياليها وأسحارها ، ثم نفذت الى العرب والفرنجة ، فلم أدع فيلسوفاً ذا شأن إلا ألممت بفلسفته . وهكذا عدت الى برغسون كرة أخرى ، بعد أربعـة أعوام صرفتها مع أسلافه ، فبلغتهُ في هذه المرّة ولم ألهث عياء . ولكني أعترف ان جبيني تفصّد عرقاً عشرات المرات مع كنظ وهجـــل . ثم ألّفت في عالم الفكر كتابين هما : (حديث العشية) و (الصراع في الوجود) .

تقدم لي القول ، يا حفيدي العزيز ، اني انا الذي بنيت شخصيتي الأدبية، فلا فضل لسوى الله عليّ في العلم بلغة الضاد صرفها ونحوها ومتنهاوعروض شعرها، وكذلك القول في استعدادي لامتحان الحقوق في قبو مظلم ، وعلى النحو نفسه كان إلمامي بالفلسفة – وما زلت منها على العتبة حتى الساعة – فلقد حصلت منها ما حصلت في المستشفيات إذ تتناوشني المباضع ، وتداولني أكفُّ الممرضات ، اقول لك ذلك لتعلم ان الانسان هوالذي يبني نفسه ويبني التاريخ، وان اقطاب الوجوديةعلى حق من هذه الجهة، فاذا شئت ان تكون رجلاً، فلا تكن كسولاً .

وربما يأخذ عليّ القارىء هذه المباهاة بالاجتهاد ، لأنها خروج على التواضع العلمي . وكأن ذلك (التواضع العلمي) المتواطأ عليه ، يأبى على الطويل إلاّ ان يتقاصر ، ليدخل في القوالب الجاهزة التي أعدّها المجتمع ، فتراه ينقم على الحر إن هو حدّث بما في نفسه ، فكأنه جـاء الدنيا ليكون بوقاً أو صدًى مألوفاً . واني على احترامي لعبقرية اميل دركايم الذي يصنّف الإنسان شيئاً براه المجتمع ، من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، أومن بالإنسان شخصاً حرّاً ، كُتِبَ له ان يعيش في الديمومة لا في الزمان.

ومعاذ الله ان أخلط بـين الحرية والانفلاتية ، واني اذ أنقض عنكبوت التقاليد البالية – ومعظمها تمادي سلطان الأموات عـلى الاحياء ، جهلةً كان الجدود أم أعلاماً – فإنني أول الدعاة لاحترام الأخلاقيات العميقة الجذور، وفي طليعة المنادين بمحبة القريب ، والتعاطف الإنساني ، غير مشترك مثلاً في مهازل اجتماعية توافق عليها الناس ، من مثل تمثيلية المآتم في الوجوم المصطنـع ، والأقنعةالتي يلبسها المعزّون ، والحداد الذي يُفرض على ذوي القرابة فيدرجات معلومة ، وآجال مضروبة ، وعبارات عزاء محتومة ، مما يذكر بالشكليات الرومانية في عقود البيع والمداينة ، فإذا أسقط النسيان حرفاً منها بطل العقد.

وأغرب من تمثيلية المناحة مهزلة التسليم على السيدات في أبهاء الاستقبال ،

واستمرارهن جالسات اذا دخل الرجال والأوانس ، وتبادل الانحناء ، وطريقة لثم اليد ، والتزام عبارات صادرة عن معامل باريس أو مصانع لوندره. ويدخل في هذا الباب عبودية السيدات للأزياء ، سواء كانت مدعاة للقبح ، او إبرازاً للجمال . ومن المضحك تَلَبُّس الجاهلات منهن بلباس المعرفة ، ودعواهنّ الذياد عن الفنون الجميلة بما فيها الأدب ، والتفافهنّ حول « متظرّف» او متأدب فيقرّظنَ حيث لا أدب ، ويضحكن حيث لا فكاهة ، فيُعِدن الى الخواطر ما قاله في بعضهن المثلث الرحمات موليير .

هذا كلام يتناول المقلّدات ولقد سألت إحداهن ، في ليلة سمر ، عن مطالعاتها المفضلة فأجابت : التحليل النفساني ، فلما سألتها رأيها في سيغموند فرويد ويونغ، خَرِسَتْ ، فأنقذتها بصرف الحديث الى كلارك غابل وأنغليد بيرمن . أما العالمات أو الفاضلات من النساء فلهنّ في صدري مقام لا يرقى اليه سوى فئة من الرجال قليلة .

لقد اضطرني الى هذا الاستطراد يا عزيزي فادي كَلَفي بالصراحة ، فإن رسالتي اليك لأشبه شيء بالاعترافات ، فهاءنذا أبرز بصفاتي ومعايبي ، لتكون صورتي أصدق ما يكون التصوير . واني لأفتخر بثلاث : صدقي ووفائي لأصحابي ونزاهتي قاضياً . وأراني بعد تطرقي للفلسفة والدين مسوقاً للحديث عنها ولو موجزاً .

في الفلسفة والدين :

من تحصيل الحاصل القول بأن الدماغ البشري لم يصدر فلسفة واحدة بل فلسفات تعدّدت واختلفت ، باختلاف المفكرين ، والبيئات والعصور ، كلٌّ ينشد الحكمة ناظراً اليها من كوّته الخاصة . وكل مفكر تأثّر بسابقيه ، وبالأحداث الغابرة ، وبمزاجه الخاص . فلولا أفلاطون الذي أنزل الفلسفة من

السماء الى الأرض ، لما قـــام اريسطو فشالها من الأرض الى السماء ، ثم تبنـّاها توما الأكويني ، واتخذ من تلك العبقرية الوثنية قوالب لتركيز المسيحية على العقل ، بعد ان فجّرها اغوسطين من القلب . ولولا ديكارت لما انقسم مفكرو أوربا الى فئتين : مؤمنة وملحدة ، وكلتاهما تنطلقان من ديكارت نفسه . ولولا شك دافيد هيوم لمـا انبثق من قلم عمنوئيل كنط كتابه الجبّـار (نقد العقل المحض) .

ولا يخفى ان أول من سبّح بمجد الثورة الفرنسية هم المفكرون الألمان فلمّا تبيّنوا في بونابرت (دكتاتوراً) طاغية جبّاراً ، قامت قيامتهم ، وفي طليعتهم فخته ، فنادى بالقومية الألمانية . ثم جاء هجل فألـّه الدولة . وعقبه كارل ماركس ، ذلـــك الصديق اللدود والعدوّ الألدّ ، فسلبه أصول الديالكتيك ووضعها أسساً للشيوعية . ولو ان ماركس ولد في قصر مُنيف ، بين الذهب والحليلات ، لما فكـّر في الرغيف واتخذه قطباً لهذا الكون. ولو ان كنط عاش في بلد ذي مناخ ناشف لما أصيب بزكام غير منقطع بسبب الرطوبة الدائمة، وبسبب ذلك الزكام الدائم جاء تفكيره – على عمقـــه – كثيباً جافـّاً . ولو لم يولد سيغموند فرويد، عميد التحليل النفساني ، يهودياً ، في معمعان اضطهاد اليهود، ولو لم يزاحمه في العائلة مولود استأثر بمحبة أهله ، لما فكر في العقدة الأوديبية وبمركب الدونية، فانهما انطلقتا من مزاج خاص في ظروف خاصة .

قال السيد المسيح : « ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمل » ، ولكنه في هذا الاكمال ، رفع الناموس الى اسمى مراتب الروح . وبذلك انفتح عهد جديد أين منه تحجّر القديم . ويستدل من هذا القول ان الناموس كان لا بدّ منه في العصر الذي جاء فيه . وان ما صحّ في الناموس يصحّ في الفلسفة ، فكان لا بد من هرقليط وطاليس للوصول الى سقراط . ولم يكن غنى عن افلوطين للوصول الى الفارابي وابن سينا ومفكري العرب . وهذه النظرة لا تقتصر على الفلسفة ، بل تتعداها الى الأدب ، فلم يكن بد من هوميروس للبلوغ الى فرجيل ودانتي ،

ولا مفرّ من أوريبيد للوصول الى راسين . وإذن فالبنايات الفكرية والأدبية يكمل بعضها بعضاً ولا تنسخ تواليها سوابقَها ، فالشأن في هذه يختلف عنه في التقنيقية الآلية، فلقد نسخ البخار الشراع، والبندقية الرمح. وسيارة الكاديلاك سيارة فورد الأولى .

وهنا لا بدّ من سؤال يتبادر الى ذهنك يا عزيزي فادي ومؤداه : أيّ الفلسفات أحبّ إليّ ؟

ولا مفرّ من الإجمال في الجواب، إذ التفصيل يقتضي مؤلّفاً بِرُمّته . أما أقربها الى مزاجي فتلك التي يشتغل فيها القلب أكثر من القياس الجامد . ولعلّ مردّ هذا الإيثار الى سليقتي الشعرية وجهلي بالرياضيات والقياس . ومن هنا نشأ ميلي الى افلاطون ، وأغوسطين ، وابي حامد الغزالي، وهنري برغسون ، وغبريل مارسيل ، ونيقولا بردايف . أما إيثاري لبرغسون فلأنه أديب وفيلسوف معاً ، ولأنه منفتح لم يتقيّد بمذهب منغلق ، كما فعل هجل وسواه ممن وضعوا نهجاً حسبوه كاملاً ، ثم فسّروا الكون على أساسه . ثم ان كل فلسفة لا تعنى بالأخلاقيات والقيم العلى ، فترفع مرتبة الإنسان ، هي تفكير أجوف هَدّام . ويدخل في هذا الباب جان بول سارتر وأمثاله من المُدمّرين. ومن قبيل المهزلة ، نعْت بعض الصحف لفئة من الكتّاب ، أو مُدرّسي الفلسفة (بالفلاسفة) . وأعجب من ذلك إقدام بعضهم على تلقيب نفسه بالفيلسوف ، فيقول : فلسفتي، بالسهولة نفسها التي يقول فيها: مزرعتي ودجاجتي، وبعد فهل استطاعت الفلسفة ان تحلّ المشاكل جميعاً ؟ لا الفلسفة ولا العلم استطاعا حلّ ألغاز الكون ، وإن يكن العلم قد تقدّم أخته أشواطاً بعد أشواط . فمن تراه يجيب الجواب الشافي عن مشكلة الخلق من العدم ، ومشكلة الشرّ ، والحرية والنعمة ، والرذل والاختيار ؟ فاذا كان الانسان ، وهو الكون الأصغر ، ما برح يجهل من نفسه أكثر مما يعلم ، فكيف يحيط (بالماورائيات) ؟ لقد سمع سقراط ، في هيكل دلفوس ، هاتفاً يقول : ايها الانسان اعرف نفسك .

ومنذئذ سعى الى معرفة نفسه ، ولم يزل نصيبـــه من المعرفة نصيب اليهودي التائه ، (وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً) .

وزعموا أن من تمنطق تزندق، فهل يصحّ هذا القول ؟ لا ريب ان من أطلق الحكم نظر الى فئة من المؤمنين تتقـّي الله وتعبده ، استجابة لدعوة ، أو جرياً على سَنَن ، ثم نظر الى نخبة من المثقفين الألى ساورهم الشك أو بلغوا درجـــة الإلحاد ، فعمّم حيث يجب ان يخصّص . فإن بين الفلاسفة نخبة من المؤمنين بلغوا ذروة القداسة ، ومنهم فرقة تشاءموا فألحـــدوا كشوبنهور ونظرائه ، ومنهم قلقوا على صعيد الشك الى آخر الباب .

ومما لا ريب فيه ان الفلسفة لا توصل الانسان الى الله ، كما أرادها ابن طفيل في روايته حيّ بن يقظان ، ولكنها قد تمهد الطريق الى الإيمان ، فتكون بمثابة النافذة التي تفتحها فيدخل منها الهواء الجديد ، وربما كان الهواء نسيما بليلاً ، أو ريحاً سموماً . أراني ، ايها الحفيد العزيز ، قد بلغت في السياق نقطة يتحتم عليَّ البحث فيها ، ولو موجزاً ، وهي نقطة الدين .

الدين :

يتوهـّم الواهمون ان العقل وحده كفيل بالبرهنة على وجود الله . ويرجح عندي ان القائلين بهذه النظرة استندوا الى فلسفة افلاطون وارسطو، وبالأحرى الى البراهين الخمسة التي نظمها أرسطو ثم تبنـّاها توما الأكويني وأقرّتها المسيحية . ولكن من أنعم النظر في دفاع كنط عن هذه البراهين ثم في دحضها ، وتبيّن الشأو الذي يبلغه العقل ولا يتعدّاه ، يشهد ان كنط ، المؤمن في قرارة نفسه ، قد شكّ بمقدرة العقل على الإثبات ، فأخرج الله من النافذة العقلية ، ثم عاد فأدخله من الكوّة الأخلاقية ، باعتبار الإنسان مولوداً للسعادة ، وانه لا بد من كفيل لها ، وان الكفيل هو الله وحده .

قال باسكال ان الدين فوق العقل ولكني أومن ، ثم وضع رهانه المشهور وهو لا يفترق كثيراً عن قول المعري:

زعم المُنجّم والطبيب كلاهما ان لا حِسابَ فقلت ذاك اليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر أو صحّ قولي فالوبال عليكما

وقال الفيلسوف الدانمركي سورين كيركغورد : الدين ضد العقل ، إنه خُلف ولكني أومن . ولا يخفى ان هذا الفيلسوف هو عميد الوجودية المؤمنة .

وعندي ان للإيمان سبيلاً خاصاً ، يختلف عن طريق الفلسفة ، مهما حاول المفكرون توحيدهما ، ذلك السبيل سلكه القديس بولس ، فألحّ على هذه النقطة أيمّا إلحاح ، وازدرى فلسفة الإغريق ، وفهم الفهماء ، وعلى آثاره جرى فريق من آباء الكنيسة . وإنما أُدخلت الفلسفة الاغريقية على المسيحية ، بعد ذلك بمئات السنين ، دعماً للعقائد ليمكنها الثبات على الجدل من جهة ، ولاستمالة الأمم التي شبّت على الفلسفة ، مثال ذلك سر استحالة الخبز الى جسد المسيح ودمه ، فلقد كان يتعذّر إقناع الخوارج بصحة الاستحالة ، لولا المبدأ الأرسطي القائل بالجوهر والعرض ، وكذلك القول في قضية خلود النفس التي ركزت فلسفياً على نظرة أفلاطون ، في كتابه (ألفيدو) . لذلك ترى ان الايمان مستقلّ عن المنطق الفلسفي، وان مكانة الفلسفة منه لا تعدو مكانة الصرف والنحو من اللغة، ومقام العروض من الشعر ، فلقد تكلم الناس باللسان العربي ، وقرضوا الشعر ، قبل مولد ابي الأسود الدؤلي والخليل بن احمد الفراهيدي .

ومن هنا يمكن القول بأن التدين هو قضية عاطفية ، تنمو بنمو الانسان، في بيئةٍ معلومة ، فترسّخها العادة والتقاليد ، ويمدّها التوارث فتصبح جزءاً حميا من المتديّن .

(لا إكراه في الدين) (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) .

(كل امرىء يولد على الفطرة ولكن أبويه يهودانه ، او ينصّرانه ، او يمجّسانه) .

(ولا مُشاحّة في الدين) .

ولو ان الجدال يعتمد مقاييس المنطق فيقتصر على الأساليب العقلانية ، لأمكن التقاء المتناظرين على صعيد واحد ، كما يلتقيان على قضية علمية . ولكن محاولة أحد الفريقين إقناع الفريق الآخر بصحة مذهبه ، تشبه محاولة قياس العنب بالليتر وهو إنما يوزن بالكيلو .

وبرغم ان المناقشة ترتدي ، في ظاهرها ، وجهاً عقلياً ، لتخرج من الذاتيّة الى الموضوعيّة ، فان المُناظر لا يستجيب سوى نداء عاطفته ، سواء شَفَّت هذه العاطفة فبرزت الى عقله النيِّر ، أم خفيت عليه فاعتلجت في عقله الباطن، فصدر عنها بحكم تحجّر العقيدة في قلبه ، وجريانها منه مجرى الدم، فهو في دفاعه عنها إنما يدافع بكل قوته عن الذات التي خلقتها العادة ، وسلطان العادة يزري بكل سلطان سواه .

وقد يُخيّل الى المجادل انه اذا كانت الغلبة لخصمه ، فقد زالت كرامته ، أو فقد التعزية الكبرى التي رافقته منذ طفولته، فكيف يعيش بدونها . لذلك تراه ، وإن أظهر استعداده لقبول حجة مناظره، قد تحفّز مُقدّماً لرفضها مهما قويت . وفي كل يوم ترى ملّة تستغرب معتقد ملّة أخرى ، حتى ليبلغ الاستغراب حد الإشفاق، فيقولون ما مؤداه : عجباً أليس بين هؤلاء الملايين من البشر ، المخالفين لنا في الدين، فئة من علماء حكماء يردعون سائرهم عن الضلالة؟

أترى تلك الرؤوس خلت من المنطق فانحدروا الى هذا الدرك من الجهل ، وصدّقوا بأساطير لا تجوز على الصبيان لو فكروا قليلاً !

هذا التساؤل ، أو ما جرى مجراه ، يتردد في خواطر الملايـــين من البشر فيكفـّر بعضهم بعضاً ، عن حسن نيّة .

وانه لا يقتصر على أبناء ملـّتين تباعدت بينهما العقائد ، بل يكون ذلك في الملـّة الواحدة اذا تعدّدت شيعها .

بعد هذه الكلمة العجلى في أساس الشعور الديني ، أراك يا حفيدي العزيز جدّ مقتنع بوجوب احترام عقيدة سواك ، لأنك إذ تحترم حريته تنظر اليــه باعتباره إنساناً أولاه الله عقلاً مسؤولاً . والعقل نور تحدّر من الملأ الأعلى ، وبه كان الإنسان إنساناً وهو أنفس ما في البشر ، ولا يساويه في الهبات السماوية إلا الحرية ، فلو وضعت المعادلات الرياضية العقـــل + الحرية = الانسان لأصبت الحقيقة في صميمها .

إن الله جل جلاله ، وهو الذي برأ الانسان من العدم ، لم يمسّ حريته فترك لآدم الاختيار ، ولو شاء لقيّده وعصمه من العصيان ، ولكنه لو قيّده لبطل ان يكون إنساناً فيه فلذة من النور العلوي ، فاذا كان الباري سبحانه قد خلق المرء حرّاً فمن هو ذلك المجرم الذي يسلب المرء حرية الفكر ؟

وأرجّح ان الذين يبالغون في إكراه سواهم على اتباع معتقدهم ، إنما يفعلون ذلك لضعف إيمانهم ، فان واحدهم يؤمن لظنه ان الكل يؤمنون ، فيستمدّ إيمانه من كثرة الرفاق ، لا من الوحي ولا من صميم وجدانه . ألا ان الشجاع يسير في الطريق وحده لأنه من نفسه على ثقة . أما الرعديد فيخاف الوحـــدة ويستقوي برفاق ولو كانوا قاصرين ، وكلما ازداد المتعنـّت في الإرهاق وخنق الحرية دلـّك على ازدياد الشك في قلبه ، لأن هذا الضرب من الجور على الآخرين هو أشبه شيء بالجلبة الموسيقية ، التي يحدثها الجنود ، حول المحكوم عليه بقطع الرأس على المقصلة ، فلا يُسمع صوت الاسترحام ولا الاشفاق ، وإنما الاضطهاد إخماد للشك والقلق في الصدور الشيطانية . كذلـك كان السفـّاحون يسترون

جبنهم بسفك الدماء . ولقد أجمع المؤرخون على ان نيرون كان أنـــذل الناس وأجزعهم فؤاداً .

ومن المضحك ان ترى الناس يعيرون الله عواطفهم ، ويتصوّرونه عديـــلا لهم ، فيلوّنون إرادته بالوان رغائبهم ، ويبتغون تسخير قدرته لإنفاذ غاياتهم ، ولو حقيرة . فمنهم الذين يتمنّون عليه أن يظهر لجميع البشر ، في آن واحد ، وبأعجوبة كبرى ، ولو مرة واحدة على رأس كل جيل . ومنهم العاتبون عليه لأنه لا يبيد كل طائفة تدين بغير دينهم ، إذ يعتبرونها معاديةً له ولهم ، بصفــة كونهم وحدهم حزب الله ، وسائر شعوب الأرض خصومــاً ألدّاء . إنهم هم الشعب المختار ، حقاً إن اليهود لأرباب الاحتكار فقد سخّروا الله لكل شيء . ارادوه قيّماً يمتـــار لهم الطعام ، وخازناً يوفّر لهم المـال ، وقائداً ينصرهم في الحرب ، فاذا أظفرهم باعدائهم أحرقوهم بالنار شيوخاً وأطفالاً ، يسلخون الرضعان عن أثداء الأمّهات ويتخذونهنّ سبايا .

ألا بِئْسَ المتديّن الذي يتمثل الله جلاّداً ، وهو الرحمن الرحيم، أو يودّه إلهاً لشعب او طائفة ، وهو رب العالمين .

الرجل الطيب :

بعد الذي تقدم أراك يا بنيّ سائلي عمّا أريد ان تكون ، أريدك مؤمناً بالله والإنسان ، وبخلود النفس والقيم العلى، وان تعلم ان المسيحية تستند الى ركنين لا ثالث لهما : الوداعة والمحبة . اما الوداعة فقد ولدت مع يسوع في المذود. وكل ما زاد على البساطة المسيحية الأولى فمن النوافل التي أضافها الزمان ، كما يزداد الطمي والطفيليات على ضفتي النهر بتمادي الايام ، ومن النوافل ما فُرض عليهــا فرضاً ، إذ لم يكن لها بد من محاربة الوثنية بمثل سلاحها ، زخرفاً وأبهّة وروعة مواسم . ولا يخفى ان العامّة تهتمّ للشكليات، بل هي تحصر كل همها في الشكليات



المؤلف يكتب (حكاية عمر) وحفيده فادي الى جانبه

والطقوس . ولربّ قائلٍ إنها قشور ، ولكن القشور نافعة لأنهـــا تقي اللحاء واللباب من لفح الهجير وزمهرير الشتاء. فاذا كانت الجماهير ، بعقليتها الصبيانية قد انصرفت عن الجوهر الى العرض ، فاستمسكت بالقشور وحدها ، فكن يا بني من النخبة التي وَكْدُها في الجوهر .

واما المحبة فلفظة مرادفة ليسوع ، وإن أحد المرادفين يقوم مقام الآخر ، فهو من أجلها ولد ومن أجلها مات . ولا بد ان يتطرق اليك الشك من سلوك بعض رجال الدين . ألا فاحذر ان تخلط بين النصّ والحاشية ، فرجال الدين بشر مثلنا ، يعتريهم الذي ينتابنا من ضعف ، ويشدّهم ما يشدّنا من قوة . لهم سجايانا ونقائصنا ، فمنهم الرجل الصالح القديس ، والعفيف البـــار ، ومنهم الشرير المرائي . بيد ان ابليس اللعين لا ينفكّ يصليهم حرباً عواناً، فإنه بمقاتلهم أدرى ، والى عَوارِهم[1] أهدى سبيلا . فتراه يصيد الاتقيـــاء منهم بأحبولة الكبرياء .

ولقد نجت منها (سيلين) رئيسة دير الكرمل في (Lisicux) فأبت انتشهد الحفلةالرائعة يوم أعلن الحبر الأعظم قداسة شقيقتها، لئلا يجرّبها الشيطان فيهمس في اذنها : تيهي دلالاً ايتها الرئيسة فان هذه الأبّهة، التي يتلهّف علىمثلها الملوك، مدارها تريزيا اختك التي كنت رئيستها بالأمس.

الكبرياء تلك هي الخطيئة التي أنزلت إبليس من السموات العلى الى دركات سقر. وهو عليم بأنه قلما يخطىء رماياه، إذ يُصميهم بأمضى الأسلحة وأخفاها ، فيزيّن لهم فضائلهم ، ويوهمهم انهم أكرم على الله من سائر البشر ، وأن أجورهم لا تنقضي ، فهم الوزراء الأعلون . تلك هي المحنة الكبرى ، وما ينجو منهـا

---

١ – العوار : العيب او الضعف .

سوى فئة قليلة يختصّهم الله برحمته ، فيعلمهم انهم عبيده وخدمته ، لا سفراء ولا وزراء .

وقد يعتريك العجب يا بُنيّ اذا انبأتك بأن أعدى أعداء الدين هو الطائفية، فكن على أكثر من اليقين بأن العصبية الجاهلة أشد خطراً على الدين من الزندقة ، بل من الإلحاد نفسه ، لأنها تتقنّع بحجاب المرأة الحَصَان ، أو بالحية تتقمص جلد الحنكليس[1] ، تغري الصيّادين الأغمار[2] فيخوضون دونها كل عباب ، فيُبدلون من اللحم الغريض سمّاً ناقعاً .

وما انفكّ البشر ، منذ فجر التاريخ الى يومهم هذا ، يتذابحون زاعمين انهم على اسم الله والدين يتقاتلون ، وإنما هم يتفانون من أجل الطائفية وحدها . فمن زعم غير ذلك صحّ فيه قول أحد الظرفاء « ألا بورك السفّاحون ، فلقد بلغوا أعلى مراتب المحبة ، فتجرّدوا من الأثَرة ، فأبوا دخول السماء وحدهم، فحاولوا إجبار سواهم على التوبة أحياءً ليشاركوهم في النعيم الأبدي . فلما تعذّر عليهم إدخالهم بالحسنى أبسلوهم ليدخلوهم السماء على رؤوس الأسنّة » وإن أدهى ما مُني به الشرق هو الطائفية التي كانت ، وما فتئت ، أرهب سلاح يعمد اليه المستعمرون ، لما يعلمون من وهن التديُّن وسلطان العصبية العمياء .

ومن الراجح ان في الانسان غرائز خفيّة مكبوتة تشعره بالقلق الدائم والجريمة الموصولة . ذلك العامل الخفيّ كان بالأمس البعيد ، سبباً في تقديم الضحايا البشرية للآلهة والأصنام ، تَقَادِمَ تكفير عن الخطايا من جهة ، واسترضاءً للمعبودات التي في يدها المصير من جهة ثانية . فلما ارتقت الشعوب البدائية بعض الرقي ، قصرت قرابينها على الثمار والبقول والحيوان . أما وان الغنم أطيب ذوات الأربع لحماً ، فقد اعتبر الكهّان وسَدَنة

---

[1] — ضرب من السمك معروف وعربيه : الجري . [2] — الأغمار مفردها الغمر وهو الذي لم يجرب الأمور .

الهياكل – ولهم في اللحم الدسم نصيب – أن أنفس الذبائح الكباش . فكانوا هم الذين ينحرونها على المرتفعات وينضّدون الشحم ، ثم يضرمون النار فيرتفع القتار زكيّ الشميم .

وما برح الانسان في حاجة الى كبش للمحرقة . وقد يكون الكبش عبداً رقيقاً ، أو دولة عزلاء ، أو أُمّة ضعيفة . ومما لا ريب فيه انه يكون طائفة تستعدي عليها طائفة أخرى باسم الله ، وليس في يدها من الله صك بالوكالة سوى السيف الذي نُقش على فرنده : الحق للقوة .

وأعجب من هذا كله ، ان المتّجرين بالطائفية هم إمّا رجال سياسة ليس لهم وازع من دين ، ولا زاجر من ضمير ، وإمّا قادة غوغاء رعاع شبُّوا على الإجرام ومنه تضلّعوا ، وإمّا منافقون دنيويُّون يجتلبون المنافع ولو مغموسة بالدماء ، فيدفعون أفراد القطيع الى مهاوي الهلكة .

وأذكر ان مجلساً جمعني – في أثناء فتنة سنة ١٩٥٨ – ببعض وجوه اللبنانيين ، فطفقت أسرد للحاضرين مساوىء الطائفية ، فنزل سوادهم على رأيي ، وشذّ واحدٌ ، مديد القامة ، جهير الصوت ، ثقيل الروح ، عكّر علينا مجلسنا صوته المنكر وجِدَالُه العقيم . وقد خيّل الى بعض السامعين انه شهيد أو بطل . وكنت أعلم أنه اذا وقعت الواقعة قضى صاحبنا جزعاً في فراشه . فسألت زوجته ، وقد زارتنا في اليوم التالي ، منذ كم لم يدخل زوجك الكنيسة ؟

فأجابت لم يدخلها منذ إكليلنا ، وقد مرّ على زواجنا خمس عشرة سنة .

ذاك هو المسيحي القديس الطاهر الذيل المتعصب للمسيح . وعلى غراره ، ومن الطراز نفسه المتعصبون لمحمد .

وأذكر انه لسنين خلت ، وفي بيروت المزعومة بلد الإشعاع ، تنازع الوجاهة زعيمان مسلم ومسيحي . وكانا قبل الخصام صديقين متحابّين ، فعمد كل من

المتنافسين الى استرضاء غوغاء طائفته ، فوزع أحدهما على أشياعه كمية من الرصاص لتطلق في الهواء،ابتهاجاً بعيد المولد النبوي .وكان الابتهاج (الرصاصي) عظيماً . ولم يكن أعجب منه إلاّ الاحتفاء بعيد الميلاد . فلقد وزع الوجيه المسيحي أكبر مقدار وصلت اليه يده من القذائف . ومما تجدر الإشارة اليه ان تسعين في المئة ، من المسلمين مطلقي الرصاص ، لم يدخلوا الجامع للصلاة ، وان مئة بالمئة من (الرصاصيين) المسيحيين لم يدخلوا الكنيسة .

فلله ما أسمى ذلك الضرب من العبادة،وما أندى تلك الصلوات (الرصاصية) على القلوب . لقد كان المسيح المولود في مذود حقير ليعلم الناس الوداعة ، في غنى عن تلك الأبهّة الإجرامية التي قام بها طائفيون تبرأ منهم المسيحية . ولقد كان طه في غنى عن (الرصاصيين) المؤمنين بالصلَف، وهو الغاية في الوداعة والخلق الكريم . فمما يؤثر عنه انه يوم فتح مكة جلس على الصفا يبايع الناس . وجاءه رجل فأخذته الرعدة فقال له هوّن عليك ، إنما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد . وكان يقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد ، وكان يأكل مع الخادم ، ويحمل بضاعته من السوق . وقد عاش عيشاً خشناً فكان يأكل خبز الشعير غير منخول . وكان ألين الناس عريكة ، مادعاه أحد من أصحابه إلا قال لبيك ، يخالطهم ويحادثهم ويمازح صبيانهم . ويجيب دعوة العبد والحرّ والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة . وكان أجود من الريح المرسلة . وقال يوماً لأصحابه وقد اضطرّوه الى شجرة فخطفت رداءه اعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم . وفي رواية : « لو ان لي مثل جبال تهامة ذهباً لقسمته بينكم » .

الدين الثاني

لقد حدثتك يا بني لماماً عن الدين الأول وها أنا محدثك عن الدين الثاني، عن وطنك لبنان . ألا فاعلم ان الشمس لم تشرق على أجمل منه جبالاً ومناخاًوطيب

هواء ، واعتدال فصول ، واني لأوثر ان اكلمك عن جبل الشعراء بلغة الشعر ، فأختار قليلاً من كثير مما نظمت في محاسن هذا البلد .

فمن قصيدة عنوانها لبنان :

جاورَ الأنجمَ واحتلَّ السحابا   جبَلٌ مهَّد للفردوس بابا
تستحمُّ الشمسُ في مفرقه   وإذا غابت فقسراً واغترابا
ضحك العنقود في أكنافه   وزها التفّاح والكوثر ذابا
ساجعاتُ الطير غنّتهُ الهوى   فرواها الدوح شجواً وعتابا
واستبان الفجرُ في آكامه   أشقرَ الأذيال مخضلاً إهابا
تقطر الأنداء من جبهته   عبقَتْ آساً وشيحاً وملابا

• • •

بلدٌ من فجرهِ وهجُ الضحى   ورياضُ الخلد ظلاًّ وشرابا
يَسِمُ الأبصار بالحسن فلا   يجهلُ الطرفُ الذي لبنان جابا
يمسحُ الأجفان من لألائه   مثلما تلمح في العرس الخضابا
لا تسَلْ عن حسنه من رادَه   إن تشأ تنظرْ بعينيه الجوابا
بهجةٌ تشهدُ في سيمائه   وأناشيداً وأسراراً عجابا
كالمصلّي عاد من معبدهِ   طرح الأوزار عنه وأنابا

• • •

جبلَ العُصْم القوافي والنهى   شاءك الباري صروداً وعِقابا
مطمحَ الأنسُرِ ، والأنسُرُ ما   تبتغي أوكارها إلاّ صعابا

كلُّ ذي شأوٍ بعيدٌ هَمُّهُ | في ثنايا هَمّه يلقى الثوابا
شيمةُ الرئبالِ ألاّ يرتضي | صيده سهلاً فيرديه اغتصابا
يستطيب السّامقَ الأقصى مدى | ولفيفَ الأرز والشربين غابا

• • •

ملعبَ الاحلام آساً وندًى | وكروماً تُفعم الوادي هضابا
في ضلوع الدّنّ منها مُزّةٌ | أزبدت كالمِ صخّاباً عبابا
تسطع الأكواب من رقتها | حين تزهو في حناياها حبابا
ما تُرى عدْناً وما تُفّاحها ؟ | غرّت المرأةُ أم آدمُ تابا
بزغ الفردوسُ من هذي الربى | إذ دعاه الحسنُ والباري استجابا
بين لبنان وعرش الله لم | يضرب الخالقُ للناجي حجابا
هو أدنى الأرض من رحمته | هو دون القاب أو يعدِلُ قابا

• • •

يا قرى لبنان عبر المنحنى | مزّقت عن وجنة الليل النقابا
تخفق الأنوار فيه مثلما | يخفق العاشق شوقاً واضطرابا
رَقِيتْ في سلّم الجو الى | ربوات الخلد تحدوها ركابا
موئل العقبان إن عزّ الحمى | واستشاط السيف واجتاح الرقابا
يوم خضنا الحربَ آساد الشرى | والبغاةُ التركُ خاضوها ذئابا
عهدَ فخر الدين والدنيا دمٌ | والحسامُ الطلقُ لم يألف قرابا
سلْ ضياء الشمس في رفعته | عن أبي سعدى وسل فيه الشهابا

لم ترَ الأعينُ ليثاً خادراً كأبي سعدى ولا ظفراً ونابا
بين علياء العوالي والظُّبى لو رآه الموت غضباناً لهَابا

ومن قصيدة (حصن الضاد) :

لبنان حِصنُ الضادِ صائنُ عِزّها كالليث يمنع في النوائب غيلا
من بيض عَلياء المآذن َنوّرتْ ومن الكنائس أُطلقت ترتيلا
لبنان شَرْعُ الحب شرعك منذ ما وَعَتِ الحضَارةُ للخليل خليلا
بَسطَ الجمال عليك فيض بهائه فتألّق الصخرُ الأصمّ جميلا
فَلَمحْتَ رِضواناً بكل خميلةٍ ووراء كلّ غمامةٍ جبريلا
وشمَخْتَ مئنافاً،وُجدْتَ سماحةً ونَعِمتَ أظلالاً ، ولِنْتَ مقيلا
من أمّ لبناناً يخال عِقَابه مُهّدنَ من دَعة القلوب ، سهولا
في كل دَسْكَرةٍ له بيت فما يُسمى بلبنان النزيلُ َنزيلا
رَحُبَتْ مَدارِجُه فمن ينزل به يجد الجمال الى الجمال دليلا

ومن قصيدة (أرز لبنان) :

حيث للنجم نهلةٌ في العشايا من رياحين أرزه ولُبانه
وَلِتلك الغيوم ، في السَحَر الهادي ، بياضُ الفراءِ من قطعانه
نُتَفٌ في الصرود منتثراتٌ كانتثار الدِمَقس ِمن ِحملانه
ويحطُّ الغمامُ آناً على السفح ، وآناً في التلّ أو سندیانه
بين عينٍ تقطّر الماءَ لحناً كشجيّ الغناء من رعيانه

وعصافيرَ في الصــداح تحاكي نغمات البَكور من حجلانه

حينَ َغمْر الضباب، في غور قاديشا ، خِضَمٌ يشتدُّ في طغيانه

يَتَعالى مع الصباح ، فعينُ الشمس َغيْرَى تجوس في شطآنه

زَادَهـا فتنــةً وزادته حسناً أين وهْجُ الإبريز من لمعانه

فكأنَّ الشعاعَ منها لعرس الأرز ، تاج يمدُّ من عنفوانه

باركته يَدُ العَـليّ فأجرته عبيراً يضوع في أفنانــه

يحضن الغصن باللآلي رطاباً ذائبـاتٍ من وجــده وحنانه

ويسرني ان أختار في هذا المقام قصيدة برمتها هي قصيدتي في رثاء شاعر الأرز شبلي ملاط . فلقد كان صديقي شبلي رحمه الله واحداً من اولئك اللبنانيين الخلّص الذين اندمجوا بلبنان أيَّ اندماج فالحديث عنهم حديث عنه . لذلك رفعت قصيدتي في الملاّط عن مستوى شعر المناسبات، لتكون حجة قاطعة على فساد زعم القائلين بأنه لا قيمة لهذا الضرب من الأدب . وقد تناسوا ان المتنبي لم يخلد بسوى هذا النوع من البيان ، واليك يا بني قصيدتي في شاعر الأرز :

يا شاعرَ الجيْلِ الوَفيِّ الخالي الأرزُ من أنفاس شعرك حـالِ

غنَّيْتهُ فتخايلت أغصـانهُ مثل العروس تجرُّ عِطْفَ دلال

وَجدُ الأباة الصِيدِ من أبنائه كَـفِلَ البقاءَ له على الأجيـال

...

يا حـاملا لبنانَ في أحنائه نهراً وأوداءً ونخُضر تــلال

أيقظتَ غابِرَه السنيَّ فأشرقت من بُرْدتَيـك أواخرٌ وأوالي

فإذا (بعبدا) في مُطَلٍّ شبابها … وإذا (ببيت الدين) دارُ جلال

دارٌ جناحُ النسر في أرجائها … آناً وآناً لبدةُ الرئبال

ذكرى ابي سعدى ! فأيّة كنيةٍ … هدّارة في السمع كالشلاّل

ما انفكّ ينتظمُ السنين دويّها … ويمدُّ جدّتها الى الأنسال

فيُرى الأميرُ على رحابة أفقه … جَهْماً كأنَّ النفس في الأقفال

وكأنَّ لحيَته لهيبُ شعيلةٍ … رَفَعَتْ ذؤابتُها حنيَّ سبال

من فوقها شفتان تنفرجان في … يوم الندى والعدل والآجال

تعلوهما عينان كالوهج الذي … يُبدي مَغابِنَ عتمةٍ وظلال

تَجِفُ القلوبُ مهولةً من هيْبةٍ … ولو انّها مشدودة بحبال

في ساحِه تجري الخيول سوابقاً … إما تُعَدُّ لغارةٍ وصيال

الأعوجيّات المذاكي ضُمّراً … تُنمى لمرْبع تغلبٍ وهلال

فاذا الجيادُ تحسّستْ وجه الرضا … زفت زفيفَ الصقر بالخيّال

واذا الأميرُ تغضّنتْ سيماؤه … جمدت قوائمُها بدون شِكال

شبلي ! وقد ناديتُ تيّاه الخطى … لبراعة بكر وفتح أعالي

بفصاحةٍ عدنانُ مَنبِتُ آيها … وبديهةٍ كالغيدق الهطّال

الناثر الكلِم البديع زمرّداً … والناظم الخطرات سِمْط لآلي

فكأنها من رونقٍ وأصالةٍ … سِفْرٌ لتكوين ، ومَولدُ بال

• • •

يا والجا كنف النعيم اهنأ به … بيتاً قوائمه على الآزال

صُفّت أرائِكه لأقطاب النهى — وبكلّ عينٍ ومضةٌ اسُوآل

هم سائلوك عن النبوغ فقل لهم — وطنُ الكواكب والقصيد جبالي

لبنان لم يحلم بمثل جباله — فنٌ ، ولا سَمتِ الرؤى لمثال

أغنى الوجودَ وجودُه فكأنه — في مستَهلّ الدهر مهدُ جمال

بلَدُ السلام رسالةٌ ومحبّةٌ — ورَحى اللهيف اذا جفاهُ الوالي

واسودّتِ الدنيا فلم يضحك سوى — قِمَمٍ على النظر الُمريب طوال

وطني محطّ النسر هامُ قِنَانه — وسفوحُه وقفٌ على الأشبال

نَبَتَ الفخارُ هنا فكل ثنيّةٍ — قدسٌ لأمجادٍ ، ورِسفرُ تعالي

فيها لفخر الدين أمسٌ مفعمٌ — يروي شموخَ بَواترٍ وعوال

إذ عينُ صوفرَ تستحمُّ بِعثيَرٍ — ويميدُ راسيها من التَصهال

يا يوم عنجرَ والدروز أشاوسٌ — كبُرت عزيمتهم على الأغلال

كرّت على رَهَج القتال جيادُهم — والأرضُ دونهم الجحيم الصالي

السهلُ عَبٌ دماءهم فكرُومُه — وَرِثَتْ سماحتها عن الأبطال

• • •

قومي حُماة الضاد بعد هَوانها — ورسوفها بالذلّ والأسمال

نسجوا لزينتها الربيع مطارفاً — فجرت على الأقلام نشرَ غوال

بقصائدٍ هُنّ الحسان روائعاً — وَضّاحةَ القسَمات والسربال

دارت مَدارَ الشمس إلا انها — لم تُرْتَهَنْ بِتكَسُّفٍ وزوال

• • •

شبلي سيجمعك النعيم (بِتَامرٍ)[1] … أخوين في الأمَد الأغرّ العـالي

لله شعر أخيـك ملعبَ عَبقرٍ … وشروقَ إلهـام وَفيْحَ مجـال

الجاهليُّ الحبك دون عباءةٍ … والملحميُّ النهج دون عقـال

يرتاد أثباجَ العبـاب طموحُه … وتصدُّ همتــه عن الأوشال

وهَجُ الوغى تبيانه وكأنمـا … قـد خطّه بالأسمر العسّال

ويرى القريضَ تحية من عـالم … يختال بـين حقيقة وخيال

تتجنّح الأرواح في نفحـاته … ويحفـّها ملأٌ من الإجـلال

هو نشوة الوجدان في إبداعـه … وأشعّةٌ من سره المتعـالي

وتخـاله الأوهـام نجوى ناسكٍ … لَهِـجٍ بمثل براءة الأطفـال

أندى على الأسماع من بوح الهوى … وظلالـهُ وحـلاوة الآمال

ولقد يهبُّ هبوب ريـح بارحٍ … فمعالم الوجدان وَمْضَةُ آل

الشعرُ مذ خلجت بصدر خفقةٌ … فأحبَّ هيانٌ وأبغض قـالِ

غنّـاه داودُ ورتّلـه ابنُـهُ … فتألّقَ المزمورُ في الأمثال

ولربمـا الورقـاء في تطريبهـا … هتفت بمثل الشعر في الأزجـال

. . .

[1] – هو المرحوم تامر المـلاط شقيق شبلي ، كبير شعراء زمانه وقد اشتهر على الاخص بقصيدته مصرع النمر .

يا تامرَ الخلاّقَ أنشدت العلى فسلكت شِبهَ السحر في الأقوال

يا ربَّ نمرٍ في قصيدك ماثلٍ يُدلي بهامته من الأدغال

متحفزٍ عبْلِ الترائب هيكلٍ ماضي الأظافر مشرفٍ مذيال

يبدي نيوباً كالمنون بشاعةً ويُحِدُّ باصرتين كالمشعال

ضجّت به الفلوات أرقطَ سلهباً يفري الثرى بالمخلب الختّال

يودي بضارية السباع زئيرُهُ فتراه يفرسها بدون قتال

أسرى اليك مزمجراً في عتمة حشدت بظلمتها ألوف ليال

دلّتك عيناه على أوداجه وبَريقُ حدّ حسامك الفصال

تلك الوقيعة فذّة أوهامها ولو انها نُسجتْ من الأهوال

• • •

شبلي ستذكرك القوافي كلما لجَّ الهوى بالمنبر المختال

رنّحته جيلاً وفي أعواده لُبٌّ لعهد الغابرين مُوال

شبلي صفيّ الأكرمين شمائلاً والسابقين حجىً وطيب خصال

أعلامَ لبنان وَصِيْدَ رجاله كنتم ، فأيُّ عُلىً وأيُّ رجال

أبطالَ إيمانٍ ، أباةَ مذلّةٍ قِمَم الجبال تشدُّ حَيْلَ جبال

بعد هذا أراني في غني يا حفيدي العزيز عن حضّك على عبادة وطنك بعد الله ، فان المرء يُستَحَثّ على تحمّل المكروه ، لا على المحبوب طبعاً فلن تجد نظاماً يجبر المرء على تناول الغذاء ، وتعاطي الغرام والذياد عن الحياة .

وبحسبك ان تعلم ان المسيح أحب وطنه فبكى على أورشليم . وأن طه قال يوم هجر مكة : « أللّهم لقد أخرجونا من أحب البقاع الينا فانزلنا أحب البقاع اليك » .

المستقبل المنتظر

أُرَجّحُ يا بُنيّ انك ستقرأ كتابي ، وانت ما برحتَ عَزِباً ، غضّ الشباب لمّاح العافية ، وسيم الطلعة مشرقها ، يتنازعك ميل الى الدرس ، في سبيل مستقبل راقٍ وجنوح الى الهوى والصبابة . وإني لأربأ بنفسي عن العظات (البيزنطية) فآمرك أو أنصح لك بالتبتّل والإعراض عن لهو الشباب، فأبدو في رأيك قصير النظر جاهلاً بنوازع الطبع البشري . وجل ما أقوله لك: إحفظ توازنك وميزانيتك . أما حفظ التوازن فدفعاً لِرَجحان كِفّة الهوى على كفّة الجدّ . فلا يسمح الله ان يستخفّك الطيش فتكون الغلبة لهواك على عقلك، فتتقطّع بك أسباب الأمل وتقف يائساً في منتصف الطريق ، فيكتب عليك الفشل في كل حياتك . فلا تكاد تفلت من خيبة حتى تقع في أدهى منها . وتنظر الى أترابك وقد سبقوا وتخلّفت ، وافلحوا وخزِيت ، فتذوب ندماً بعد فوات الأوان . ولا يُغني من الاجتهاد والقيمة الحق، انتماء الى اسرة ، او مباهاة بنسب . فان الانسان ما هو ، لا ما كان آباؤه . لقد زعم نفر من المفكرين ان الانسان يصنع التاريخ ، وانهم لعلى صواب ، وحريٌّ بمن يصنع التاريخ أن يصنع نفسه ، لأن الانسان هو التاريخ ، ومقياس كل شيء وهو سيد الكون بصفة كونه قبساً من النور الإلهي .

اما ميزانيتك فهي الطاقة الجسدية التي أعطيت لعمر طويل ، فاحذر

الإسراف ولا تكن في إنفاقها عجولاً ، لئلا تفلس وانت أحوج ما تكون الى العافية ، ذلك الكنز الذي لا يساويه في الأعلاق والنفائس شيء .

جاء في أمثال العامة : ادّخر القرش الأبيض لليوم الأسود . ولعل هذه الحكمة يهودية المنبت، ولا ضير عليك أن تنهج نهج اليهود في الاقتصاد بصحتك. ولا يعادل هذه الحكمة في ميزان المشورة الصالحة إلا قول القائل :

أوّاه لو عرف الشباب وآه لو قدر المشيب

والمراد بهذا البيت ان الشباب تعوزه المعرفة ، وأن الشيخوخة تعرف ولا تقدر على الرجوع القهقرى ، لتسلك درب الحياة من جديد . فأفِدْ يا بُنيّ من معرفة جدٍّ بَلا الحياة أيّ بلاء ، ونالت منه عوادي الزمن حتى لم تدع فيه مُطّلاً على وهم ، ومنزلقاً الى غواية ، ولو انه بشر غير معصوم يتعثّر بهفوةٍ بعد أخرى .

أما في الزواج فاعلم اني صنّفت النساء ثلاثة أصناف. فمنهن الأنثى، والمرأة، والسيدة . فاختر لك سيدة مليحة ذكية الفؤاد ، فالمليحة جامعة بين المنظر البهيج والظرف . وإنما الحسن مجرداً من خفة الروح يشبه تمثال موسى ، رائعة ميكالانج ، تراه بادي الرواء ولكنه صنم . ولأن اللبيبة ، الجديرة بهذا النعت ، تملأ حياة زوجها وتشتمل على الفضائل الأنثوية جميعاً . وإنما أعني بالذكاء حدة الفهم وبعد النظر ، لا الحساسية المرهفة ، فبين هذه والعُصاب الخطير أقلّ من شبر . واعلم انها ستربّي اولادك ، فاعرف من تنتدب لهذه المهمة الجسيمة .

ولعل الزواج التاعس ، في معظم الأحايين، مبعثه الخلط بين الشهوة والحب. وزعم السطحيون ان الحب أعمى ، وإنما هو المستنير المبصر ، أساسه التقدير والاعجاب والاحترام المتبادل ، اي انه صداقة غرامية تنتهي بالزواج .



المؤلف يكتب وحفيده محدّق الى المخطوط

أمّا العَمَه[1] فمصدره الشهوة المنطلقة من النزوة الجنسية ، لا تلبث ان تخمد جذوتها ، في أقصر من عمر الورد . وبعد انطفائهـا تستعر الجحيم في البيت ، فتحتدم نارها حيناً ويكون من الزفير والدخان ما يزكم أنوف الجيران، ويطلق ألسنتهم بالصدق حيناً وبالإفك أحياناً . وقد تبقى الجمار تحت الرماد ، وتوصَد الأبواب والكوى فلا ينفذ الدخان ، حينئذ يصبح البيت نظير المفحمة المغطّاة بالتراب ، ودونها الوقود يحترق بطيئاً ويصبح فحماً .

واني لآمرك يا بني أن تستشير أبويك في شأن زواجك فليس أنصح لك منهما، فهما اللذان يحبّانك حبّاً محضاً . فلا تستبد برأيك ، ولا تقطع من دونهما أمراً ، متّكلاً على خبرتك وطول عشرتك لصاحبتك ، فإن عيون الوالدين أنفذ من أشعّة (رانتجن) . بلى انهما يريان في ساعة مـا لا تراه انت في سنة ، لأن المتحابّين إذ يلتقيان يتكلفان ما ليس من شيمتهما، فلا يُظهران إلا السجايا الغرّ . ويأتي الخيال طائراً على جناح الشهوة فيرى المعايب نفسها خلالاً محمودة، ومحاسن لا تحصى . المتحابّان تستيقظ فيهما جميع المشاعر ما عدا حاسة النقد، وأنّى لها أن تصحو وقد غلّفها السحر من كل جانب، كما اكتنف التحريم خمرة ابي نواس، وقد أقسم ألاّ يشربها ما لم تكن مشتراة بثمن خنزير مسروق . واستشر أبويك في المهنة التي تختارها لمعاشك ، فلن يقاوما استعدادك الطبيعي .

وأرجو ألاّ تكون مثلي ضعيفاً في الرياضيات ، ولا نظير سواد اللبنانيين مشغوفاً بالوظيفة ، فاذا اضطررت اليها فكن موظفاً نزِهاً يحاسب ضميره ، قبل منامه، على أعمال نهاره، ولا تأبه لتعظيم الناس لشأنك بقدر اهتمامك لاحترامك نفسك . ولا يَغُرّنك ماترى من تزلّف الناس اليك، فمعظمهم روّاغون مداهنون يرجّون منك جلب منفعة او درءَ مضرة، فاذا نزَلَتْ بك نازلة انفرجوا عنك، وربما كانوا أول الشامتين .

---

١ – العَمَه : التردد في الضلال .

ولا تـُقِمْ أيّ وزن للصداقات العابرة، فاذا أحصيت ألف صديق فثق انه، يوم ضيقك، سيتخلـّف عن إنجادك تسع مئة وخمسة وتسعون ويداخلني بعض الشك – قاتل الله الشيطان الخنـّاس الذي يوسوس في صدور الناس – في الخمسة الباقين. وها أنا مورد لك بعض الوقائع لئلا تتهمني بالمبالغة في التشاؤم، أنا المنفتح الذي ابتسم للموت غير مرة على أسرّة المستشفيات، ولكن الألم الجسماني، على مرارته وشدته، لم يكسر قلبي بقدر ما أدماه تنكـّر الأصدقاء الذين عنيتهم بقصيدتي (ألم) حيث قلت :

صَحْبي، وَهَل في الصَحب إلاّ قِلـّة ٌ
حفظـَت عـلى دُهْم الخطوب ولائي

أمـّا الذين حسبتُ وُدَّهَمُ مُنىً	للقلب في السرّاء والضرّاء
فتكشّفوا عن غادرين، رِدَاؤهم	مكرٌ وَلـُحْمَتهُ نسيج رياء
لطخوا الصَداقـَة في الجبين فويحهم	من وَصْم ذات العـِفة العذراء
لولا بقيـّةُ ذاكرين لأصْبَحتْ	في الأرض أختَ الغول والعنقاء
قد كنت أفديهم بأهـلي جملة ً	وبمهجتي لو كان يوم فداء
فإذا بهم، والخطبُ حلّ بساحتي	لا يذكرون على الزمان وفائي
غاضَ الوفاءُ من الصدور فـَظِلـُّه	في الناس، ظلُّ الجود في البخلاء
أمعنتُ في الإخلاص حتى مَلـّني	ورجعتُ والأملُ المهيض جزائي

ولعل أصدق صورة لاولئك (النبلاء) ما نعتهم به نسيبي العصاميّ الوفي انطون سلامه، في خطاب ألقاه في المأدبة السخية التي أقامها لنخبة من عائلة

سلامه بمناسبة شفائي ، وكان في طليعة المدعوين سعيد عقل[1] ، وفي معرض الخطاب شكره انطون على استمراره في الوفاء لي ، وعرّض بالاصحاب السطحيين فأسماهم (البطرسيين) الذين ينكرون صاحبهم ألف مرة قبل صياح الديك . وفي طليعة اولئك الأحبّة شاعر مخضوضر القلم ، معشوشب الحديث انيقه ، عريق في لبنانيته ، وجيه في بني قومه ، كنت أعادي من عاداه ، وأوالي من والاه ، اسمه على شفتي في كل نادٍ حافل بذؤابات البيان ، وصيته في خاطري كلما استقطب الإخلاص هدفاً. وربما كان ذنبي اليه غلوّي في الصداقة، واعترف اليوم ان الغلوّ سيىء المغبّة ، وان لم اكن مشايعاً للطغرائي حيث يقول :

فحاذر الناس واصحبهم على دخل

فليس الحذر من شيمتي ، ولو لُدغت من جحر واحد أكثر من مرتين ، وأنا أومن بالصداقة ، ولو لم يبق من الألف سوى واحد .

ومن تلك النخبة الطيبة ، صديق طبيب ، في طرابلس ، كان ألزم لي من ظلّي في سنوات ثلاث ، مرّت كالحلم في ميعة الصبا ، وكان يدعوني الى مائدته السخية ، ويعتزّ بصداقتي ، وأنشرح لمعاشرته ، فلما خبا مِشْعَلي ، وألجأني المرض إلى سرير في زاوية ، ورفعه الحظ إلى أريكة النيابة كتبت اليه مهنئاً فلم يشرفني بجواب .

وهذا واحد في زحلة ، وهو ثالثة الأثافيّ ، وخاتمة الذين اخترتهم نماذج في الإخلاص ، وهو محامٍ عرف بوفرة الذكاء ، وقلة الوفاء ، واغتنام الفرصة السانحة ، والإنفاق في الوجوه التي تجدي،والإمساك حيث لا أمل بديئة وطفاء،

---

١ – لا يخفى ان آل عقل في المتين وزحله هم فرع من عائلة سلامه .

يجتذب اليه كبار الموظفين بلطف عشرته ، فيؤمّه أصحاب الحاجة ، فاذا انقضت المهمة ، أو هوَت الكرسيّ بالموظف ، تولـّى صاحبنا حتى لا ترى له وجهاً ،فإذا فاجأته لقيت وجهاً غريباً. ولم يكن ذلك الصديق ليطيق فراقي اسبوعاً واحداً يوم كنت في زحلة قاضياً . وألهمه الله الصبر على هجري شهوراً وأعواماً لمّا ادلهمّ أفقي وانقطع الأمل بشفائي. فلما جئت زحلة، سنة ١٩٥٨ طلباً للنقاهة توارى عني ذلك الوجه الأنيس، وتحاميته أنا، لا إشفاقاً عليه من صدمة الخجل، بل حذراً على نفسي ، لأن من يصطدم بجرم صلب يُلقِ بنفسه الى التهلكة .

ولو شئت لأطلت في تعداد النماذج ، ولكن قطرة من البحر الأجاج تحدّث عمّا في البحر كله .

ولكنت أعذر أولئك الأصحاب الوهميين ، في انقطاعهم عني ، لو كنت ندّاباً متفجعاً ، أو كثير الشكاية متوجّعاً ، أو طامعاً مستنجداً ، وهم يعلمون انه لا يسبقني الى التضحية باذل ، ولا الى الأنفة أبيّ ، بيد أن هنـاك نفراً من صحبي أطالوا الغيبة فأخذهم الحياء ، فصدفوا عن عيادتي ، وأنا بشعورهم عليم ، ولكن النماذج الثلاثة ليست منهم .

وأعترف اني كنت غبيّاً في اختيار أصدقائي ، وان القلـّة التي جبرت خاطري الكسير في أثناء آلامي، وبعد نهوضي من فراش الألم، هم الذين لم أعرفهم في عهد الشباب والعافية ، وسوادهم غرباء الدار والملـّة ، فلقد أصاب القائل : رب أخ لك لم تلده أمك .

فربّ علويّ او مرّاكشي او سعوديّ كان أدنى إليّ من أنسبائي لحماً ، فقدرني فوق ما قدروني ، وأحسّ إذ تبلـّدوا ، ونهَدَ حيث تخلـّفوا ، فعرفني على بعد المزار ، معرفته بأبيه ، وجهلوني جهلهم بأنفسهم . أليس الذي يدني صفحة الكتاب من عينيه حتى يلصقها بأنفه لا تستبين له سطورها .

كان ذاك هو شأني مع الأدنين رحماً وموطناً . وبعد فاني لست شيئاً مذكوراً ، بل أكاد أكون عدماً بجانب الألى نجفاهم ذووهم وجيرانهم ثم الأقرب فالأقرب. يسوع ملك الرحمة الذي شفى عميانهم فأبصروا ، وأبرأ برصهم فطهروا ، وأقام الزمنى والمرضى فهبّوا الى الحياة نشاطاً ، جاء الناصرة فازدروه ، وائتمروا به فقادوه الى جرف هارٍ ليوقعوا به فتوارى عنهم . ومحمد الذي بدأ رسالته بقريش ، فكانت قريش ألدّ اعدائه وفي طليعتهم عمه أبولهب وابن عمه أبو سفيان ، رئيس الأحلاف ، وفي هذا المعنى قلت في ملحمة عيد الرياض :

رُبَّ نَبعٍ ينِدُّ عنه ذووه	ويبيتون والشِفاه ظِماء
حسدٌ يغمر القلوبَ فتَعمى	وتلظّى وقُربُها السقاءُ
كم عظيم ثوى ، ولولاه لم يَشرُفْ نسيبٌ ، وَلا زَكا نبلاء	
يَتَهاجَوْنَ باسمه وهو حيٌّ	واليه بعد الممات انتماء
أهلُه الأبعدون أهلا وداراً	ومزاراً فأهلُه الغرباء
فاهجرِ الأهل يا محمد وانزل	بلداً انت فخره والسناء
ضِفْتَهُ برهةً من الدهر فيها	خيره السمحُ والعلى والرخاء
يأخذ المُصلِحُ العظيم يسيراً	وعلى قَدْرِ نفسه الإيفاء
نهلةُ البحر ما تدُرُّ السواقي	وبه عن سَخَائِها استغناء
ويردّ الرُبا ففي كل صَقْعٍ	من جَدَاهُ سحابةٌ وطفاء
الفيافي من جوده مخصباتٌ	والمفازاتُ دولة خضراء

ولا تحسبنّ تعريضي بفئة من الأهل والجيران من قبيل التعميم ، فلقد كان منهم الأدواح السوامق التي قصّر الحسد عن ان يطول هامها ، فلم يرقَ اليها غبار التوافه القروية التي تشوّه محاسن القرية في معظم أنحاء الدنيا عامة ، وفي لبنان خاصة .

القريـة

أراني في هذا المكان من السياق مضطراً لإطالة الوقفة على القرية ، لـعَلـّي أمحو من الأذهان ما اعتلق بها من ضلالة رافقتني جيلاً ، وما برحت راسخة في أذهان العامّة ، ومؤداها إيثار القرى على المدن والقصبات.

وأرجّح ان هذا الإيثار كان له ما يُسوّغه في حقبة من الدهر ، ومردّه الى اسباب وجيهة منها — وهو أهمها — كرم القرويين ونـُبل ضيافتهم ، أيسروا أم أملقوا — عدا المبتلين منهم بمرض الشحّ — فلقد كان الوافد عليهم ينزل منهم على مائدة دسمة وخمر صفـاء ، سواء مُدّ السماط على مصطبة متواضعة حاطهـا المردقوش والسوسن والحبق ، وحنا عليها الفرصاد أحمر قانيـاً ، الى جانب الأزدرخت قاتماً أخضر ، أم بُسط الخوان على شرفة متمادية ذات رواشن ، تهدّلت عليها العناقيد والصفصاف الباكي ، أو أظلـّها الصنوبر بأشباح أجيال طواها في قشره ولبابه ، فشاعت في أماليده صمغاً زكياً . ولم يكن أبهى من تلك الضيافة سوى بشاشة المضيف ، وانبساط أهل البيت ، فتراهم في أُنسهم بالنزيل ، وتنافسهم في إكرامه ، نِشاطاً خفافاً ، فتحسبهم في عرس حميم .

ولئن كان ثمة غلوّ في زعم الأقدمين ، من أن الكرم يُغطـي كل عيب ، فمما لا شك فيه انه يغطي كثيراً من العيوب . ومن أسبـاب تفضيل الريف هِمّة القرويين المشكورة إنِ استـُنفِروا لنجدة،فخاست عند سواهم الهمم وافتقدت المروءات اربابها .

في ذلك الزمان ، وقبل ان يفسدهم زائف المدنية كانوا أسرع من الفهود الى إخماد حريق ، أو صدّ طوفان ، وما شاكل ذلك من إغاثة ملهوف ، أو دفع ضيم ، يتعاونون ولا اشتراكية ، ويُضحّون ولا مَنّ . يُتربون سطح الفقير في ليلة واحدة ، إذ يتنادى شبابهم وصباياهم الى التتريب ، سواء كانت الليلة زهراء دانية الكوكب أم كانت دهماء يخفق فيها السراج ويرتعش المصباح ، فتكاد تعتلق بزجاجته فحمة الدجى لفرط كثافته .

ولا يساوي القناديل في صَدْع الظلام الضرير إلاّ صياح العمال والعاملات، يتبارون في النخوة بين صلصلة المعاول ، وحفيف المكاتل[1] ، وطنين المساحي[2] والرفوش ، وما ينفك يندى الثرى بكل جبين أشمّ ، وساعد جديل ، حتى يستبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وينقلب المناجيد الى مضاجعهم وقد اكتمل البيت .

وبمثل هذه الحميّة كانوا يجرفون الثلج عن البيوت والمعابر والسابلة، وينقذون الراعي والقطيع من أثباج الساقية الهادرة في أَمَاسِيّ الشتاء، وقد طَمّ السيل واجترف صغار الشجر بأصولها ، وما كان من الجنادل قَلِقاً في المنحدر .

وفي ذلك الزمان كانت الأخلاقيات مصونةً بالتديُّن ، ولا يردّ على هذا بأن كل جيل يدعي الرفعة على الجيل التالي ، وان الشيوخ والكهول ينقمون على أبنائهم ، الذين ولدوا لزمان غير زمانهم ، أحداثاً كانوا يأتونها ، فلقد كان اولئك الرصناء المترمّتون شباباً . ولقد رافقت الخطيئة ، أو التجربة كلّ ذي جسد إلاّ من عصم الله . ولكن لا يخفى على متأمل ان البشر كلما تقدموا في الزمان تحلّلوا من الإيمان وأمعنوا في اجتراح المحرمات جرياً مع المادية . الا وإن موجة

---

١ – المكاتل : زنابيل من خوص .
٢ – المساحي : مفردها المسحاة ، وهي ما يسحى به اي المجرفة .

الإباحيّة التي شملت الغرب تكسّرَتْ على سِيْفِ الأبيض المتوسط ، وبلغ رشاشها السهل والجبل . ولتجدنّ الريفيين على قلة حيلتهم ، أوفر من سكان المدينة (رياءً) وأكذَبَ قِيلاً . ولقد صحّ عندي – ولكل قاعدة شواذها – انه كلما صغرت القرية كبر شر أهلها . ولعلّ أول ما نستبين من معايبها التباغض . وقد يكون بارزاً اذا حماه باسم السياسة زعيم . ولكنه يكون في الغالب ضميراً مستتراً وراء المجاملة السطحية ، ويكون الباعث على التباغض الحسد . ولو قُدِّرَ لنظرة الجار الناقم أن تظهر فتصيب مقتلاً ، لكانت الصاعقة دونها فتكاً وهولاً .

واتّقاء لهذا الداء المجتمعي جاءت الأحاديث الصحـاح متواترة في التوصية بالجار ، والحدب عليه ، ونجدته في الملمّات . ولا يخفى ان الأسطورة العاميّة المعروفة بإصابة العين مبعثها الحسد ، الذي عَبَّر عنـه الفيلسوف (هوبس) بالذؤوبة فالتقى الشاعر العربي حيث يقول :

بكى الذئبُ فاستأنست بالذئب إذ عوى

وَصوّت إنسان فكدت أطير

ومن معايب القرية : النميمة ، وهي بنت الحسد أو شقيقته الكبرى ، والنساء بها أكلف من الرجال ، وكأنهن إذ تنطلق ألسنتهن بالفِرَى يَتَفرّجنَ من كَرْب دفين ، وأكثر ما تجد هذه الضمائر الحالكة الصفيقة بين الفواجر المولعات بالإفك ، ولا ريب أنهن عندما يقذفن المحصنات ، ويتخرّصنَ ما يتخرّصنَ ، يشعرنَ أنهن قد تخفّفنَ من وِزْرٍ فضممن الى حظيرتهن واحـدة ، وبازدياد العدد تخف تبعة الفرد ، ألم يقل الشاعر قديماً :

اذا الحمل الثقيل تناقلته أكفُّ القوم هان على الرقاب

ولكن المرجفات والمرجفين ، تراهم اذا انفضّ سَامِرُهم تباعاً طعن بعضهم

بعضاً، يتهامسون في الزاوايا فـُرادَى وأزواجاً ، والويل للغائب، فِعْلَ الذئاب قَرِمت نيوبَهم الى اللحم ، فيكون أن كل فرد يكره الجميع ، وأن الرصيد الحتميّ هو ان الكل يكرهون الكل .

ولقد يستوي النساء والرجال في الدسّ والنميمة ، لولا ان المرأة أميل الى البثّ وأوفر هذراً. ولقد زعم أحد الظرفاء الأقطاب ان الله أعفاها من اللحية، لانه يتعذّر عليها الصمت، فلو كانت بين يدي الحلاّق والموسى على ذقنها، لثرثرت وأصيبت بجراح .

أما التغنّي بعفاف ساكنات المزارع والدساكر ، ورمي المدنيّات ، ولا سيما الغربيات بكل شائنة ، فهو شأن الغُلاة من المتفائلين . فان الغربية تعهّر جسدها باعتباره ملكاً لها ، وان المرأة والرجل سِيّان في الحقوق والمُتَع ، تلك هي الضلالة في التقويم والاعتبار ، ما في ذلك ريب . وانما الغربية الضالّة خاطئة بالفعل ، وبين القرويات قليلات هنّ الخاطئات بالفعل ، وكثيرات هنّ الخاطئات بالقوة ، فان التي تعهّر قلبها بالتشهّي والافتراء والرياء لا تفضل زميلتها المثقفـة الوقحة بشيء ، بل هي دونها .

وكثيراً ما تكون فضيلة الريفيين قسريّة لِتَعذُّر الفرصة السانحة وقلّة ذات اليد . وطالما كانت الفاقة باعثة على التقوى ومجلبة للإحسان . أمّا الإملاق فربما حمل صاحبه على اليأس والكفران . ولا يغرّنك من الفقراء صوت خافت كسير ، وَعَبرة حيرى، وَقـَذَر وأسمال ، فإن دون تلك الانقاض من العقارب أفتكها لدغاً ، ومن الأصلال أشدُّها نهشاً . وترى المساكين الذين أيسروا بعد مَترَبة اعقّ الناس للجميل ، وأنكرهم للمعروف ، فان الأظفار التي قلـَّمها الفقر يُحدُّها الغنى ، ويجعل منهـــا أرهف المخالب وأغزرَها سمّاً حقيناً تَوَارثه شانىء عن حاقد ، وتلقـّاه ضاغن عن حاسد ، فاذا بعثت هذه

الدفائن أشعّةُ ثورة ، أو اختلال نظام ، لقيت من العفاة الأذلة أغماراً زهاليل[1] تلغ في الدماء ولا ترتوي . وربّ صوّام قوّام يجيء للسفّاحين عيناً او طليعة ، فاذا وَلِيَ من الأمر شيئاً طغى وعتا،ونبذ كتاب دينه جانباً على غرار الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، وهو أول من نهى عن المعروف إذ قال : والله لا يأمرني أحد بتقوى الله إلا ضربت عنقه » . وكان قبل ان يتولى الخلافة يتظاهر بالتديّن ، فلما جاؤوه بخبر الخلافة كان قاعداً والمصحف في حجره ، فأطبقه وقال هذا آخر العهد بك ، او هذا فراق بيني وبينك . فلا غروَ بعد ذلك اذا أباح لعامله الحجاج بن يوسف ان يضرب الكعبة بالمنجنيق ، وان يقتل ابن الزبير ويحتز رأسه في داخل مسجد الكعبة ، وهي حرم لا يجوز القتال فيها ولا في جوارها .

واني أوصيك يا بني ان تكون محسناً على قدر يدك ، وشفيقاً على مدى قلبك ، وليكن ذلك في سبيل الله فقط ، غير منتظر جزاءاً ، ولا شكوراً لئلا تُمنى بخيبة تبغّض اليك المروءة .

وانما يجحدك الجاحدون ، لأن في تذكر الصنيع نبشاً لماضٍ يدفنونه استكباراً ، يودّون لو خسفت بك الارض فلا يرون لك وجهاً ، لان رؤيتك تعيدهم الى منازل الضعة والخمول ، وهم أحرص ما يكون على نباهة الصيت ، دفعاً لمركّب الدونية ، واستجابةً لداعي الصلّف ، يغطّون بها ذُلاً ما برح في أذهانهم حيّاً ماثلاً ، ينغّص عليهم حاضرهم البهيج ، والى أمثالهم أشار الإمام علي في قوله : « احذروا صولة الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع » . وإياهم تعني الآية الذهبية : « اتّقِ شرّ من أحسنت اليه » . واعلم انه على قدر الإحسان تكون الكراهية ، فاذا كان جزيلاً جرّ على المحسن الموت أو ما يدانيه من أذى .

---

١ – زهاليل : مفردها زهلول وهو الاملس .

ولتجدنَّ ألسنة الريفيّين أحدَّ من النصال في النقد ، فهو شغلهم الذي لا ينقضي أبداً ، فبينا ترى الطبقات الاجتماعية في المدينة منصرفة الى ما أُعدّت له ، بحسب اختصاصها ، تجّاراً كانوا أم صناعيين أم أطباء الخ .. تجد الريفيين ، على جهل سوادهم ، اختصاصيين في كل شيء ، ولا سيما في السياسة ، يبدأون بالطعن على المختار ويختمون بكندي وخروتشيف ، وليس أحبّ اليهم ، في باب تفريج الكروب ، من التشفّي والنكاية ، وإنما النكاية ، وليدة الكبرياء ، هي الغاية التي من أجلها يعيشون ، وعلى دينها يموتون . فلو انشطرت القرية الى حزبين مثلاً ، وانتمى كاهنها أو إمامها الى زعيم ، والى سياسة مُعَيّنة ، لهجر خصومه المعبد والصلاة ، وربما هجروا الله نفسه نكاية برجل الدين . ولو انهم حرموا الماء فاجتلبوه على ظهور الحمير ، أو شربوه من الحياض الآسنة ، أو من المناقع التي تعجّ بالطفيليات والحشرات السامة ، وجاءهم خصمهم السياسي بماء الكوثر ، محرزاً في أكواب من ذهب ، على صواني من فضة ، تديرها الكواعب الغيد ، ملكات الحسن والأناقة ، لأهرقوا الشراب وصبروا على الظماء من أجل النكاية .

واذكر اني كنت ذات يوم في احدى قرى الجنوب ، فسمعت طلقات نارية فاستوضحت فقيل لي : « فلان يطلقها ابتهاجاً بنجاح شارل مالك في جامعة الأمم » فقلت : « وما علاقته بشارل مالك ؟ » فقيل لي انه يفعل ذلك نكايةً بجاره فلان صنيعة النائب الفلاني الذي يكره شارل مالك ، حينئذ فهمت سر الفرحة العظيمة .

وان ما جرى في هذه القرية ليس وقفاً عليها ، ففي كل قرية لبنانية يجري مثل ذلك الابتهاج لمثل تلك الأسباب .

بالقلم العريض :

غادرت بيروت ذات يوم الى قرية في الشوف ، هارباً من ضوضاء المدينة

وربيعها المثقّل بالرطوبة ، وانا يومئذ عليل واهن القوى . فزارني دعيٌّ في الأدب هجين، ما برح أميّ الفكر مَاحِلَه، على إتقانه المداهنة ومصانعة أولياء الأمر ، بدون رسوخ في عقيدة ، او إخلاص لمذهب، أو متابعة على رأي جلل .
وصاحبنا لئيم راضع ، حريص يجتلب المنافع ولو من صيارف اليهود ، ويمسك حتى لا ينفلت الماء من فروج أصابعه ، فاذا اتفق له ان يجود بقرشٍ، على أهـل بيته ، خرج القرش مسحوتاً منحوتاً لفرط ما قلّبه وشدّ عليه في معركة الوداع الأخير .

تقحّم على غرفتي ذلك الفِسل الشحيح بدالّةٍ لم أمهّد له عليّ فيها سبيلاً .
وهي من جرأة الريفيين الذين إن حلت بينهم دَمِثاً فلم تصعّر خدّاً ، ولم تشمخ بعرنين ، أسقطوا الحجاب ورفعوا الكلفة ، وربما أنزلوك الى صعيدهم غير ناظرين اليك إلاّ من كواهم الخاصة ، فحَسبك الإسكاف والنجّار والحدّاد وراعي المعيز في طبقتهم ، ولو كنت كريستوف كولمب أو باستور أو ابن سينا . بيدَ أنهم يُدِلّون عليك ببراعتهم في حِرَفهم وجهلك بها . فأنّى لك المعرفة بخرز النعال ، وصقل الخشب ، وتطريق الحديد ، وحَذْف التيُوس بكل مستدير من الجنادل صَبُوب . وما ان استوى الرجل على مقعده ، حتى شرع يسألني في السياسة، وهي أكره إليّ من (البنـــج) المخدّر ، الذي طرحني على مشرحة العمليّات ثلاثاً وعشرين مرة . فلقد تنكّبتها قاضياً ، وعِفتُها شاعراً ، وفررت منها ناقهاً يبتغي الراحة بعيداً عن الأقاويل .

فتبرّمت بالطفيـــليّ أيّ تبرّم ، أنا الخاطىء الذي اتسع صدره لعذاب لم يُفدح بمثله أيوب البارّ ، فحاولت أن أختصر ، فقلت : اعذرني فاني بالسياسة جهول فقال : « أمرك عجيب . كيف تجهل السياسة وانت شهير في لبنان وسواه من البلدان اللاهجة بالضاد ؟ » فنفد صبري، ورأيت الفرصة سانحة لجواب جامع مانع يحمله ذلك الثرثار الى العموم ، فيقوم مقام التصريح الذي يدلي به

بعضهم الى مخبري الصحف ، ويكفيني مؤونة الخوض في مثل هذه الشؤون كرة أخرى فقلت :

أجل إني أجهل السياسة التي تعرفون ، وأعرف السياسة التي تجهلون .

سياستكم لا تعدو مَعَابر هذه البلدة ، فهي انتقام من مُشاكِلٍ في صناعة ، او شفاء نفس من عصاميّ رفعه جدُّه حين خفضكم كسلكم ، أو محاولة عزل مختار بتهمة صحيحة أو مختلقة ، أو ابتغاء توظيف نسيب لكم بعد بذل الرُشى وإلصاق أنوفكم بالرغام ، حيال زعيم يهشّ لكم إزراء بكم ، فيتخذ من حليلاتكم لعشيقته خادمات ، ومن ظهوركم لمآربه مطايا ، فاذا بلغ السدّة التي يتمنى، عاد – وهو العليم بعقلية الجماهير – يسوقكم بالسوط ويَستَرِقّكم عبيداً بيضاً يتوهمون أنفسهم أحراراً . ولو أعطيتم الحرية وأنتم في مثل هذا الصَغار والخنوع لأودت بكم ريحها ، فليس أقتل للخنافس من (الكولونيا) . ذلك ان الحرية عبء يقصم الظهور التي لا فقار لها . بل ان تلك الظهور هي التي تهرب من الحرية والتبعات الملزمة للانسان ، بما هو به إنسان حر ، فيهرع القاصرون الخائفون من الرشد الى وصيّ عتيّ ، فاذا ألقَوْا اليه بقيادهم استعلى متدرّجاً على المتون الوضيعة ، وزرع بينكم الشقاق والفساد فيشغلكم عنه بترّهات وَفِتن محلية ، تأخذ عليكم نهاركم ، وطائفة من ليلكم ، فتغدو أريافكم الوادعة منبتاً للدعاوى وشهود الزور ، وتصبح زواياكم الهانئة مخادع للدسائس والهمس بالباطل ، بدلاً من ان تكون أنديةً للسلام والسَمَر البريء، وتنقلب قراكم الى جحيم أنتم أبالسته، أمّا الزُبانية فحاشية الصنم الذي عبدتم فصار لكم ربّاً ، وأمسيتم له سدَنةً تمسحون الغبار عن وجهه ، وتعطّرونه بالثناء ، كلما تعفّن وأوشك ان ينخره السوس وتأكله الأرَضة ، لئلا يبدو على حقيقته أجوف ، وأنتم أسبغتم عليه من ضعفكم قوة ، ومن دمائكم سقيتموه الحياة فتوهمتموه جبّاراً أيّداً .

وليس في ميزان القيم أخسر من مقاييسكم للقوة ، فالقوي فيكم هو الجاهل

السَفّاح الذي يغتال بخنجر ، او يردي برصاصة ، أو أنه الوغد الاثيم تداهنونه رهبةً ، وفراراً من شرّه تسلمّون عليه ، وتؤثرونه على ذوي الصلاح ، فتتظاهرون الذئاب على الحملان ، إذ لا نيوب لها ولا أظافر .

القوي فيكم هو من بيده من الحكم شيء، سواءٌ كان عفّ الضمير شهماً خيّراً أم كان رئيس عصابة تهرّب المخدرات ، وقد زَهِمَتْ يده من المال الحرام ، فاذا أجلسكم على مائدته مصادفة ، أو تنازل فدخل بيوتكم ، أو حيّاكم باسمائكم ، في لقاء عابر ، فأخرجكم بدهائه من التنكير الى المعرفة ، أو سخّر أحدكم بجلب خادمة لبيته ، خلّدتم تلك المناسبات بحمد لا ينقضي ، فعرّجتم عليها في أحاديثكم اليومية كأنها صلاة مفروضة .

القوي فيكم هو الغنيّ ، سواءٌ أكان سمحاً وديعاً – ولا يكونه إلاّ في الندرى – أم كان بَطِراً أشِرا، أو شحيحاً لمَلَم السحتَ عن كل طريق مريب، مائدته حرَمٌ على الناس إلاّ ان تكون ابتغاء تجارة ، أو تمهيداً لجريرة خلقية يفتنّ في إحكامها أصحاب اليسار ، ولا سيا اذا كانوا حديثي نعمة .

الاقوياء فيكم هم أصحاب الألقاب والشارات الخاصة ، من موظفين مدنيين أو عسكريين أو رجال دين،سواءٌ أكانوا في الملأ الأعلى استقامةً ، أو بطولةً ، أو قدوة صلاح ، أم كانوا مجدبين علماً وخلقاً وإيماناً ، فتستروا بالطنّان من الالقاب ، والبرّاق من الشارات كما يستر ضريح الرخام جيف الموتى .

أما الضعفاء الذين تزدرونهم فهم اولئك الذين شالت بهم أخلاقهم فأقصتهم عن الدمَن التي فتنتكم خضراؤها .

فمنهم الفيلسوف الداني منكم جسداً ، النائي عنكم رأياً وسعة أفق ، يودُّ أن يفتح بصائركم على مجاهل أنفسكم ، فيشعركم ان الإنسان الذي فيكم لم يخلق للعبودية ، ولا لهذا الفراغ الروحي الذي تملأون به حياتكم، وان الإنسان

ليس بشراً متناهياً، ولكن اللانهاية هي قسم منه باعتبار الله، عزّ وجلّ مصدراً له . ألا ان المفكر لا ينفك يحرق دماغه قبساً بعد قبس ، طيّب النفس كريماً، يقيناً منه بأنه يُنير العصور، ولو عاش في ظلمة وأنفق حياته في موطنه مغترباً، وكانت دار مولده نفسها دار هجرته . ومن العجب ان يكون ذلك القلم المثمر، النابت في أرض جديبة ، معدوم الصرير في بلده ، ما دام صاحبه بين ظهرانيكم قائماً ، فاذا انطوت صفحة عمره كان لمرقمه دويّ في أقصى الأرض .

ومن أولئك الضعفاء ، الذين تحتقرون ، أهل الفنّ الألى يخلّدون العبقرية لحناً على وتر ، أو نقشة في حجر ، أو ألواناً في ديباج وألواح ، أو جمالاً يطمئن في قافية ، فيضيفون الى حسن الطبيعة الصامتة بهاءً يتكلم ، ورواءً يحدّث بمجد أصحابه ، معبّراً بألف لسان ما تحرك على وجه الأرض بشر . فهم الذين يكسون الزمن العاري زينةً ، ويبدّلون جفافه خصباً وفرحاً متجدد المعاني ، لكل من تأمّل فوعى . وأنتم تحسبون هؤلاء النخبة نافلةً وعالةً على المجتمع وهم أعياده ، وتصنّفونهم في الهوامش وهم النصّ الذي يبقى . وانما الحواشي التي يطمسها الزمن ويستغني عنها سجلّ الخالدين هي أنتم وما تعبدون من أصنام نصبها خنوعكم واسترقّكم صلفها .

ومن الضعفاء ، الذين تمتهنون ، القديس الذي يصلي من أجلكم ، ثم من أجل نفسه قانتاً عابداً ، بينما أنتم تكيدون المكايد لرئيس البلدية ، أو لناطور القرية . ذلك القديس يستجدي أكف المحسنين ليبني ميتماً لأطفالكم ، أو مأوى لعجزتكم ، إذ تجمعون المال لعزل المختار ، أو ثمن كبش تهدونه لزعيم ، في وفد منكم يتبرّكون بلثم الأنامل ، ويتمسّحون بالعتبات ، فاذا اشتدّ قرمهم الى اللحم تسلّلوا الى المطبخ ، وما يصيبون من الخروف المهدى إلاّ العظم يعترقونه ، ويأتون على المشاشة والمخّ ، حامدين الله ، لا على الشبع ، بل على قدسية المكان وذكرى الشرف العظيم .

ومن الضعفاء ، الراهبة التي نذرت حياتها لخدمة الهلكى من السقماء ، وعلى

الأخص المبتلين بالبرص ، فتشهد من الفواجع ما تـعَافـُه نفوس الآدميين ، وهي جدّ موقنة بأن العدوى ستصيبها فيصرعها الداء الوبيل ، فيتناثر جسدُها ثم يتبعه الى القبر هيكلٌ من عظام ، وروحٌ تصعد الى خالقها بريئة من كل دنس .

تلك هي نماذج من الضعفاء في رأيكم أيهـا الوجيه . وكذلك القول في عظماء الإنسانية الذين لا معنى لهم ولا مقام في صدوركم . ويرجح عندي انه لو حلّ بساحتكم اديسون وباستور وغاليلو والقديس منصور وسقراط وابن سينا والغزالي ورافائيـل وميكالانج وأبو الطيب المتنبي في رهط من الشعراء وأعلام البيان ، والتمسوا منكم العشاء والمبيت ، ونافسهم في الطلب جابي الأموال الاميرية ، في نفر من ممثلي القوة التنفيذية ، لآثرتم هذا الفريق، إلاّ أن تخافوا هجاء المتنبي فتضيفونه وتتركون رفاقه في الساحة ، لأنكم عبيد القوة الضارية ، أكانت سلاحاً أم هجاءً أم سوى ذلك مما يضر .

كذلك كان أهل الناصرة عبيداً لهيرودس ، فلما جاءها يسوع ، وقد انتظم صدى معجزاته أسماعَ أهل المشرق ، لم يَلـْقَ من أهلها إلاّ إزراءً ومقتاً . ولولاه لما كانت الناصرة – التي لم يخرج منها شيء صالح بحسب قول انبيـاء التوراة – سوى دسكرة حقيرة في إقليم الجليل ، فرفعها اسمه العظيم الممجَّد ، فصغرت بإزاء شهرتها الحواضر ، والى ذلك الاسم نُسب الناصري وجميـع نصارى المسكونة .

بعد هذا الاستطراد الطويل في شأن الريف وأهله أراك يا عزيزي فادي متهمي بالإسراف من ثلاثة وجوه : أولها ان بعض الامراض الاجتماعية التي عرضت لها لا تنحصر بالقرويين بل تتعداهم الى سكان الحواضر . وثانيها اني انا ريفيّ فكيف اتنكـّر للريف ، وثالثها اني أفرطت في الصراحة . اما الرد على الوجه الاول فموجزه ان هذه الأدواء ، وإن ظهرت في المدن ، فانها في القرى أظهر ، وعواقبها أوخم ، وأنها تأتي ثانوية في المدن ، وتحتل مكان الصدارة في

الريف . أما جوابي عن الوجه الثاني فهو اني ريفي حقاً ، وانني اثنيت على القرى تكراراً في غير مكان من هـــذا الكتاب ، فذكرت محاسن الريف ومَسَاوئه . اما عن افراطي في الصراحة فتلك خصلة أباهي بها واعتز فوق اعتزازي بأيّ وسام، فربما رأيت النقيصة في أولادي،أو في بعضهم، فلا أكتمها كالذين يعميهم الحنان فلا يرون في ذويهم إلا ملائكة تجسد الفضائل ، فلا تذكر مكرمة الا أضافوها الى ذوي قرباهم،وإن كانوا أجلافاً أوغاداً سافلين،ويضحك منهم السامعون ويتنادرون عليهم. ولا يستوي البسطاء الذين يعطفون فيعمهون، واولئك الآباء الائمة الذين يتعمّدون النفـــاق فيؤلهون المجرمين من أصولهم وفروعهم وذوي أرحامهم ولا يثور لهم ضمير ، ولا يندى لهم جبين . يجابون الوجوه بكل وقاحة وينامون ليلهم هانئين .

واني لأراني صغيراً جداً يا بني اذا انا داريت او ماريت ، بل اني احاكم نفسي وآخذها بشدة الرجل القاسي ، فلا أجهل اني في بعض المواطن وَهَنَت إرادتي فلم اكن يابسا يكاد يكسر بل كنت رطبا أعْصَر . ولعل هذا الضعف العاطفي هو الذي أطمع بي الخونة من أصحابي ، والأنانيين من ذوي قرابتي ، فجرّعوني الألم كؤوسا مترعـــة، فأضافوا الى علتي الجسمانية علة نفسانية هي أدهى ما لقيت .

●

عَوْدٌ على بَدء

ذكرت في غير موضع من هـــذا الكتاب ، عندما تحدثت عن العربيّات والإسلاميّات ، كيف أعدّتني مطالعاتي المختزنة في عقلي الباطن ، وظروفي الخاصة ، والمصادفات الغريبة ، للشعر الملحمي ، فألّفت ملحمتي (عيد الغدير) و (عيد الرياض) . وقد بَيَّنت في مقدمة كل منهما الحوافز التي أهابت بي الى النظم . لذلك لا أرى فائدة من التكرار في هذا المقام ، وانمـا الناس يتبرّمون بالفَرْض فكيف بالنافلة .

بيد أني لا أرى بُدّاً من الإشارة الى ردّة الفعل التي عقبت كلاً من الكتابين، فيكون لك يا بنيّ من العِبَر ما تستهدي به في حياتك إن شاء الله . وتدرك ان نظرة الناس في الشيء الواحد تختلف باختلاف الطـــاقة ، والمزاج ، والبيئة والطائفة ، وما شاكل ذلك من الفوارق . ولا بأس أن أجسّد هذه الذاتية بمثلٍ يُرسّخُها في حافظتك . ولا تحسبنّ حكيم الهند بيدبا مازحاً لاهياً ، اذ يجيء بالرأي ممثّلاً في رائعته (كليلة ودمنة) فيُخرج المعـــاني من المفاهيم المجردة – وهي آخر ما يعتلقه الإدراك – الى الواقع المحسوس ، وتراه يُنطق الحيوان زيادةً في الغرابة ، وتنبيهاً للخواطر ، وليس أفعل من الأساطير في إيقـــاظ المعرفة وإشباع نهمها الذي لا ينقضي .

واعلم ان ذلك الهنديّ لم يكن سطحيّاً يعيش على اللفظة ومن أجلها ، ولا

مختلقاً وكَنْدُه في الباطل وتزويق الروايات، بل كان خلاّقاً بعيد النظر ، عليماً بالنفس البشرية ونوازعها ، يبغي إصلاح دبشليم ولو ألقى بحياته الى التهلكة ، لا كاتباً صخّاباً مداجياً ينتهج سياسة حقيرة ، حرصاً على مال ، أو إشباعـاً لنفس خوَتْ من كل مأثرة إلاّ من الصّلف والدعوى .

أخبرني أحد العائدين من قطر أميركي تكثر فيه منابت العشب والبهائم ، أن الخيل ترغب في النَفَل ما دام أخضر الساق ، أصفر الزّهَر ، فاذا غطّى الجليد الأرض ، ورُزِمَ النفلُ في الاسطبل حشيشاً ، قد نصل لونه ، زهدت فيه الجياد ، فيركز الرعاة على عيونها (نظّارات) ذوات عَدَسيّات خضر ، فتقبل على المعالف وكأنها في المراعي الضاحكة .

وكذاك شأن الناس ، ينظرون في الأشياء مصبوغة بأهوائهم ورغائبهم ، على غير معرفة منهم بأن تلك الألوان المتباينة تصدر عنهم ، فويل لمن كانت نظّاراته قاتمة فلن تفارقه الكآبة أبداً .

وغنيّ عن القول إن الأقطـــار العربية استقبلت ملحمة (عيد الغدير) بإعجاب شديد ، لأنها فاتحة لا سابقة لها ، فتلقّاها الشيعة بالتهليل في كل مصر ، ولا سيما في بلاد الرافدين، حيث كان صاحبهـــا ، يذكر في المساجد مشكوراً ، برغم عجمة اسمه الدالّة على مذهبه ، وقد أقيمت له في الكلية العاملية ببيروت حفلة تكريمية ، تكلم فيها أدباء كبار ، وسفراء ووزراء ، من مختلف الأقاليم ، وفيهم سفير إيران ممثلاً جلالة الشاه الذي قلّدني وساماً ، لتلك المناسبة . وجاءتني الرسائل من المغرب الأقصى حتى خليج فارس .

بيد أن شويعراً شيعياً خنقه الحسد ، ولم يهتدِ مني الى مقتل ، فكان يفتري عليّ في المجالس فِريةً مؤداها اني قصدت الى التفريق بين السنة والشيعة . وأنا لم أعتمد سوى المصادر السنّية في ما كتبته عن الإمام ، ونسي الواشي ان الذي قدّم للملحمة هو شيخ سنيّ معمّم ، لم أعرف بين المشارقة المعـــاصرين من هو

أوسع منه اطّلاعاً، ولا أشمل يراعاً وأطيب حديثاً ، عنيت العلايلي عبدالله.

ولم أعرف مثل ذلك الشويعر إنساناً طابق خُلقه خَلقه، وداخلُه خارجَه. وتلك المطابقة شرط من شروط الرسم والحفر في الأصولية (الكلاسيكية) ولكن (الكلاسيكية) لو حاولت أن تتناول صاحبنا لأعياها الأمر من جهات أخرى ، إحداها فرط دمامته ، فمثله يصلح لمسوخ (بيكاسو) ، وهو من النتن بحيث يُخشى أن يمتد زَنخُه الى اللوحة لو رُسم بالزيت ، او الى الحجر لو نُقش في جلمود . وقد تحيد عن طريقه ، فراراً من زَهَمِه ، ولو كنت سائراً بين الرياض ، في صباح ربيعيّ أرِج ، فإن الماء لا يمسّ جسده إلاّ عن طريق الفم . ومما أقطع به ان بشاعة وجهه كانت لشناعة روحه تابعة ، كصدور المعلول عن العلّة. ومن نظرة الاستدلال على الباطن بالظاهر انطلق علم الفراسة. ولقد عرفت غير واحد من الفتيان ملائكيّ الوجه والسماء ، فلما تدرّنت نفسه صَدِئت ملامحه ، ولاحت من ورائها الجريمة . وكأيّنْ من فاجرة تجدها في مستهلّ الصبا أبهى من السماء في ليلة إضْحِيانة ، فاذا تردّت في دروب المعاصي غضّنَ الإثم جسدها ، فأنذرتك مطاويه ، بما تنذرك به الكهوف والأدغال من شرّ مستطير خلف مَغابنها .

وزعم نظّام آخر اني صانعت الشيعة . ويشهد الله اني فكرت بعليٍّ بطلاً منقطع النظير ، وسواءٌ لدي أكانت له شيعة تُعدّ بالملايين أم كان منفرداً لا ذرّية له ولا أتباع .

أما أهل السنة فمنهم النخبة الراقية الناظرة الى مجد العرب في صدر الإسلام ، وهؤلاء قدروا عملي ، وانشرحت صدورهم ليراع مسيحيّ تنزّه عن الطائفية ، فانغمس بالنور حيناً وبالحق حينا . أما الذين ما برحوا يجادلون في أولوية الخلافة جدلاً بيزنطياً فظلّوا بين صامت وعاتب .

وشكرني أعلام النصارى الذين يعلمون أن ابا الحسن ليس أمير طائفة معينة ،

بل أمير القـــلم والسيف والزهد ، وأحد مَفاخر هذا الشرق . وسألني أستاذ مسيحي يُدرّس البيان في مدرسة راقية ، لماذا مجّدت علياً بن ابي طالب . فقلت لقد وفيت عنك ، انت الذي حذقت الخطابة وجرى بالبلاغة قلمك ، ولا تنس انك على نهجه سرت ، وعلى أفنانه تعلـّمت المندلة ، فتوارى صاحبُنا غير شِامخ الرأس .

وكان همُّ عبيد المال في المبلغ الذي جنيته ، وانطفأ حسد الحاسدين اذ علموا اني لم أسترجع النفقات الا بعد جهد . ولم أعجب لحرص تلك الفئة من الناس، في عصر ابتذلت فيه القيم حتى الإنسان . لذلك يسألك الاميركي كم يساوي فلان ؟ وهو يريد مقدار ثروته ، فاذا صحّت هذه المعادلة كان اليهود أغـــلى خلق الله ثمناً .

مرّت سنوات ست على طبع (ملحمة الغدير) أنشأت في خلالها كتابين في النثر هما : (مذكرات جريح) ، الكتاب الذي سطرته بدمي و (الصراع في الوجود) . ولكن الطاقة الشعرية الملحمية كانت في عقلي الباطن ، تعتلج كالنار تحت الرماد ، تبتغي لها مُنسرباً .

وحاول شعوري ان يَتَبَلـْوَرَ في ملحمة ثانية أمدى من الاولى وأكثف شمولاً ، إذ تنطوي على جُلّ مآثر العرب في جاهليتهم وإسلامهم،وعلى الاخص في عصورهم الحديثة . والتمست في الجزيرة رجلاً من طراز أولئك الآحاد الذين تـُحدثنا بهم السِيَر ، أي بطلاً يملأ ملحمة . وشاء التوفيق أن أقع في مطالعاتي العابرة على مجلة تذكر فتح الرياض ، على يد المغفور له ، أسد الجزيرة ، الملك عبد العزيز آل سعود . فشعرت بنشوة أنبل من سكرة أبي نواس حيث يقول مبدعاً في وصف الخمر :

وتمشّت في مفـاصلهم كتمشّي البُرءِ في السقم

ثم أقبلت على تاريخ نجد الحديث ، وانفتح لي الافق ، وكان ما كان من أمر

عيد الرياض على النحو المبسوط في مقدمتها . قال عمر بن أبي ربيعة في وصف نفسه ، إنه موكل بالجمال يتبعه أينما كان . وأكاد أراني مُوكّلاً بالبطولة اتّبعها اينما كانت ، صارفاً همي الى جوهر البطل ومقوّمات الإنسانية فيه ، غير ملتفت الى طائفته ومعتقده . وحبذا لو نظر الناس كلهم هذه النظرة الموضوعية في التقويم ، فالمعتقد قضية شخصية حميمة بين الإنسان والله الذي تفرد بالربوبية والعلم بالسرائر ، فكأين من متديّن في الظاهر وباطنه زندقة وإلحاد .

نظمت (عيد الغدير) غير متقرب الى الشيعة ، وأنشأت عيد الرياض غير مصانع الوهّابية ، بل مستجيباً لنداء وجداني ، وها أنا اجتزىء في هذا المقام صفحتين من مقدمة عيد الرياض .

صَحَّت عزيمتي على نظم ملحمة (عيد الرياض) بعد ملحمة (عيد الغدير) ومثل هذا الإقدام يوقظ — في الصدور الضيقة كعيون البخلاء ، والأدمغة التي رَانَ عليها التعصب فأظلمت حتى عدمت منفذاً للضياء — فكرة التناقض . فيتساءل المتحذلقون كيف تأتّى لهذا الشاعر المسيحي ان يجمع بين الشتاء والصيف على سطح واحد ؟ وهو الذي تقدم له أن تولّى القضاء سحابة خمس عشرة سنة ، فكان المنطق عِمادَه في بسط المقدمات واستنتاج النتائج ، ثم ألّف في الفلسفة ، والفلسفة ركيزتها عدم التناقض ، أوَثَبَةٌ من الشيعة الى الوهّابية ؟ ام تراجع عما قال بالأمس ؟

ألا فليطمئن المُرجفون الدائرون في فراغ انفسهم ، أو في فلك ضيق كمقلة الحسود ، وليعلموا ان الشاعر الجدير بهذا اللقب — وعلى الأخص الشاعر الملحمي — يتعالى عن مزالق الطائفية ويتحامى سمومها ، فما يستهويه إلا البطولة ، شأنه شأن النسر ينشد القمم ويغفل السفوح ، فان من تغنى في الأمس بالإمام علي ، وشدا اليوم بمآثر ابن سعود ، لا يتعذر عليه أن يشيد غداً بمآثر غندي فيتلاقى التشيّع والوهّابية والتصوّف الهندي على قلم واحد ، ولا تناقض ، فان الوردة لا تنفي

الآسة ، والآسة لا تنفي الياسمينة. ولا تغصّ الحديقة بمئات الرياحين والأشجار، فكيف يضيق صدر الكريم بنخبة من تلـــك الأدواح الباسقة التي ازدان بها التاريخ ، فكانت خضرة وظلاً وثمراً طيباً .

اما الملحمة التي أدرتها على الإمام ابي الحسن ، فارس الاسلام وأمير الكلام وشيخ الزهّاد ، فمعاذ الله ان أنقض منها حرفا . وبحسب ابي تراب[1] شجاعة ان يكون قاتل عمرو بن ود العامري يوم الخندق ، وفلسفةً ان يكون هو القائل :

وتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وبحسبه عدلاً ان يعامل أخاه عقيلا كواحد من عامة المسلمين ، وبياناً عميقاً قوله : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، وبلاغةً قوله : تخففوا تلحقوا ، ونظراً بعيداً قوله : احذروا صولة الكريم اذا جاع ، واللئيم اذا شبع .

قلت في تصديري ملحمة (عيد الغدير) ان الشرق العربي فقير الى الملاحم ، وان العروبة المستيقظة الآن في صدور أبنائها ، من المغرب الأقصى الى منتهى جزيرة العرب ، لأحوج ما تكون الى التمثّل بأبطالها الغابرين . واني لأضيف اليوم الى الغابرين بطلاً في المعاصرين ، فاذا كان من جوهر الملحمة أن تشتمل على الخوارق ، فلقد وجـــدت في ابن سعود بطلهـــا الذي أولج الواقع في الأسطورة ، والأسطورة في الواقع . ولو لم يكن سبيل الرجل الى المجد سوى الحسام ، لما هزّني فهاج قلمـــاً طلّق الشعر أو كاد ، زهاء ست سنوات ، فان طائفةً من الصناديد الفاتحين الذين تقدّموه في الزمن ، لم تعوزهم الشجاعة بل الانسانية التي تجلّى في المرء صفات طيبات ، وبها تقوم ماهيته ، كما يقوم جوهر الوردة بالطراوة واللون والفوح ، فاذا انت جردتها من هذه الخصائص وقعت

---

١ - ابو تراب من ألقاب الإمام علي .

على هشيم يحوطه الشوك . وانمـــا تتجلـّى إنسانية ابن سعود في سخاء يؤيد ما تناقلته الرواة عن حاتم ومعن وآل برمك ، وذكاء فطري يلمح في دورة خاطر ما يستعصي على أعلام العلماء في أيام ، وعدل هو استواء الشمس في الظهيرة اذ تتخذ مكاناً نَصَفاً ، وحلم ينفد البحر قبل نفاده ، ووفاء للذين ألفوه في المنزل الخشن كأعلى ما يكون الوفاء ، واتضاع وخفض جناح للضعفى والمساكين ذوي المتربة ، ورقة كرقة الشاعر الرهيف الحس ، وتقوى يصح فيهـــا قول القرآن المجيد « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة،وهم بالآخرة هم يوقنون » « تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون » « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون » .

تلك السجايا حببت إلي ابن سعود ، فوق ما حبَّبَه إلي حسامه ، على انه أشرف سيف عَرَفته جزيرة العرب منذ قرون . ولولا هـــذا الشعور الذي احتلـّني ، كما يحتلُّ الربيع الشجرة ، فيفتح براعمها للندى ، لما استطعت أن انظم فيه بيتاً واحداً . وما انا بالذي تهزّه السحابة العابرة أو يستهويه الغدير الضحل فيسبح – وما ألفت العوم إلا في اليمّ الصـــاخب – ولا بالذي يزوّر على التاريخ فيصانع ، فاذا آخذني بعضهم على المبالغة في امتداح آل سعود ، فما الغلوُّ سوى الخيال الشعري المنطلق من صعيد الحقيقة ، ولولاه لكانت ملحمتي تأريخاً منظوماً ، أو أرجوزة طريفة على البحر الخفيف ، أو وثيقة كاتب عدل ، لا يأتيها الباطل من خلفها ولا من بين يديها .

تلقـّى البيت السعودي والمكتبة العربية ملحمة عيد الرياض في يوم واحد ، فلم ألتمس لطبع الكتاب مالاً من أحد ، ولا مَنَنتُ بكتابي على أحد . إن هي إلا قريحة فاضت فهَلـَّت فاطمأنـَّت .

واحتفت الأوساط الأدبية بكتابي احتفاءً منقطع النظير ، فاستقبله أكابر أدباء الضاد بثناء لا ثناء فوقه ، وقد نشر معظمه في الصحف اللبنانية . وبلغ

إعجاب أحدهم بالملحمة مبلغاً عظيماً حتى آثرها على كل ما تقدمها من شعر ، ولم يستثن المتنبي نفسه . وإن ذلك الكاتب الشيخ لم يُعرف بالمدّاح المحابي بل بالناقد الحرّ اللاذع القلم . وأذاعت المحطة السعودية مقاطع منها في مدى شهر مقدّمة لها بموسيقى حماسية . وقامت نخبة من أجلّة الأساتذة اللبنانيين بتدريس بعض أناشيدها في الصفوف العالية ، لإطلاع الطلاب على النفس الملحمي .

ولكن الحسد ، قاتل الله الحسد ، أبى إلاّ أن ينطق بأفواه لئيمة ، فزعموا اني كنت مأجوراً على عملي ، مُتخرّصين اني قبضت كذا مقدماً وكذا مؤخراً ، وحددوا المبلغ بالملايين ، محاولين الخفض من شأن العمل بذاته . وسألني بعضهم في هذا الأمر فأردت أن أضيف الى حسده ناراً آكلة ، فقلت لدعيّ الأدب : أتعلم ان المتنبي كان شحيحاً ، صلفاً ، متشائماً ، مبغضاً للناس ، متكسّباً يخاطب سيف الدولة بكل قحة فيقول :

أجزني أمير المؤمنين فانمــا أتاك بشعري المادحون مردّدا

وانه تكلّف مدح كافور منافقــاً طامعاً في ولاية ، وانه جبان ادّعى الفروسية وهو لم يجرد حسامه إلا يوم سرقه عبده ، فجدع أنفه بذلك السيف الجراز ، الذي تغنّى بصحبته حيث يقول : الخيل والليل والبيداء تعرفني .

قال سائلي : نعم أعرف كل ذلك .

قلت هل حطّت هذه المعايب من مقام المتنبي أم لم يبرح تقادم الزمن يزيده رفعةً ويحلّه مكان الصدارة ؟ قال : إنه ما انفك مستويا على عرشه . قلت : بعد هذا لك يا صاحبي أنت وأندادك أن تتهامسوا بما شئتم .

وكان لا بدّ لطلاّب الصفوف العليا ، بعد ظهور الملحمة ، من أن يسألوا أساتذتهم عني ، فيجيب كل بحسب معرفته وصدقه وخلقه . ونقلت إليّ فتاة من

ذوي قرابتي ، وهي من طالبات صف البيان يومذاك ، خبراً فيه من العبرة ما فيه . ومؤداه: ان المعلمة نازك . ي. سُئلت رأيها في الملاحم عامّة ثم في الملحمة العربية خاصة فأجابت : ان شاعراً لبنانياً يدعى بولس سلامه ألـّف ملحمة عيد الرياض وقبض ثمنها سلفاً ، وانه مات . فسألتها نسيبتي الطالبة هـ. ابو سليمان : أتعرفين الرجل فأجابت نعم ولقد توفي منذ شهر ونصف ، رحمه الله ، فأجابتها الطالبة : كلا يا معلمتي انه نسيبي وابن وطني وهو ما زال قيد الحياة . والكلام على هذه المعلمة يستدرجني يا عزيزي فادي الى بحث في التعليم .

المُعَلِّمُون

منذ أعقاب القرن التاسع عشر ، لاحت في لبنان تَبَاشيرُ نهضة تعليمية ، لا مثيل لها في أيّ بلد شرقي، واعتزّت بلاد الأرز بأكابر المعلمين الذين ما برحت اسماؤهم كالجبال مَارِدَةً ، اولئك نخبة جليلةٌ آثارهم ، فكأنها مفترق طرقات لا بدّ للعابر ان يجوزه ، أو هي واحات في البوادي يفيء المسافر الى ظلّها ، كلما تلَهّبت الرمضاء . وكان من خصائص اولئك الأعلام أن يتعمّقوا في الرسالة التي انتدبوا لها . فمدرّس قواعد اللغة ، مثلاً ، يعرف منها مثل ما يعرف ابن مالك ، وشارح متونها يتقصّى حتى ليستطيع النهوض بمعجم . وكان واحدهم ينصرف لهذه المهمة الجلل ، فيكلف بها ولا يعيش إلا لها . وقد خلّف اولئك الآحاد ، عدا الآثار القلمية النفيسة ، روائع حيّة بما تركوا بيننا من طلاّب درسوا عليهم، أو على تلامذتهم فجروا من البلاغة على عرق، ومن الضمير المِهَنيّ على أصفى من الرقيع الأزرق. ولكنّ هؤلاء الميامين الراجحين في ميزان الكيف قلة في مقدار الكمّ . بيد ان الجامعة اللبنانية ودار المعلمين ، والجهد الذي تبذله الحكومة في إعداد قادة فكر وقلم ، كل ذلك يبشّرنا بأن الوجوه الخيّرة لن تتوارى ، وان الأيادي البيض تستمرّ ، بنعمة الله ، في إنشاء الأجيال وتهذيب العقول .

بعد هذه الكلمة الحق في الطيبين، أراني مضطراً للكشف عن بعض النواحي الكَدِرة في الجهاز التعليمي ، مُبتدئاً بالمدرسة الرسمية .

مما لا يخفى على أحد ، ان بين معلمي هذه المدارس ، ولا سيما في القرى ، من يتعثّر في قراءة العربية المشكّلة ، فضلاً عن المهملة التي تقتضي القارىء معرفة الإعراب ، وبدهي أن يكون هذا الضرب من المعلمين جاهلاً بقواعد الكتْب حتى لا يُميّز بين التاء المبسوطة والمربوطة مثلاً .

وأعرف منهم واحداً كتب الى وجيه دعاه زعيماً (حضرة الظعيم) كذا .. وسواد هذه الفئة من المتعيشين الألى وَكْدُهم في قبض المرتّب الشهري ، فاذا تنافسوا ففي الكسل والإهمال ، ويكونون في الغالب من أصحاب الوجدان الصفيق والأخلاق الموحِلَة ، فلا تلبث أن تنطبع صورهم القبيحة في الأذهان الغَضّة ، لأن المعلم هو مثال الطالب ، يتشبّه به ، قبل أن يتشبّه بوالديه ،وربما رافقه ذلك الانطباع مدى الحياة .

ولا يبذّ هذه العصبة الوبيئة من المعلمين ، إلا زمرة ثانية تطعّم الأغراس اللِدان بأحد اللقاحين السامّين ، وكلاهما سرطان في الدم لا يُرجَى منه شفاء ، عنيت : الحزبية والطائفية . فلا يكاد الطالب يبلغ الحلم إلا فاسداً مفسداً ، يرى في كل من خالفه ديناً وسياسةً عدوّاً طبيعيّا ، وقد تتمكن البغضاء في كل جارحة من جوارحه ، كما تتزمّن في كل ساعة من عمره ، فاذا قُدّر له أن يُصلّي ضرع الى الله أن يبيد كل مخالف له في عقيدة . ألا وإنّ الغُواة كانوا ، في جاهلية التاريخ ، ينحتون الأوثان ويعبدونها ، وها هم في جاهلية الفكر ، في صميم القرن العشرين ، عصر الطيّارة والذرّة ، والصاروخ ، يصوغون الآراء ويسجدون لها ، ويَتَنابذون من أجلها ، عبيداً ضالّين يسترقّون أنفسهم وقد براهم الله أحراراً .

أما ثالثة الاثافيّ فطغمة من المعلمين خَوَنة يتعيّشون بمال الخزينة اللبنانية ويكيدون لبلدهم . وقد قيل ملعون كل من يشرب من بئر ويرمي فيها حجراً ، وفي عرف الشرفاء يستوي في المقام نضال عن حرمة وطن وزياد عن مَحَارم ،

فمن تعهّر في الأولى فقد يتعهّر في الثانية . ولا تخلو المدارس الخاصة من بعض النقائص الفاشية في المعاهد الرسمية . بيد ان القائمين عليها أدقّ مراقبة وأكثر صوناً لسمعتهم ، فان لم يتشددوا حفاظاً على نظام وقياماً بواجب أدبي ، فعلوا طمعاً بكسب ، اذ ان الصيت الحسن أجلب للثقة والربح العميم .

ومن دواعي الأسف، ان تكون بعض المعاهد الخاصة أعرق في التجارة منها في العلم ، فهي بالمصبغة أشبه ، والى مَصَانع اليهود أدنى ، هَمُّها في الشهادة لا في حامل الشهادة ، ذلك الانسان المدعوّ للكفاح في ميدان الحياة .

في القول المأثور : ان السياسة ما دخلت شيئاً إلا افسدته ، فـاذا صحّت هذه التهمة في السياسة فانها في التجارة أصحّ ، وبالتجّار أليق ، ولا سيا اذا كانت المتاجرة تلوينا وصبغاً وإصدار سلع آدميـة ، ونتائج الصباغ أدمغة (أوتوماتيكية) آليـة صبّت في قوالب مقررة محشوة على غرار واحد ، لا أصالة فيها ولا عمق .

واتفق لي مرة أن فوجئت بزيارة أحد الموسومين بسمة (البكالوريا) بينا كنت أطالع كتابا لأحد فلاسفة العرب، وتفاديا من ضياع الوقت في الاستماع الى هذر لا ينتهي قبل منتصف الليل، كلّفت صاحبنا ان يقرأ لي تتمة الفصل فقرأ «وقال عزوجل في كتابه العزيز » ثم التفت الي وسألني من هو هذا عَزَّ وَجَلَ حاسباً الفعلين الماضيين المعطوف ثانيهما على اولها علماً لشخص خماسي الأحرف ، من وزان سَفَرجل وسَجَنجل وفرزدق ، فاستعدت الكتـاب يائسا وقلت له حدثنا عن السينما .

وذكرني ذلك الطالب النجيب ، المتوشّح بطراز (البكالوريا) المُعلّم بأستاذ في أحد المعاهد الأجنبية الخاصة ، عهدَ لم يكن لها مدراء مختصّون بالدروس العربية . كان ذلك الاستاذ آخذاً في شرح أمثولة مؤداها: ان فارساً لحق بعدوّ له وطعنه بالرمح فأخطأه وارتكز السنان في الأرض فترجّل الفارس ، ولشدّ

ما كانت دهشته حين رأى النصل غارزاً في ظهر يربوع لم يكد يبارح جحره . فتصوّر المعلم الغبيّ ان اليربوع اسم علم للفارس المنهزم . فجادله في ذلك أحد تلاميذه ، وكان أعرف من المعلم بشؤون اللغـــة ، فأخذت المعلم الجاهل سورة الغضب ، فأخمدها التلميذ للحال ، بأن فتح القاموس المنجد وفي إحدى صفحاته رسم اليربوع ، وقد كتبت دونه (اليربوع نوع من القواضم يشبه الفـــأر قصير اليدين طويل الرجلين وله ذنب طويل) .

ولعلّ أدهى الأمراض التي يُمنى بها سواد الأساتذة مرض الغرور . وربما كان لقب (استاذ) سبباً مباشراً في الزهو الذي يأخذ الرؤوس الجوفاء . أفـلم يخلعه المتنبي على كافور الأخشيدي في قوله :

ترعرع الملك الأستاذ مكتهلا قبل اكتهالٍ أديباً قبل تأديب

ألم يطلقه المطران بولس عواد ، وهو من هو في دولة القلم ، على القديس توما الأكويني ، كبير فلاسفة القرون الوسطى ، في ترجمة الخلاصة اللاهوتية فسمّاه (الأستاذ الملائكي) ترجمةً للعبارة الفرنسية (Docteur angélique) . ولكن هذا اللقب قد ابتـُذِلَ في لبنان حتى نُعت به كل ذي حرفة ، عـــدا العتـّالين والكنـّاسين ، ولم يُستثن منه ماسحُ الأحذية . ويطلقونه غالباً على الطبّاخين باعتباره مماثلاً لكلمة (أوسطه) وعلى سائقي السيّارات أيضاً . ولعلّ دُوار الكبرياء هو الذي يحملهم على غير أجنحة الملائكة ، فيطيرون بأرواح الناس .

ولقد أصبح الأساتذة الخليقون بهذا اللقب ، كالمحامين والقضاة والمُجازين في الأدب والفلسفة وأمثالهم يؤثرون أن يخاطبوا باسمائهم المجردة . وفي ذات يوم دخل علي أحد أصحابي فقـــال مازحاً : « يا خواجا صباح الخير » ، فقلت اني استخفّ بكل الألقاب ، ولا سيا بهذا اللقب التركي ومعناه : معـــلم في أحد الكتاتيب ، غير أني أوثره على لفظة استاذ .

وقبل الدخول في صلب موضوع (غرور المعلمين) ، دعني ايها العزيز فادي أقصّ عليك الحادثة التالية :

دعيت مرة الى حفلة مدرسية في أحد الأديار الجبلية ، وكان رئيس الدير يرئس المدرسة أيضاً بصفة كونها تابعة له اقتصاداً . وكان صاحبنا الى الأميّين أقرب منه الى المتعلّمين، غبياً مزهوّاً بنفسه ، فارغاً من الذكاء ، حافلاً بالخيلاء ، يدّعي المعرفة الشاملة بدءاً من حراثة الأرض الى دوران الكواكب السيّارة ، الى السياسة العالمية ، لا يفوته منها حرف واحد . ولم يكن بين المُقرّبين اليه من يثنيه عن حماقته ، لِما يعلمون من اعتداده برأيه .

فلما انتهت الحفلة اعتلى الرئيس المنبر وارتجل خطبة باللغة الفرنسية ، وهو لا يدرك منها أكثر مما تعرف الطبّاخات اللبنانيات اللائي استخدمهن الفرنسيون في عهد الانتداب ، وأبدى طائفة من الآراء والأحكام الاعتباطية في خطبته السخيفة . ولقد أجمع المستمعون على التصفيق . ومنهم الجادّون وهم دونه معرفة ، ومنهم الهازلون وقد يسّر لهم أسباب الضحك والتنادر مجّاناً ، بدون عناء . ولما ارفضّ الجمهور دعاني الى غرفته وسألني رأيي في خطبته ، فصارحته بمثل جرأة الجراحيّ الذي يعمل المبضع في الدُمّل ولا يبالي . وأعلمته ان كلامه أحطّ ما سمعت أذني ، وان وظيفته المزدوجة في الرئاستين لا تستتبع الفصاحة ، فإن العلاّمة أنشتين ، مثلاً ، ليس خطيباً ، وان بوسويه ، وهو أخطب من رقي منبراً في أوربا ، كان يُعِدّ مراثيه ويتعهدها بالصقل والتجويد . ونصحت له ألاّ يبدي رأياً فطيراً ، ولا سيا في الشؤون التي يجهلها كلياً او جزئياً .

وانما رويت هذه الحادثة يا بنيّ لأن فريقاً كبيراً من الأساتذة يشبهون الرئيس المزدوج . يأخذ واحِدَهم الغرور ، لأنه اذ يجلس على كرسيه في قاعة الدرس ، يكون الأعلى مقعداً وسنّاً ومعرفة ، فهو الذي يأمر وينهى ، وعليه ان يتكلم ، وعلى الطلاّب أن يسكتوا متى شاء ، وينطقوا متى شاء ، فاذا وجّه أحدهم اليه

سؤالاً أخذته العزة ، وأصدر من على المنصة حكما مبرما ، صائبا كان أم طائشا ، فهو قاضٍ منفرد يقطع بالرأي غير ملتزم بمشورة ، ولا استئناف ثمة ولا تمييز .

وأشد ما تكون الأحكام الاعتباطية خطراً ، حين يُسأل المعلم عن أديب مازال في الأحياء، حينئذٍ يكون الحكم كما يكون المعلم ، عادلاً او جائراً أو سخيفا ، وغالبا ما يتبدل الهوى بتبدل العلاقة بين الحاكم والمحكوم عليه غيابا. فاذا كانت نظرة الرضا فالمسؤول عنه يرفع الى مرتبة شكسبير ، فاذا ادلهمّ الجو بينهما يُحَطُّ الى رتبة ابي العتاهية .

ولقد سئل أحدهم عن عملاق من شعرائنا ، فاتّهمه بالحماقة وصبّ عليه من الشتائم أكوابا مُترعة ، وبعد ان فرغ من المقامة (السبابيّة) نشر من جيبه ورقة سوّدها فسوّد وجه الشعر ، وتلا على تلاميذه أبياتا مقفّاة غير موزونة ، لجهله بالعروض ، مشيراً الى محاسن لا وجود لها إلا في خياله السقيم .

ومما يؤسف له ان سواد المعلمين يجهلون العروض وأساليب الاستقراء والاستنتاج ، في دراسة الآثار الأدبية ، وتراهم ، عملاً بمبدأ الجهد الأدنى ، لا يحذقون سوى الجانب الروائي منها فيتلونه إنقاذاً لمنهاج ، أو يقصّونه سدّاً لفراغ ، فِعلَ القَصّاص ، يتحلّق من حوله السامرون في مقهى وضيع ، في ليله شاتية . ومثل هذه العصبة من المعلمين يستغني عنهم طالب يقتني سيرة الشعراء القدامى ، فيطالعها مستنداً الى جذع سنديانة ، متفكّهاً بمجونيّات امرىء القيس ، وغلمانيّات ابي نواس .

ولقد عُرضت قصيدة ، لشاعر معاصر ، على أحد هؤلاء المستبدّين بالرأي والمقياس والذوق ، وهي على البحر الخفيف وتفعيله :

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن   فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

فجزم انها معتلّة الأوزان ، وانما الاختلال كان في دماغ صاحبنا الذي

يجهل ان مستفعلن تُبدل (بمفاعلن) . فلما علم ناظم القصيدة بمقدار غباوته ، أنفذ اليه من يطلعه على قصيدة لشاعر قديم ، من البحر نفسه ، وفيها الجوازات نفسها . فتهيّب المعلم صيت الشاعر المُتَواري ، وجزم بصحتها . ولا يخفى ان للقديم روعته مهما سَخُف ، لأنه مؤيّد بالتقاليد التي وثّقها الزمان ، ولأن للموتى ، الذين لا يرقى اليهم الحسد ، سلطاناً على الأحياء ، ولكان ذلك الأستاذ الغبيّ ظـــل نبيلاً في نظر تلاميذه ، لو صَرّح انه ليس بشاعر ، وانه يجهل العروض، فليس إتقانها شرطاً ملزماً، ولكننا نحن الشرقيين مُبتَلون بالسطحية وسهولة الادعاء .

ولقد نقل الي دكتور في الفلسفة انه في اثناء تحصيله العلم بباريس ، افتقر الى بعض معلومات خاصة بالفيلسوف عمنوئيل كنط ، فهداه بعض أصحابه الى أستاذ اختصاصي في هذا الشأن ، فشخص اليه ، فاعتذر العلاّمة محتجاً بأنه لم يمر عليه سوى سنتين في دراسة كنط ، فما قول رئيس الدير الخطيب ، وما رأي المعلم الدعيّ في وداعة العالم الأوروبي ?

ولا يساوي الأساتذة الأغرار الا النُقّاد السخفـاء ، وأول ما يفترض في الناقد العدل ، أن يكون أديباً ثبتاً واسع المعرفة ، واقفاً على مذاهب الفكر ، عليماً بمناهج البيـــان ، مُنزّهاً عن الهوى ، ومثل هذا الأديب اللوذعيّ نادر كالصديق في يوم ضيق . ومعظم نُقّادنا شبّان مولعون بالتهديم والوقوف على الأنقاض ، إما استجـــابة لنزعة صبيانة ما فتئت مستمرة في طبع الشاب منذ تناول الدمى فكسرهـا وبعثر أجزاءها ، وإما التماساً لشهرة مماثلة لشهرة من يكسر مزراب العين فيحرم المستقين من الشرب والريّ .

ولا ضير على أعلام الأدب ان يتجردوا من الحسد فيشهد بعضهم لبعض برفعة المكانة، فيتمادحون صادقين، وان جنحوا بعض الجنوح عن صراط النقد العلمي. وان ما يصح في مشاهير الأدباء لا يصح في مثـــات الناشئين المغمورين الذين

يتقارضون الثناء ويستوفونه مع الربا الفاحش ، ولم يطلعوا بعد على المكتبة العربية ، بكتاب واحد . ولقد علّق أحد الظرفاء على النكرات الألى يستوي بعضهم لبعض ظهيراً فقال : عصافير تكفل زرازير وكلهم طيّارون .

ولقد أضحكني مرة كاتب نكب به القلم ، وقد جاوز الشباب الى الكهولة ولمّا يَتُب . فقد تناول الشعراء بالمفاضلة حينـــا وبالذمّ أحيانا ، ثم انتهى به المطاف الى تأمير واحد منهم يأتي في صفوف الدرجة الثالثة من أهل القصيد . وأعجبني من صاحبنا صراحته إذ أعلن ، بكل غباوة ، في آخر المقال ، ان ليس له من جليس في كل صباح سوى ذلك الناظم . ولو أضاف انه لم يقرأ لسواه لصدق . وخطر لأحد اصحابي ، وهو نسيب له ، أن يفنّد المقـــال ويصلحه معنًى ومبنًى ، فقلت هوّن عليـــك يا أخي واسمع هذه النادرة ثم افعل بعدها ما تشاء .

زعموا ان احد المستشرقين خـــلا بأديب لبناني وكلّفه أن ينقّح محاضرة أعدّها فأصغى اليه فافتتحها على هذا النحو : الحسن والحسين بنات معاوية ماتوا في اسطنبول .

فاستوقفه اللبناني سائلاً : أكلّ المحاضرة من هذا الطراز ؟ فأجاب نعم ، فقال طال عمرك ماذا عساني ان أصلح ، ان الحسن والحسين هما نجلا الإمام علي لا بنات معاوية ، ولقد مات الحسن في الحجاز وقتل الحسين في كربلاء فكيف دفنتهما في اسطنبول ، فأنصح لك ان تطرح المحاضرة برمتها . فضحك صاحبي وعدل عن إصلاح الناقد السخيف .

وما دمنا في صدر سخفاء النقاد ، فقـــد يخطر ببالك يا بنيّ ، بحكم تداعي الأفكار المتجاورة ، أن تسائل نفسك عن سخفاء الأدباء ، إذ ان بين الفئتين جداراً غير صفيق ، أجل ان بين أهل القلم لطائفة من الشواذ ، وعِلّتهم تداني المرض العصابي المعروف بجنون العظمة اذا استفحلت ، فاذا كان الداء في طوره

الأول سمي زهواً وعنجهية ، او تفيُّشاً وغروراً ، فتراهم يستقطبون الأنظار تدعيما لأنفسهم الهاوية ، إذ لا مِسَاك لها من داخل ، فيؤيدونها من خارج بأتفه الوسائل وما يبالون ، ولو أدرجهم العقلاء في الحمقى . فقد يطلعون عليك بزيّ غريب يذكرك بسخرة المرافع ، يتعمدّون المشي سادرين أو متباهين ، أو يطلقون شعر هاماتهم حتى ليتجعّد من فرط القذارة ، أو يحملون مخَاصرهم على نحومعلوم زاعمين انهم أتباع سارتر ، وهم لا يدركون من فلسفته الا الوسخ.

وأنكى من هذه المهازل المُتحيّزة في مكان معلوم ، تلك المضحكات المبثوثة في الصحف ، عنيت الألقاب الجوفاء يخلعها الأدباء على أنفسهم ، فيقدّمون بها لقصائدهم ومقالاتهم ، ولا يخجلون أن يخطّوها بأيديهم ، ويحتلّوا مقاعد إدارات الصحف لهذا الغرض ، ويُلحّون في الطلب كأنما يتسوّلون رِفعة المقام ونَبَاهة الصيت ، فواحد يدعى أمير البيان ، وآخر يسمى أديب الشرق، أو أديب الضاد وأشباه تلك الولايات الوهمية التي يقتتلون عليها ، فِعلَ اليتامى العراة ، يتجاذبون الغطاء ، في ليلة قارّة .

ودولة الأدب ، في ما اعلم ، ديمقراطية تهزأ بالأباطرة والأرباب فإن ترتفع لهم عروش وأرائك فإنما يرفعها الزمان ، وتكون الأجيال عمداً لها، فما يستوي عليها حيٌّ أبداً . ألا ترى ان شكسبير وغوته وراسين والمتنبي وهوميروس والفردوسي لم يستقروا على رفارف الخلد إلاّ أمواتا ، فكانت الأيام داعية لهم بفم الحق وحده ، لا بأقلام يُسترضى حَمَلتها – وسوادهم صبية أغمار وأبواق تردّ الصدى – بوليمة أو مَلَق أو كأس خمر، فتكون الأقداح الراقصة منطلقاً للعربدة والتقويم والأحكام المرتجلة .

قال المتنبي : وإذا اتتك مذمتي من ناقص

فهي الشهادة لي بأني كامل

وشهادة المغفل كمذمة الناقص سواء بسواء .

ولقد صادفت في ليلة ساهرة متأدباً مُدلـّساً حذق المصانعة على يد أديب أتقن المظاهر السلطانية التركية فرحّب بي ، ولقـّبني بهوميروس العرب . فشكرته ورددت اللقب ، يقينا مني بأنه يجهلني اكثر مما يجهل صاحب الإلياذة ، فقصارى أمثاله الاستمتاع بغزل دنيء ، هو الى تشريح الإناث ووصف ملابسهن الحميمة ، اقرب منه الى تجسيد الحسن وإلحاقه بالجمال الأزلي . وأفهمت صاحبنا ان درس الملحمة يقتضي جهداً وعلماً ومنزلة لم يزل هو دونها، وان الله لايكلـّف نفسا الا وسعها . وقد تعجب يا بني لاني أقحمت مثالب النقاد والأدباء في فصل المعلمـــين ، وقاربت بين معايب هؤلاء وأولئك ، وانما فعلت لأن الأدباء والنقاد ايضاً في الاساتذة فان احسنوا ، فيا نعم ، وان أساؤا فبئس المصير .

وإنما اطلت الوقفة على المربّين علماً مني بمكانتهم الفريـــدة ودونها مكانة الأبوين ، فالطالب – ولا سيا في الطفولة– يعتقد بعصمة المعلم. فاذا كان الأحداث من البَنَات اللواتي قارَبنَ البلوغ أو جاوزنه قليلاً ، فالمعلم، والمعلمة، في نظرهن، من الآلهة التي تعبد ، او على الأقل – من المُثـُل التي يُقتـَدَى بهـا ، حتى لتجد مئات التلاميذ مطبوعين على غرار معلم واحد ، كالنقود المتداولة ، ومتى ذكرنا ان شخصية المرء تتركـّز في سني الفتوة ، أدركنا مدى تأثير المربّين في الطلاب .

وكأيّن من فتاة كـَلِفت بمعلمتها الراهبة فتركت العـــالم ومباهج الصبا ، وودعت أحلامه الخضر ، وأصبحت راهبة برغم أهلها ، غير آبهة لدمعهم وتهديدهم ، فـلم يُغْر ِها خاطب ندر أنداده جمالاً ومالاً . وكم توهّمَتْ ان زهدها في الدنيا كان من أجل عريس إلهيّ هو يسوع، ولو انها سبرت أغوار نفسها، لعلمت ان الهوى العذريّ الذي صرفها عن هذا العالم وأُبهتّه وأباطيـــله ، كان اقتداء بمعلمة او رئيسة شغفها حبها حتى لا حب سواه ، وانها قبل هيامها بالزوج السماوي علقت العروس الأرضية : الراهبة .

في بلد العرار

قال ابن الدمينة :

تمتّعْ من شميم عرار نجد ... فما بعد العشيّة من عرار

وقال صاحب اليتيمة :

إن أتهمت فتهـــامة بلدي ... أو أنجَدْتَ إن الهوى نجد

وقال المتنبي :

نحن أدري وقد سألنا بنجد ... أطويل طريقنـــا أم يطول

وكثيرٌ من السوآل اشتياق ... وكثير من ردّه تعلـــيل

على هذا الضرب من الشعر تفتّح ذهني في مطلع الشباب الأول ، ولعلّ لفظة نجد ، الخفيفة على المسامع، استهوتني فوق ما استهواني سواها من الأمصار العربية . ولا غروَ فإن من الأسماء ما يروقك ، ومنها ما يُنفـّرك ، لغير ما سبب متعلق بالمسمّى ، سواء في ذلك أعلام الأشخاص أم أعلام البلدان . فإن علقمة والشنفرى والطغرائي ودُعيبس وصعصعة وعكرمة من أعلام الذكور ثقيلة على الأذن . وكذلك القول في بثينة ودبورة وبرباره وقطّوره وسنجر وخرمه وخرستينا من أعلام الإناث . ويثقل من أسماء الأمكنة عنجر وطبّابا

وجبشيت وقعيقعان ، ويخفّ على القلب من أسماء الإناث ليــلى وهند ونجوى وحياة ولبنى ودنيا وعائده وناهده وسمر ورندلى ، ومن أعلام البلدان حلب وبغدان والرياض والرها. ولقد أوردنا ذلك من قبيل التمثيل لا من قبيل الحصر.

وإنما نجد والحجاز تثيران في نفس أيّ أديب عربي ذكريات غوالٍ أشرقت من مطلع الضاد ، واللغة ، بعدُ في ضحاها . فمن هناك انطلقت بالشعر العنادل الأبكار ، وبلغة عدنان سجع وَطرّب كل بلبل غرِد ، فكانت الكثبان بين وادي العقيق ، وسِقط اللوى ، ومِنى ، وذي سلم ، والَخيْف ، منابت القصيد الأغرّ الذي حدا به سائق الأظعــان ، وما برح يراود راكب الطائرة أو الصاروخ ، إذا جاورته الى القمر قمراء نوّرت الفضاء ، فناجاهــا بشعر أخي كندة حيث يقول :

أجارتنا إنـّا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب

ولقد صحّت عزيمتي على زيارة نجد وفي خاطري منها صورتان . أما الأولى فمليئة بأشباح الفرسان وأرباب المروءات والندى ، في بلد أجدبت أرضــه ، وأخصبت نفوس بنيه ، ولاح لي جبلا أجا وسلمى ومنازل الطائيين ، وقد سمق بين الجبلين طود بَذّ كليهما ، عنيت حاتماً ، ذلك الموصوف الذي أضحى صفةً ، فيقال، مثلاً ، في باب تعظيم السخيّ ، فلان الحاتميّ . وتخيلت أبا عديّ مشتملاً بعباءته في زاوية المضرب ، مغتبطاً أنه يبيت على الطوى وقد نحر للضيوف آخر بعير له ، فأقبلوا بالشفرات على السنام يتقاسمونه حنيذاً[1] ، فذهبوا باللحمان ، وذهب حاتم بالصيت الذي لا ينقضي ما انفتحت للسخاء يدان .

وتراءى لي الطائي الثاني زيد الخيــل ، وهو في مرتبة عنترة وربيعة بن المكدم ، وفي هذين الطائيين قلت في ملحمة عيد الرياض :

---

١ – حنيذاً : مشويّاً .

طودَ سلمى ، وهل يردُّ ندائي   أبلقٌ من ترابه العُظماءُ

دلَّني ابن حاتم ، ولئن تصمت ، يُجبني من الضريح السخاء

قبره حيثما تجود المراعي   ويطيب النميرُ والأفياء

حيث لا تَصدُرُ الشِفاهُ ظِماءً   حيث لا يُخمِصُ البطونَ الخَواء

أقسم الجودُ ، بالذي في ظلام الرمس ، ألاّ تجوزه عجفاء

أشبعَ الأرضَ حاتمٌ وهو حيٌّ   ولها منه في الضريح غذاء

قبرُه حيث لا يمرُّ جبانٌ   طرحته زنيمةٌ لكعاء

حيث تستوقف المناجيدَ ذكرى   ويصدُّ الأنذال والبُخلاء

• • •

طود سلمى فتّح ورودك واذكر   أسداً باركت عليه السماء

بلسان النبيّ سمّتهُ زيدَ الخير ، فاخضوضرت به الغبراء

جاوزَ السهريّ بَسطةَ أجلادي[1] ، وما فيه بالطعان انثناء

يطأُ الأرض راكباً ، فعلى متن المغيرات فارسٌ مَشّاء

يتبارى الكُميتُ والوردُ والهطّال[2] فالساح نشرة وانطواء

وتنقّل خيالي بين (مِرّات) ، موطن امرىء القيس ، وجبل الريّان ، ذلك الشعب الخصيب ، وفيه يقول جرير من نونيته المشهورة :

---

١ – اجلاد الانسان : جسمه واعضاؤه .

٢ – الكميت والورد والهطال أسماء جياد زيد الخيل وانما سمّي بها وبخيلاتها . ولما أسلم سماه النبي زيد الخير لما اشتهر به من مآثر .

يا حبّذا جبل الريّان من جبل وحبذا ساكن الريّان من كانا

وهو الذي حنّ الى أهله الشريف الرضي فقال :

أيا جبل الريّان إن تَعْرُ مِنهمُ فاني سأكسوك الدموع الجواريا

وأمعنت في التجوال مصعّداً فكري من الريّـــان الى وادي الرشا ، بين جبال شهلان ، فكدت أنشق فوح العرار . وتمادى بي حلم اليقظة حتى بلغت (مَرّان) وهي منازل بني هلال التي وصفهـــا ياقوت بقوله : إنها قرية غنّاء كبيرة كثيرة العيون والآبار والنخيل وفيها يقول الشاعر :

مررنا على مرّان ليـلاً فلم نَعُجْ على أهـل آجام بهـــا ونخيل

ولاحت من وراء العصور ، أو من خلال العجاج وبريق الأسنة ، رؤوس الهلاليين، وفيهم أبو زيد بن سلامة ، وقد استوى على متن الحمراء سَدَفةً من الدجى ، لولا ابتسامة تشفّ عن ثنـــاياه البيض ، فتعلن انه قائد السرايا ، لا ينفك يبتسم ولو عبّست الخيل فأقدمت شائلات العسبان جهم النواصي . والى جانب ابي زيد يكرّ الفارس الأشقر دياب بن غانم ، ودونه فرسه الخضراء كأنها الربيع لامعاً في صميم النقع الأكدر .

· تلك الصورة ، على ما يشوب خطوطهـــا من أساطير ، كانت حبيبة إلى نفسي .

بيد ان الصورة الثانية ، وهي الحقيقة مجردة ، رانت على الأولى ، فتصورت نجداً لحصان عبد العزيز ملعباً ، وميادينها لسيفه منفرجاً بين القصيم وحايل ، وازدحمت في مخيلتي الوقائع التي خاضهـــا أبو تركي ، وقد تعددت الأعداء من عرب وعجم ، وفيهم الترك ، ومن ورائهم سلطان يلدز . فعجبت لأسد الجزيرة الذي انطلق من الكويت بجفنة من رجــال ، وقافلة من أباعِرَ هزيلة ، تنوء

بيسير من زادٍ جافٍّ ، وقِرَبٍ أسِنَ ماؤها ، وسلاح أخلقه الزمن . عجبت أيّما عجب لذاك الفتى الذي ملأ صيته الشرق والغرب ، في بضع سنين ، بعد إذ كان شريداً ، تارة في بني مرة صابراً على خشونة العيش مُصْفِرَ اليد كالبادية ، وطوراً على ضفاف الخليج قلِقاً كالبحر الصاخب ، ويا طالما نامت الأمواج وظلّ قلبه ساهراً حالِماً باستعادة العرش السليب ، وإقراره على أمتن الدعائم ، التي ركزها بطل عربي في العصور الحديثة .

صحّت عزيمتي على زيارة الرياض ، الأجمة التي ولد في ظلها ابو تركي ، والدرعية مهد أجداده ، فأبديت رغبتي لشبل العرين صاحب الجلالة الملك سعود ، فأتاني الجواب ، في أواسط نيسان سنة ١٩٦١ مرحباً بي وبولديّ نهاد وسهاد ، بصفة كوننا نحن الثلاثة ضيفاً على جلالته . فجئت السفارة السعودية في بيروت لإنهاء بعض أوراق الرحلة .

وقابلت السفير الجديد ، سعادة الشيخ سعود الدغيثر ، على غير معرفة به سابقة ، فلقيت من بشاشته ما قرّبه الى نفسي بضعة أعوام . وأدركت ، بلمحة خاطفة ، أنه أحد النبلاء الذين تهزهم الأريحية ، وتنطوي جوانحهم على شمائل العرب الخُلّص المؤمنين بالحضارة ، الناجين من مفاسد مدنية زائفة هجّنت الأخلاق والوجوه العدنانية. ثم علمت بعد عودتي من الرياض أن فراستي لم تخطىء ، فالشيخ سعود ينمى الى الدوحة السعودية المتصلة بوائل ، المنتهية الى عدنان ، وهو من أبناء الدرعية قاعدة الوهابية والسعودية معاً ، أي من صميم العارض الذي ما انفك درعاً للمملكة من عهد سعود الكبير الى يوم الناس هذا . وكان في طليعة أولئك الأبطال (العارضيين) الأنجاد الشيخ عبد الله بن حسن الدغيثر ، عمّ السفير النبيل ، فلقد خاض المعامع الى جانب ابي تركي ، وكان يقدم اذا احمرّ البأس وأحجم الذين في قلوبهم مرض . وهو الذي صرع ابن الرشيد في المعركة الهائلة التي قامت في روضة مهنّا ، وقد وسمتها في الملحمة

(بمصرع النمر) . وبمصرع ذلك الفارس الضاري سقط عن كاهل السعوديين وقرٌ يفدح الظهور . ومما وصفت به ابن الرشيد في مصرعه ذاك قولي :

وخَلاَ السرجُ من كميٍّ شجاعٍ صيتُه كان يرعب الأقيالا
طالمَا أطْرَب السيوفَ وحنَّاها وبالورد خضّب الآصالا
إيه يا ابن الرشيد ما كنت نذلاً بل أصيلا جدّاً وعمّاً وخالا
كنت في الناس ! لا فما كنت إلا عاتياً رام في الأنام اعتزالا
لاثماً وَجْهكَ العبوسِ غليظاً لا رَحيماً تُرى ولا وصّالا
سيقولون كان نيرون نجدٍ جوره بات يقلق الأجيالا
حَجّب الظلمُ ما أتى من بطولات فلاحتْ خلف المعاصي ضِئالا

وفي صبيحة اول أيار سنة ١٩٦١ الموافق ١٥ ذي القعدة ١٣٨٠ أقلعت بنا الطائرة من بيروت ومعنا زوجتي ، وقد اعتراها خوف شديد لمّا انفصلنا عن الأرض ، وكان ذلك اليوم أول عهدها بالسفر الجوّي . أما انا ، ولم أنم تلك الليلة، فطردت النُعاس وفتحت أجفاني على الأرض أشد ما يكون الانفتاح ، وشهدت عرس الطبيعة في أجمل ما تزدان به المروج من مطارف خُضرٍ في سهل البقاع ، وأوْشِحةٍ بيض في صرود الجبال ، ثلوج تبترد فيها عين الشمس ، على قنن بعضها من قرمز وسائرها من لازَوَرْد ، فتموّنتُ من تلك المباهج ما شاء الادّخار – وان كنت في غير ادّخار الحسن غبيّاً – يقيناً مني بأنّا مقبلون على صحارى ، بيد انه كان للقفار نفسها ألوان من الجمال في ذلك الصباح الضاحي ، وقد تمادت الآفاق فتخالها تلزّ باللانهاية . فاذا كانت الشمس ترسل ضفائرها في الثلوج لتبترد، فانها على الكثبان تتعرّى فتستحمّ في مثل التبر السبيك، وتسيل في المنحني عقياناً يتوهج ، فاذا تلهّبت في شعاب الحرة حسبتها « نار الله الموقدة ، التي تطّلع على الافئدة » .

وبعدما سارت الطائرة قرابة ساعات خمس ، وكأنهـــا لم تتحرك لفرط استوائها في سكاك الهواء ، شرعت في الهبوط وئيداً ، فكأننا في زورق يترجّح على أديم العباب . ولمحت اخضراراً يأتلق في عنق البطحاء ، فعلمت أنه وادي خنيفة ، واننا أشرفنا على الرياض ، وها هوذا المطار .

وكان الهبوط كالإقلاع ليّناً ، وكانت برقيـــة سعادة السفير قد سبقتنا الى الرياض ، فما ان فتح باب الطائرة حتى صعد اليها السيد عدنان الأرنب موفداً من دائرة التشريفات الملكية للترحيب بنا . فلما نزلنا وجدنا الصديق الكريم سعادة الشيخ عبد الرحمن الحميدي واخاه محمداً في انتظارنا . ثم اقبل الصديق الشاعر معالي الشيخ عبدالله بلخير . ولولا الهواء اللافح الجاف ، والزيّ العربي الشامل ، لحسبتني على مطار بيروت في هالة من الصحب والأنسباء . وبلغنـــا فندق اليمامة حيث حُجِز لنا جناح لا يقلّ فخامةً وأناقةً عن الفنادق اللبنانية الراقية . ووضعت في تصرفنـــا سيارة خاصة بالتشريفات الملكية لزمتنا في مقامنا اسبوعا كاملا .

ونمت بعد الغداء ساعةً فنهضت من القيلولة نشيطا ، فأدركت ان بعلبك صورة مصغّرة عن الرياض بجفاف مناخها ، وحرّ نهارها ، وطيب عشاياها .

ولقد علمت بالأختبار ان المناخ الصحراوي هو اليّ رسول عافية ، لذلك تراني أوثر المقام في زحلة وبعلبك وما شاكلها ، على أي بلدة في لبنان ، وإن تَغَنّى سواي بالهواء العليل والنسيم البليل ، ولعل السجعة المتوازنة حبّبتهما حتى الى المصدورين ، مع أنهم الى الجفاف أحوج . وليس كالجوّ الصاحي باعثا في ذهني الصفاء والتوق الى التحدث ولو مكثراً . وإخواننا في نجد يرعون حرمة الغريب فيأنسون به وينصتون اليه ولو كان في لسانه لُكْنَةً فكيف به اذا كان بشراً سوياً .

ونهضت في الصباح المبكر لِتجْوالٍ في المدينة مصحوباً بعائلتي ، وكانت

السيّارة تجتاز شوارع معظمها جديدأفيح. وأدهشني في الرياض نهضة بنّاءة ترفعها الى مستوى الحواضر النادرة ، فهذه أبنية الوزارات مجلوّة كالعرائس ، ينظمها مخطّط واحد ، فيتيسر لأصحاب الحاجات قضاؤها في أقصر ما يكون من الزمن . وهنا جامعة الملك سعود ومستشفى الملك عبـــد العزيز ، وفيهما من الرونق والفخامة ما يبيّض وجه العمران القائم على مثل أجنحة النسور ، في ظل صاحب الجلالة ، الملك الساهر على صحة شعبه بما يشيد من دور للاستشفاء ، وعلى تنوير قومه بما يبني من معاهد للعلم، يعطى فيها الطلاّب مرتباً شهريا حضاً لهم على الدرس وتحصيل المعرفة .

وبلغ بنا الطواف آخر المدينـــة فشاهدت أكمةً عليها صخر مخروق كأنه القنطرة ، فسألت رفيقنا الجمّ اللطف، الرفيع التهذيب ، السيد عدنان الأرنب عن هذه التلّة فقال : هذا جبل (بَمَخروق) ولا بأس على سكان السهول أن يسمّوا ذلك اليفاع طوداً ، فليس المطلق من هذا العالم ، بل كل ما فيه نسبيّ ، ألا ترى ان المصريين يدعون رابية المقطم جبلاً؟ وتذكرت ان لفظة (بَمخروق) ليست جديدة على اذني ، فنبشت حافظتي ، فذكرت هجوم ابن الرشيد على الرياض ليلاً وعبـــد العزيز غائب ، يوم صدّه الإمام عبد الرحمن ، وذكرت قولي فيه :

وإذا (شمّرٌ) بضلع (بَمخروقَ) وبالنخل والرياض استداروا

جَنّتهُمْ حالِكٌ تَعالى سُدولاً حبكـُهُ مُحكَم النسيج مُغار

وكاد النهـــار ينتصف ونحن في الطواف ، وارتفعت الهاجرة فأحسست الصحراء في وطيسها وأنا في صميم المدينة . وما كنت اعرف من امر الحرّ إلا ما اقرأه في الكتب . وما أعانيـــه في بعض الساعات من صيف بيروت . اما المعمعان الذي لفحني يومئذ ، فلم اشهد نظيره في حياتي ، فقفلت راجعاً الى

الفندق ، وأدركت قيمة مكيّف الهواء في غرفة منامي . وفهمت اعمق ما يكون الإدراك شعر عنترة حيث يقول :

ولقد شربت من المُدَامة بعدما رَكدَ الهواجرُ بالمَشُوف المُعْلَمِ

فما أحكم الغريزة التي عصمته من لاذعة الخمر في شدة القيظ ، وصرفته عن الكأس حتى ركود الحرّ ، إذ لو اجتمعت عليه نار الهاجرة ، وسورة الصهباء التي احتدمت فجاشت في الدنّ ثم هدأت على ضيم ، لهلك صاحبنا ، ولخمّشت عبلة خدّها لوعةً على الفارس الاسمر . .

يومئذٍ عذرت العرب على كلفهم بالثلج والبرد والماء ، تلك القوالب والصور الشائعة في ادبهم . من مثل قولهم في باب الصبابة (ريقها الأشنب) و (حديثها أثلج كبدي) أو (نزل على فؤادي برداً وسلاماً) . وفي باب الرثاء والترحّم على الميت (برّد الله ضريحه) و (أمطره شآبيب الرحمة) وفي باب الذكريات (سقى الله تلك الايام) هذه التعابير ونظائرها تدلك على توق سكان الجزيرة الى الظلال والندى والماء السلسال ، ويا طالما شربوه آسناً أو نشدوه في لحاء الشجر واقتتلت عليه فرسانهم فخضّبوه بالدم عبيطاً ، بئس الشراب مزاجه من دم الإنسان . ولقد تولّهوا للينبوع فأضحى علماً به سُمّيت واحدة من أنبَهِ قبائلهم صيتاً وامتداد صولجان هي غسان، وحفلت به لغتهم فاشتقوا من العطش مجازاً لحرقات الهوى فقالوا هائم وهيمان .

وتكاد لاتجد شاعراً عربياً تخلّى عن هذه الجمالات المائية من مثل الطلّ ، والمنهل ، والمورد ، والغدير، وكل ما يشير من قريب وبعيد الى نعيم الأفياء والماء . ولو ان شعراءنا ولدوا في القطب الشمالي لما تمنّوا الا الشمس والمناخ الحميم .

في الحضرة الملكية

عدت الى الفندق ، وفي الساعة التاسعة (توقيت الرياض) أقلّتنا السيارة الى الناصرية ، وهي مجموعة القصور الملكية ، يحوطهـا سور طوله ثلاثة عشر كيلومتراً ، وتحفّها الرياض الحدائق ، وبلغنا قصر الضيافة الذي تجمّعت فيه روعة الشرق فخامةً وبشاشةً ورحابة مَدَارِج وأبهاء . ولقد شرّفني صاحبُ التاج بالجلوس الى جانبه ، وسألني عن صحتي وهنأني بالسلامة وأضاف : كيف وجدت الرياض ، لقد تغيّرت عمّا ذكرته في ملحمتك ، ولكننا أبقينا قصر عجلان[1] فهل زرته فقلت غداً انشاء الله .

وأسرَّ الى جلالته مدير التشريفات الملكية أني أعددت قصيدة لهذا اللقاء السعيد ، فالتفت الملك إلي وقال « تتكلمون على العشاء ، ما يخالف » ونهض جلالته وأبلغني مدير التشريفات أني مدعوٌّ مع ولديَّ نهاد وسهاد للعشاء في المساء عينه . وبعد الغروب تشرفنا بالجلوس الى المائدة الملكية التي جمعت أناقة الغرب الى سماحة الشرق العربي .

---

١ – هو الحصن الذي احتلّه أسد الجزيرة الملك عبد العزيز وكان فاتحة النصر . وفي الوقت نفسه ولد صاحب الجلالة الملك سعود في الكويت وبسبب هذه المصادفة المفرحة المزدوجة دعوت ملحمتي (عيد الرياض) .

وأعطيت الأذن بالكلام فوقفت وألقيت القصيدة التاليـــة ، التي اذيعت مسجلة بصوتي ثلاث مرات متواليات من محطة جده :

من مَلاعبِ الأرز فوَّاحاً وريَّانا ... جئنا نَبُثُّ روابي نجدَ نجوانا

يا واحد الشرق ها لبنان جاء معي ... وحُبُّ آل سعود ملء لبنـــانا

من فوق طائرةٍ ، بالشوقِ سابحةٍ ... فالريح لانَت ، وعاتي أمرها لانا

كأننا عبرَ وادي النملِ كوكبةٌ ... تحفُّ للملأِ الأعلى سليمانـــا[1]

نزلتَ بالأمس لبنانـاً وأقعـدني ... داءٌ سقـاني من الأرزاء هَتَّـــانا

حُرِمْتُ فرحةَ عيدٍ أنت بهجته ... كالطيب شاعت وغنَّت في زوايانا

صديقَ نفسي ، صديق الشامخات ذُرىً

حيَّـــاكَ ألف عبيرٍ من عشايانـــا

فللدوالي بسمع الليل وشوشةٌ ... يمدُّهـا الفنُّ الميَّادُ ألحـــانا

إذ كلُّ همسٍ يراه القلب عندلةٌ ... وكلُّ تلٍّ يراه الطرف نيسانـــا

كأنما العيدُ أبياتَ القصيد غدا ... يزهو فيخلق في الأشياء ألوانـــا

وذاك ان سعوداً كان مطلعها ... فأصبح الصخر غبَّ الروض نديانا

ونحن من جبلٍ حظُّ النبيل به ... أن يلتقي في الصدور الشُمِّ أوطانا

بنو سعودٍ حُدودُ الخيرِ حدُّهُم ... فحيثما شخصوا يلقون خـــلاَّنا

• • •

---

[1] ـ إشارة الى سورة النمل وبساط الريح .

أعزِزْ بِمَلْكٍ شعاع المجد هالتُه ... يُنمَى لِمرخانَ[1]، أو أجداد مَرخانا[1]

همُ الألى بدعوا في الجود مكرمةً ... همُ الألى شرّفوا الهيجاءَ فرسانا

أذكرْ سعوداً إذِ الآفاق جاحِمَةٌ ... حمراء تهمي على الأبطال نيرانا

والسيف في يدِه كالحقّ منجرداً ... والجمرِ محتدماً ، والأفق ظمآنا

سائِل به (صعدةً) سائل به (يَمَناً)
وَسلْ عن الفاتح المغوار نجرانا[2]

إذِ الهصور أخو (نورا) يصيح به ... أَقِمْ على الباتر المنصور برهانا[3]

فاستلّه لاهِبَ الحدّين من حَمَسٍ ... وقال لبيّكَ رهنُ الخلد روحانا

الشبل شبلُك والصمصامُ يعرفه ... لن يَطلعَ المجدُ إلاّ من حنايانا

لم يخفِقِ النصرُ إلاّ في بيارقِنا ... ولم تخُضْ ساحَهُ إلاّ مطايانا

ما أقلعَ التُرك عن نجدٍ ولا ضحِكتْ
أرضُ (البكيرية) الحمراء لولانا[4]

فِدًى لأمّتِنا ، للشرق قاطبةً ... لكلّ همٍّ بعيد الشأو قتّالا

• • •

وَقُدْتَها للوغى خيلاً مُسوّمةً ... دُهماً تغير على نجران عقبانا

مُضَمَّراتٍ تِلالُ (الخرج) مربعها ... تشيلُ في الكرّ أعرافاً وعسبانا

---

٢ – مرخان جد الملك عبد العزيز ثم يرتفع النسب حتى عدنان .
٢ – يوم صعدة واليمن ونجران يُذكر ببطولة جلالة الملك سعود في تلك المواقف .
٣ – نورا شقيقة الملك عبد العزيز .
٤ – البكيرية هي الوقيعة الشهيرة التي أفضت الى جلاء الأتراك عن نجد .

نَسلُ السوابق في (حمدانَ) نسبتها
أو (الكحيلاء) أو تعزى (لجدرانا) [1]

اذا دعاها سعودٌ حمحمتْ ورنّتْ ... وأرهفت لزئير الليث آذانا

ذكرنَ يوم (جرابٍ) صوت والده ... فازددنَ بالشبل تهياماً وإيمانا [2]

قد كانَ صوتُك في الهيجاء حافزَها ... اذا العجاج على أبصارها رانا

أعدتْ شجاعتُك الأبطالَ فانطلقوا
كالسهم أرسله النبّالُ مرنانا

فِدى أبي (الفهد) جيشٌ من مكارمه
يطير للنصر ، أو للموت نشوانا

...

يا حاميَ الحرَمين الأشرفين لقد ... حَمَيتَ في قُدسِ بيت الله إنسانا

إنسان عصرٍ أعزّ الشرقَ مولدُه ... وسرّ في ظلمات الرمس عدنانا

أسخى بني تغلبٍ والسابقين يداً ... وأفيَحَ الفاتحين الغرّ ميدانا

عبد العزيز، كفى باسم الكبير سنىً ... يمحو بإشراقه عبساً وذبيانا

قد سطّرتْ دورةَ الأيام هيبتُه ... فصولةُ الأمس تحكي صيته الآنا

أنقذته وشفارُ الموت راصدةٌ ... فكنت للخنجر الغدّار قربانا [3]

---

١ – تردّ الخيل العراب الى أصول خمسة : المنقي والحمداني والعبيــا وكحيلاء العجوز والعقلاوي جدران .

٢ – يوم جراب من أخطر المعارك التي خاضها آل سعود .

٣ – إشارة الى محاولة اغتيال أسد الجزيرة امام الكعبة وقــد افتداه شبله يومذاك وعرض حياته للموت .

سحّتْ دماؤك عن روح العظيم فِدىً
وسالَ قلبك قبل البّذل تحنـانا

فكنت أفرسَ شبلٍ يفتدي أسداً وكنت أنبلَ أهل السيف وجدانا

فيا فداءَ زَهَا ركنُ الحطيم به وزمزمٌ هَدرتْ بالمـاء جذلانا

نبَّهتَ في مكـّة الزهراء مقدِسَها وعند حوض جنان الخلد رضوانا

. . .

توّجتُ باسمك ديواني فصار له فمُ الزمان على الأحقاب ديوانا

صُمُّ الجلاميد (بالدرعيّةِ) ارتَقصَتْ
وأرعدَ (الرسُّ) أوداءً وكثبـانا [1]

(عيدِ الرياض) بهاء الشمس بردتها والخلد لحمتهـا نصّاً وعنوانا

لمّا توشّحَ من أمجادكم قلمي أقمتُها للبيان الجزل فرقـانا

تزحزح المتنبي عن أريكتـهِ بعد امرىءالقيس جهمَ الوجهأسيانا

شاعَت بلبنانَ أطياباً وقد فتَحتْ لكم بكلّ بلاد الضـاد بلدانا

هي الأناشيد تروي عن مناقبكم ما جدّدَ الصبحُ بعد الصبح أزمانا

ما دامَ للحرف ، صِنوِ الشمسِ طلعتهُ
ورَجّـع الفلكُ الدوّارُ قرآنا

شبابُنا نشقوا عَرفَ السماء بهـا فأين طلاّبكُم يجنون عرفـانا

---

١ ـ الدرعية منبت آل سعود والرسّ مكان في نجد كان منطلقاً لإحدى انتصارات أسد الجزيرة

يحتلُّ آلُ سعود من ضمـــائرهم عرشاً ومن حبكةِ الأضلاع بُنيانا

فينشرون على الدنيا مفاخِركم ويشمخون على طيٍّ وحمدانـــا

يرتادُهـــا نشؤكـُم للعـلم مقتبساً فينثني من عبير المجد ملآنـــا

ما نالَ هارونُ في (بغدانَ) رائعةً
نظيرهـــا يوم كان الشرقُ بغدانا

ما اعــتزَّ كسري ولا باهَتْ مدائنه
بمثلهـــا أدباً يختالُ ريّـــانا

إيوانُـــهُ باتَ منسياً ومن قلمي شيَّدتُ من مجدكم للخلد إيوانا

. . .

بين العرار ونفح الأرز من قِدَمٍ وجدٌ كما عَلِقَ الولهانُ ولهـــانا

الحدُّ أبعَدنا ، والودُّ قرَّبنـــا منكم فبتنا على الأبعـاد جيرانا

التاج أرحب من مَدِّ المكان هوًى والحبُّ أمعَنُ في الآفاق سلطانا

وقوطعت بالتصفيق غير مرة على المائدة ، وتلطف جلالته فأشار إشارة الاستحسان ، وقد ذكر الملك البطل مواقفه المجيدة ، بجانب الاسد الهصور أبيه الذي ورث عنه أنفس ما يورث ، فهذه مهابة ابي تركي بادية في وجه ابي فهـد المفرع القامة ، السمهريّ الساعد والترائب ، المنبسط اليد للمكرمات ، فاذا انقبضت فعلى مفتاح للمجد ، أو على مقبض سيف جراز يبتغي به الى الخلود سبيلا ، ولقد اخبرني الثقات عن الجانب الإنساني الذي تنطوي عليه جوانح الملك المعظم ، فاذا به والجانب البطلي صنوان يتعادلان ، فعلمت عن رأفة

العاهل السعودي وديموقراطيته وحَدْبِـه على المساكين ، وإحسانه المكتوم ، فضلاً عن سخائه الظاهر ، ما يرفعه الى مرتبة أعظم خلفاء المسلمين الأُلى اعتزت بهم التيجان ، وشرفت العروش . وأيقنت أن بطولة أبي فهد نفسها انبثقت من إنسانيته ، أليس ان الله سبحانه خلق المرء إنساناً ، وما البطولة إلاّ ارتقـاع الإنسانية الى مستواها الأجلّ .

ذِكرَيات نجديّة

وفي مساء اليوم التالي دعيت وعائلتي الى مأدبة سخيّة في دار صديقي الشيخ عبد الرحمن الحميدي ، عقبتها سهرة مؤنسة حفلت بالفكاهات والنوادر ، ولم يُعوزها النسيم البليل ينفحنا من مكيّف هوائي خاصّ بالصحراء ، فحسبتني في واحدة من عشايا فندق السيدرز في برمانا بين الصنوبر والسنديان .

وأراني صفيق الوجدان اذا أنا سكتّ عن التنويه ببعض سجايا الحميدي الذي طابق اسمه فعله. ومن مزاياه إخلاصه للوليّ إخلاصاً لا يتعداه فيه أحد، ومقدرته على أخذ الأمور بالحكمة العميقة ، والرصانة الوادعة . وإن ثقة المقامات العليا بصدقه لتُمهّد له سبيل الشجاعة في إبداء الرأي فلا يداري ولا يحابي الوجوه ، وهو في الحديث عن السياسة مُقلّ يأخذ منك اكثر مما يعطيك ، وتلمح في سيمائه جدّاً وتحفظاً لا عهد لك بهما من قبل . فاذا دار الكلام على غير ذلك من الوجوه رأيته في البيان غير ضنين ، وليس أسرع منه في إدراك النوادر والمُلَح تنبسط لها اساريره ، فتكاد تنكر ما لقيت من إمساكه عند الأخذ بالسياسة .

وصاحبنا في طليعة أصحاب المروءات، فعّال غير قوّال، يكره المنّ ويجتنب الإشارة الى جميل أسداه ، فلا يعرّج في الحديث على صنيعة أبداً . ولعلّ أغرب ما فيه نفوره من المدح ، فتراه يعاف أن يُثنى عليه لمعروف أتاه .

ودعيت في الليلة التالية الى مأدبة معالي الشيخ يوسف ياسين ، الذي تكرّم

فزارني في الفندق ، ولم اكن اعرفه من قبل بسوى شهرته ، وهو الذي عايش أبا تركي حقبة مفعمة بالأحداث الجسام، فاختزن في صدره تاريخاً برمته، والشيخ وحده يعرف متى يباعد بين سطوره أو يقارب ، وأين يكتب بالقلم العريض ومتى يضع النقاط على الحروف. وصاحبنا أديب مطّلع ذوّاق ومُحدِّث ينقاد له الكلام ، فيُطلّ عليك من عشرات الآفاق ، فتدرك انه تمرّس بالحياة أيّ تمرّس . وبعد العشاء خرجنا الى ساحة البيت المنعزل عن المدينة، ولولا انه ملاصق للمطار لأصبحنا في صميم هدوء الصحراء . وكنا في السابع عشر من ذي القعدة ، والليلة زهراء ضاحكة ، قد بَرَد نسيمها بعد هجير ، وصفا أديمها بعد ريح سافية ، فكأنها تدعو السامرين ليتوشّحوا بضوء القمر .

والقمر في الصحراء يتعرّى فلا يخشى رقيباً ، فيتجرد من هالة الوقار ، ويسقط الحجاب ويتدلّى ، فترتفع الكلفة بينه وبين الإنسان ، حتى ليَهُمّ الرائي بأن يمدّ يده لمصافحة البدر الأنيس . وليلتئذ أدركت سرّ تأليه القمر ، وهو أول ما عبد الناس في جاهلية العقل، فهوالنيّر الليليّ الأحد ، قبل عهدهم بالمصابيح ، وباعث الخصب والندى في رأيهم ، وعلى الهلال والبدر والسِرار قدروا الأسابيع والأزمنة ، وهو النور الرفيق الذي يؤنس ولا يلذع ، به كانوا يهتدون الى طرق المغاور والأكواخ والمضارب ، لذلك أحاطوه بحَرَس من ذوات القرون والمخالب كالثور والجدي والأسد. ومن اسمه اشتقوا الشهر فسماه السريان (سهْرو) ومعناها القمر ، وبهذا المعنى وردت في القرآن المجيد (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه) . وإجلالاً للقمر بدأت الكهانة.فتدرّجت الى تأليه الكاهنات، ثم الى الصنمية ، فتعددت الأسماء والجوهر واحد ، فكان للغواة عشتروت والزهرة وأفروديت وعشتار وإيزيس واللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى .

وفي صباح اليوم التالي بكرتُ الى حصن عجلان الذي كان مفتاح انتصار أسد الجزيرة . وقد أورد المغفور له النابغة أمين الريحاني في تاريخ نجد الحديث

بصدد احتلال الحصن ما هذا نصه « وبعد قليل فُتح ذلك الحصن فأخرج بعض العبيد الخيل الى الشمس ، فلما رأى عبد العزيز البوابة مفتوحة خرج عادياً فتبعه من رجالة خمسة عشر فقط . واتفق ان عجلان كان قد خرج من الحصن ، فلما رآه عراه الرعب والدهش فنكص ورجاله على أعقابهم .. ولكن البوابة إلا الخوخة (الباب الصغير فيها) كانت قد اقفلت ، وبينا كان ورجاله يدخلون من ذلك البويب أطلق عبد العزيز البندقية عليه فاصابه ولم يقتله ، ثم أدركه وقد صار نصفه داخل البوابة ، فامسكه برجله وسحبه الى الخارج فتصارع الاثنان حيناً . ثم انهالت النيران من كوى الأبراج المشرفة على السوق ، على رجال ابن سعود فجرح منهم أربعة وقتل اثنان ، وقد تراجع الباقون الا عبدالله بن جلوى فكان أول من دخلوا الحصن ، وراح يعدو خلف عجلان الذي كان قد تفلت من عبد العزيز فرماه بالرصاص فخرّ لوجهه قتيلاً . نادى عبد العزيز رجاله واستفزهم فهجموا هجمة واحدة فصاحوا بمن فيه وفتكوا بهم إلاّ عشرين رجلاً كانوا قد تحصنوا في جهة منه ، ولكن عبد العزيز أمّنهم على حياتهم فسلموا وتم الاستيلاء على الرياض في ١٥ يناير سنة ١٩٠١ » .

وقلت في مُستهلّ الهجوم على الحصن :

ما وُثوُب الرئبالِ من قفصٍ ضَنْكٍ ، الى ظلّ مرجةٍ فيحاءَ
سَرَحت في ربيعها النعمُ الحرُ ، وقد سالَ ريقُه إطواء
مِثل عبد العزيز كرَّ على الحصن ، ولا مثل عَدْوِه عداء
وتَلاهُ الرجالُ خمسةُ عشرٍ للمنايا يسابقون اللواء
هال (عجلانَ) مقبلا يعرض الخيل ، أسُودُ الشرى تهبُّ افتجاء
فانثنى راجعاً وأقفل باب الحصن ، إلاّ عن خوخةٍ فجواء
قبلما جازها أتاه رصاصٌ من يد تَغلِبيّةٍ أدْماء
تسكب الجود في القتال رصاصاً وَهْيَ في السلم تسكبُ الأنداء

فأحببت أن أرى بعيني ، ما قد رآه خيالي لسنوات سبع خلت ، وكان لا بدّ لي من المرور بالرياض القديمة ، التي تزيد في حسن الجديدة ، كما تزيد الأَمَة السوداء في جمال سيدتها الشقراء ، إذ انها مدينة ضيقة السكك ، دكناء المنازل ، بدائية الإنشاء ، عدا بعض القصور الأثرية ، وكلها من تراب كأبينا آدم . ولو لم يتداركها الله برحمته ، فيمسك عنها الدِيَم الوطفاء ، لتهافتت جميعاً . وسألت أحد أصدقائي الظرفاء عن شؤون المطر هناك ، فقال : إن السحـاب الدرير عندنا يقابـل الضباب عندكم في لبنان ، ولو توالى علينا بضع ليالي من مثل شتائكم الهتّان الذي تَغَصُّ به أنهاركم فيزخر عبابها ، ويلطم جسورها ، لذابت هذه البيوت الترابية ذوبان الملح .

هاءنذا أمام حصن عجلان ألمس البوّابة والخوخة ورأس الحربة الغارزة في الخشب ، وأشهد أثر الدم الجاسد بالجدار الداخليّ وبضعة ثقوب في حائط الغرفة المحاذية البوابة ، وهي أثر الرصاص الذي نفذ من عجلان الى الحائط ، فتردّى عامل ابن الرشيد في ذلك المكان . وجمَحَ بي الخيال في تلك الهنيهة ، فوقفت على أعراف التأريخ ، وطويت من عمر الزمان ستين حولاً ، فتمثلت عبد العزيز يكرّ على الوغى باسمـاً حيث أقف انا متأملاً . ولمحت الساعة المكوكبة التي قرّرت مصير مملكة على يد رجل كان مشرداً منفياً ، فأيقنت أن الزمان يجود في بعض العصور ، بآحادٍ من الرجال يُبدّلون وجهَه ، ويخلعون عليه ألف معنى جديد . أولئك الأبطال هم حدود التاريخ الفواصل ، وبهم تُقدَرُ العصور كما تقاس الأزمنة بدورة الأفلاك ومطلع الفرقدين . بلى من هذه الخوخة الضيقة ، في هذه البوّابة العتيقة ، انبثقت مملكة تمتد من خليج العرب الى البحر الأحمر ، وتضم أول مئذنة منها انطلق صوت حبشيٍّ بصلاة ، فهتفت من ورائه العصور بأفواه ألوف الملايين : الله أكبر .

في ذلك اليوم المحجّل ، يوم احتلال حصن الرشيد ، وُلِد لعبد العزيز مملكة في نجد ، وملك في الكويت أسماه سعوداً ، ذاك هو عيد الرياض .

عدت الى الفندق للغداء والراحة . لقد غادرته في الصباح باحثاً أثرياً ، وهاءنذا أعود اليه مليء الجوانح بالذكريات ، موصول الماضي بالحاضر ، وإن هما إلا توأمان قد تقدّم أحدهما على الآخر : وجدٌ في خاطري الامس الذي غبر ، فأحببت أن أرى الدرعية ، مهد الوهّابية السعودية . وتخيّرت لهذه النزهة الشعرية رفيقاً متجرّدا من تكاليف الرسميات ، فعدلت عن سيّارة التشريفات الى سيّارة خاصة يقودها ألطف من عرفت ، في اصدقائي الشباب ، محمد الحميدي ، شقيق عبد الرحمن .

وما اللطف والإخلاص إلا بعض سجايا محمد الذي لا يستوقفك منظره ، فاذا خبرته فلن تتخلى عنه أبداً ، فكلما ازددت به معرفة ازددت في صحبته رغبة . يعجبك منه صراحته فكأنه الكتاب المفتوح الذي لا يستغلق عليك من سطوره شيء . وقلّما تجد له عديلاً في خفة الظل ، وحلاوة المعشر والوفاء على القرب والبعد ، تواتيه النكتة أعذب ما تكون الفكاهة ، ويبقى في ذهنك صداها لأنها صادرة عن ذكاء مشبوب ، وبديهة نادرة . ولعل أعجب ما فيه انه كريم النفس واليد ، مع انه يتعاطى التجارة .

المسافة بين الرياض والدرعية تقارب العشرين كيلومتراً . وأول ما أشرفنا عليه في الدرعية أطلالها الشاهدة على الحرب المصرية السعودية ، يوم خربها ابراهيم باشا ، واقتاد عبد الله بن سعود أسيراً ثم أرسله الى الآستانه حيث قتله الأتراك .

وتجاوزنا الدرعية الى وادي حنيفة ، فاذا ضفّتاه تغصّان بالنخيل ، فيبدو خضرة على سواد ، بجانب المرج الأغبر . والوادي في عرف سكان السهول ، هو كل منخفض من الأرض بين حرفين ، ولو كان عمقه بضعة أمتار . فلو كان وادي حنيفة عندنا لدعوناه لماء الشتاء مسيلاً . واستشعرت النسيم البليل كرة أخرى ، فتلفت فاذا الماء يطفر حولي من محرك ركب على بئر فروى أثلام

البقول . واستنشقت رائحة البندورة فحسبتني في غيضة لبنانية ، في ضاحية صيداء مثلاً .

ستة أيام أمضيناها في ضيافة صاحب الجلالة ، وكأنها بالنسبة إليّ ، بضع ساعات لفرط ما لقينا من رعاية الملك المعظم وبشاشة إخواننا السعوديين . وفي الساعة التي شرفني فيها صاحب الجلالة بمقابلة وداعية خاصة تجمّعت نجد كلها في بصيرتي منبت فروسية وبشاشة وتاريخ مجد ، وهكذا كان ختام الرحلة الملكية ساعة مكوكبة في حياتي .

كلمة أخيرة

بنيّ الغالي فادي :

تعمّدت أن أختم رسالتي بهذه الرحلة الملكية الزاهية الألوان ، وكأنها ، بما أشاعت في نفسي من غبطة ، بهجة المواسم ، وإنما الأعياد في حياتي أندر من واحات الصحراء، فلقد سلخت أعوام طفولتي مخشوشنة باهتة، وأنفقت عنفوان شبابي في الدرس والتأهّب لمستقبل يطمئن في الكهولة ، فلما تبوأت مكانتي قاضياً ولوّحت من بعيد تباشير الأمل أدركني المرض الوبيل فلزمني في مدى ربع قرن وهدّني هدّاً . وما كدت أبلّ منه حتى أخذتني أوجاع نفسانية حميمة كانت أشدّ عليّ من كل ما لقيت من أرزاء ، وقد ألمعت اليها في السياق فعليك أن تقرأ ما وراء السطور . وهاءنذا أخطّ كتابي اليك وقد نيّفت على الستين[1] وبدأت أهوي الى الشيخوخة حدراً، ولا أحسب ان الفترة الباقية لي من الأجل – وأظنها قصيرة المدى – أسعد من سابقاتها . ولقد جاء في أمثالنا الريفية : الحياة قنطار خرّوب على درهم عسل ، فاذا كان ذلك بالنسبة الى

---

١ – هذا التعبير تضمين لقول الإمام علي في نهاية خطبة له مشهورة إذ يقول : « قالت قريش إن ابن ابي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب لله أبوهم وهل بينهم من هو أشد مراساً ، وأطول تجربةً لقد مارستها وأنا ابن عشرين ، فكيف وقد نيفت على الستين ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع » . وما أحراني بأن أتبنّى قوله : ولكن لا رأي لمن لا يطاع .

الأصحاء الذين كرعوا في كؤوسها حتى امتلأوا فما ظنك بالخماص الألى حُرِموا فلا ترشفوا ولا تلمَّظوا .

ولا يخفى عليك انه قام في ألمانيا فيلسوفان أحدهما ذروة في التفاؤل وهو ليبنتز القائل إن هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة، ولقد غالى في مذهبه حتى: رأى حسناً ما ليس بالحسن .

أما ثانيهما فقمة في التشاؤم وهو شوبنهور ، وتمنى أن يمسك الناس عن التزاوج فيبيد هذا العالم الشرير .

وأظن رأي الفيلسوف أرسطو صائباً ، فانما الحقيقة هنا هي الوسط بين متطرفين فالحياة كثيرة الأشواك ، بيدَ انها لا تخلو من الأزاهر .وإنه َليتعذَّر على ناقد ، مهما أخلص للقلم ، ان يتّهمني بالتشاؤم ، انا الذي تألم كما لم يتألم بشر قبلي ، ثم أدّيت من الرسالة على قدر طاقتي ، فإن أبى ذلك الناقد إلا إصراراً ومكابرة ، فاني سائله عما كابد من الفواجع ، فليس أهون من الحرب على مشاهديها في دور السينما .

ولقد جادلني أحد أصحابي ، من رجال الدين ، في قضية التشاؤم ، زاعماً انه ينافي الدين، فأبديت رأيي المتوسط واستشهدت بالواقع ، فأبى إلاّ الإمعان في الخيال . وكان صاحبنا كلما لقيني شكا اليّ الحيف النازل به من رؤسائه ، وندَّد بجورهم ، وأفرط في عرض الصفحات السود متبرّماً يائساً من الصلاح والإصلاح ، ونسي أن ذاك هو التشاؤم بالذات . فلما أعيتني الحيلة في إقناعه ، ذكرت له نادرة مؤداها :

أن احد الخلفاء كان يستطيب حديث جليس خليع ، يخوض في شؤون النساء ، فيبدع ويفتنُّ صفةً وتشويقاً وحسن أداء . وبعد جلسة ممتعة صرفت الوليَّ عن هموم الولاية ، فندَّت ساعاتها عن الزمان وتداخلت في الديمومة ،



المؤلف يسلم الكتاب الى حفيده

سأل الأمير نديمه : ما الزنى ؟ فأجاب : يا مولاي هو هذا الذي كنا نخوض فيه منذ الصباح ، واقتنع صاحبي ولم يعد الى مثلها .

وانما أحببت أن أطلّ عليك من هذه الناحية ، ايها الحفيد الغالي ، لتتدرّع بالصبر الجميل ، اذا منيت بخيبة ، فلا تدهش لفاجعة ، ولا تجزع لمصيبة ، فان الأسى من جوهر الحياة وفرضها ، فلا هو بالعَرَض ولا بالنافل . وتراني في ما سردت لك من واقعات قد ظهرت كما أنا بنقائصي وخصالي ، وأبديت مقاتلي غير مرة للنقاد المتعنتين ، كما أبديت جسمي لمباضع الجراحيّين ، فما داريت ولا حابيت ، وما كان أبعدني عن المجاملة والتحفّظ ، فاطّرحت كل قناع تواضع الناس عليه كذباً أو تقيّةً ، أو جلباً لمنفعة ، او درءاً للملامة . وكان في طاقتي أن أظهر لك الجانب المثاليّ مني ، جرياً على سنَن معظم الكتّاب ، يتمرغون في المخازي ويغطّون أقلامهم بالثلج المصفّى حيناً وبالكوثر حيناً ، فيحسبهم القارىء ملائكة بدون أجنحة ، وقديسين بدون معجزات ، ويتوهّم سيرتهم نقيّة كماء المزن ، وليس أثقل منه على المعدة ، فان الماء الذي يتحلّب من طبقات الثرى مارّاً بمعادن الأرض أطيب مذاقاً ، وأجزل عائدة في إثراء الينابيع ودرّ الخير والبركة .

ولقد عرفت واحداً من هؤلاء المثاليين ، باللسان واليراع ، وقلبه يتفطّر حسداً ، يستفيض مِرقمُه بامتداح الكرم ويذود عن الرغيف دفاع النمر عن جيفة .

وعرفت أديباً آخر — يكاد الناس يرفعونه الى مرتبة الأولياء — همّ ان يضرب ، امرأة فقيرة ، بالمجرفة لانها نازعته حقه في سقاية البستان . وشهدت واحداً يكتب في العفة ، وليس له في الداعرين من عديل ، سوى الممثلين الذين يتقمّصون طهارة القديسين على المسارح وفي أفلام السينما ، ثم يموتون بالأمراض الزهرية. ومن هذا الطراز اولئك الذين يعظون الناس بالزهد في الحياة الدنيا وتراهم

لا يرتضون منها إلاّ بأطيب طيّباتها مأكلا ومشرباً ومغانم أخر . مما يذكر بنادرة مؤداها :

ان واحداً من هؤلاء كان يعظ الجنود ، قبيل المعركة ، ويحضّهم على الاستبسال ، مؤكداً جازماً أن من يمت منهم ينتقل الى حضن ابراهيم الخليل ، مشيراً بذلك الى النعيم الأبدي . وبينا هو آخذ في تصوير ملذات السماء ، كأنه شاهد عيان موفد بهذا الخصوص ، تساقط رصاص الأعداء وابلاً ، فسارع الجنود الى الخنادق والمخابىء . ولجأ واحد منهم الى جذع شجرة يَستجنُّ بها ، فزاحمه الواعظ فيها ، فصاح به الجندي : يا سيدي دعني وحدي ، واذهب الى حضن ابراهيم ان كنت به مؤمناً .

وان اغوسطين ، المذنب المعترف النادم ، لأحَبّ إلي من أغوسطين اللاهوتي ، على جلالة قدره في الإلهيات . وتراني في رسالتي ايها الحفيد الغالي أُفَصّل حيناً وأُجمل أحياناً ، تارةً أُوَرّي وطوراً أُضمّن أو أُعرّض تعريضاً ، وفقاً لمقتضى الحال . وقد تركت لفهمك النَفاذ من الكلام المسطور الى الشعور الذي لم يكتب ، فاذا استطعت النقلة الى تلك الأجواء فهمت الأمور بمعانيها . فاني أريدك واحداً من القرّاء الذين يوافون الكاتب الى منتصف الطريق ، لا قارئاً سطحياً ، شبيهاً بالكسالى الذين يؤملون الثروة بربح « جائزة اليانصيب » . ولا اكتم عنك أن الكاتب الذي يستطيع بَثّ مشاعره العميقة كلها ، وتدوينها مُفَصّلة في الورق لم يُخلَق بعد ، فضلاً عن الشاعر ، وفي طبيعة الشعر الإجمال والإيماء .

ولقد اومأت في شعري الى شؤون خاصة لم يتنبه اليها أقرب الناس إليّ ، ألم أقل في أبي ذرّ الغفاري :

لَمْ يَمُتْ نائيَ الديارِ وَحيداً	من تَسَيرُ العقُولُ في أنواره
كلّما ثارتِ العصورُ لِحَقّ	ألقَحتْها هباءَةٌ من غباره

ويسيرُ الأحرارُ تحت لواءٍ زيَّنوهُ بالرثّ من أطماره

في صعيد الفِخَار حسب الأماني أن تُثيرَ الدريسَ من آثاره

يُعجز الدهرَ خنقُ روح كبير فحيــاةُ العظيم بعــد اندثاره

يزدَريهِ مُعَاصِروه فإن ولـّى شهيداً فالفضل نهجُ غراره

يُلصقون الأنوفَ بالأرض بحثاً عن بَقَاياهُ أو بقيّةِ غــاره

أطفأوا عمرَه وفي كل جيل حقباتٌ تزيــد في أعماره

كلُّ عصرٍ ، في غمرة الشهوات الدُهمْ ، ليـلٌ يحنو على فـُجّاره

يستـُرُ القبـحَ بالرياء صَفيقاً فيشلُّ الضيــاءَ في أقماره

ويجيء التاريخُ مَصهرَ عدلٍ ويروقُ الظلامُ غِبٌّ اعتكاره

فإذا كلُّ ظـــالم دنيويٍّ ليس يبقى من ذكره غيرُ عاره

جِيَفُ البحر في الشواطىء تبقى

ليس للسُحْبِ غيرُ صَفْوِ بُخاره

وَدم الصـالح الشهيد خميرٌ يسكب الله شمسه لاختماره

فيجوب الزمانَ دفق سناءٍ ويُثير القلوب من أحراره

يا أبا (الذرّ) يومُ موتِك عيدٌ إنّ موتَ الشهيد فجرُ انتصاره

وأنا اعترف اني فهمت سلوك المرحوم والدي بعد ذهابه من الدنيا أكثر مما أدركته وأنا معايش له . بيد اني لم أعصَ له أمراً، ولم يُطعني وجداني في إضاعة مآلِه ، فكنت ضنيناً بما يملك ، نزهاً عن استدرار حنانه ، لا اقطع رأياً دونه، سواء أكان الأمر خطيراً كالزواج أم كان ثانوياً يعرض في التوافـه اليومية . يرتفع صوته فأخفض صوتي ، وان كنت محقاً . ولم أشأ التفلّت من رقـابته

حتى بعد زواجي ، يقيناً مني ، بأن ذلك القيد الخفيف هو صوان لحريتي ، فضلاً عن خبرة أفيدها من أشفق الناس علي ، وأنصحهم لي ، وأسخاهم قلباً ويداً يوم يرفضُ من حولي المخادعون، عشراء السوء وأصدقاء الكأس والسَمَر. وكنت أتحرّج كثيراً إذا مَا زَحْتُ أحداً في مجلسه ، فأتخيّر من اللفظ ما لا يجرح ولا ينافي الحياء .

ولقد زرع في نفسي كراهية المقامرة ، وبئس الولد يقامر بمال أبيه أو بماله. كما انه علمني بُعد الرأي في الأمور ، فكنت اذا استخفّني طيش الصبا نظرت في مغبّة فعلي فأحجمت ، ورأيت الأبناء المتمردين والخلعاء المسرفين وما ينتظرهم من وخيم العواقب ، وكيف ينحطون من الذرى الى المَزَابِل ، فاتّعظت وترصّنت . ولم يخطر لي ببال ، ولو مرة واحدة ، أن أقدّم رأيي على رأيه ، أو أتمرد على مشورته ، مع اني أوسع منه علماً ، فلقد كان رحمه الله ، على ذكائه المشبوب ، أمياً لم يدخل مدرسة .

ولا أذكر اني سوّدت له وجهاً بل ربما زدته جاهاً على جاه ، فأضفت الى صيته الإقليمي سمعة جاوزت الإقليمية ، ولا مَنّ ولا فخر .

وما زلت أعايشه بعد موته فأستنير واتفهم لماذا فعل كذا وأمسك عن كذا . ويظهر ان النور اذا اقترب كثيراً من عين الرائي بَهَرَهُ ، فاذا غدا تذكاراً فاءت اليه البصائر بعد عَشْوِها .

وإنّ في حياتي لكثيراً من العِبَر ، يا بنيّ العزيز ، فتركت لك انت ان تستنتجها من السياق. ولقد كنت في ما سردت لك من صفحات عمري صريحاً ثائراً على كثير من التقاليد الزائفة ، ومنها التواضع الكاذب حين يتحدّث الإنسان عن شؤون نفسه ، وهذا الضرب من الوداعة هو أشدّ أنواع النفاق والخيلاء . وليس أدلّ على ذلك من النعوت المضافة الى توقيع بعض ذوي

المقامات، فلو انك خاطبت أحدهم ، أو كتبت اليه بمثل توقيعه لشهدت كبرياءه كيف تثور ، ولن يغفر لك هذه الزلة حتى على فراش موته .

ولا يقولـَنَّ لك فضوليٌّ أو عشير سوء : « لقد تغيّر الزمن فما بك الى نصائح جدك حاجة ، فانما الاحكام تتبدّل بتبدل الاجيال » . أجل لا يُنكر تغيُّر الاحكام بتغيّر الازمان ، بيد ان الطبع الانساني لا ينفك قائماً أبداً ، فكما ان القرن العشرين أفاد من رسالة أريسطو الى نيقوميدس ، والمسافة بيننا وبين الفيلسوف ثلاثة وعشرون قرناً ، فقد تنتفع أنت برسالة جدك ، الذي ضمّك الى صدره ، ولم تطمس معالم وجهه من ذاكرتك بعد .

وباعتبار الطبع الإنساني جوهراً لا عرضاً قال سليمان : لا جديد تحت الشمس ، فان المحبة والحقد والغيرة والشجاعة والجبن والكرم والإسراف والبخل والفطنة والسفه الخ .. ملازمة للانسان ما دام على وجه الارض بشر .

وإياك أن تصغي الى عشراء السوء من رفاقك في المدارس ، أو ممن قذفت اليك بهم المصادفات . وانك لتعرفهم بثمارهم . فمن علاماتهم الكفر بالله والقيم العلى ، وإدمان السكر والتعهّر ومَلَـق اللسان . فمثل هؤلاء يتعاشرون ذئاباً ويتفارقون عقارب ، فلا تعمل بمشورتهم لانهم ضالـون مُضلـلون ، فاسترشد برأي الحكماء من الشيوخ . و (الحكماء) هنا قيد احترازي ، لان بين الشيوخ أيضاً جَهَلة سفهاء ، وان المشيب لا يغني من العقل شيئاً .

واسترشد برأي والديك أولاً ولا سيما في شأن زواجك ، لأن الزواج هو أخطر ما تقدم عليه في الحياة ، فاذا زلـّت بك القدم فلن تفلح بعدها أبداً ، وتعيش ، ما حييت شقياً ، في بلد لم يجرؤ بعد على اعتبار الزواج عقداً مدنياً .

وإياك إياك أن تنقاد لهواك ، وانما العقل بمنزلة رابط السيّارة ، يضبطها فلا تنحدر الى الهاوية ، واحترز من الدُوار الذي يبعثه الثنـــاء في نفوس الناشئين

الأغرار ، واحترم صديقك الذي يؤنبك سرّاً ويكرمك جهراً، ويقيل عثارك حين يعزّ الصديق . أما الجهلة والكذبة فليس أرخص من الكلام على ألسنتهم، ما دام الهذر لا يكلفهم شيئاً ، وقد يكلفك الصيت والسعادة والحياة جميعاً .

واذا تزوجت ولم ترزق أولاداً فلا تبتئس ولا تتلهّف، فاذا رُزقتهم فأحببهم بكل جوارحك ، وعَوّدهم الادّخار ، واقتصد ما تبذل لهم من مال ينفق لمشترى الدمى او للهو واللعب ،فالذي يُعطى الخمسة صغيراً يطلب المئة مُراهِقاً، والألف شاباً فتبتلي بمسرفين مستهترين يفقرونك وينغّصون عيشك ثم يحتاجون الى الرغيف بعدك . لاتبخل عليهم بالتأديب صغاراً فيُسرّ بهم قلبك متى شبّوا. رَوّضهم على الخشونة في الصبا فتعدّهم للحياة رجالاً ينهضون بأعبائها ويستقبلونها قادرين ، بما أودعت في الصدور الفتيّة من قوة على الكفاح ، فليس أقتـل للرجولة من الترَف والنعيم والانفتاح على الملذات ، في بكور العمر . وانما خشونة العيش في الصِغَر كانت لعظماء الدنيــا منطلقاً . ويا طالما كان إفراط الوالدين في الحنان منبتاً للمخنّثين والخلعاء والطفيليين ، الذين أصبحوا عالةً على ذويهم وعلى المجتمع، فأزرى بهم الناس ، واحتقروا أنفسهم ، وثـقـلوا على الحياة وثقلت عليهم ، فكان منهم البلهاء والمجرمون والمنتحرون .

واحرص في تكوين شخصيتك على اتّباع الرأي الأصوب ولو قلّ أنصارك، فإن بُنَاة الحضارة والعلم ، نخبة يعدّون على الأصابع ، وان القيم لترتكز على الكيف لا على الكمّ ، ومتى كانت الكثرة دليلاً على الصواب ؟ أفي عهد سقراط وافلاطون وأرسطو أم في عهد باستور وغاليلو ونيوتن ؟

واني أنصح لك يا بنيّ أن تعدّ الى ما فوق العشرة قبل ان تتابع الجماهير على رأيها ، فليس أحط من الجماعات رأياً وتفكيراً . ولقد أسهبت الكلام بهذا الصدد في كتابي « حديث العشية » فراجع تلك الفصول .

واحذر ، أشدّ ما يكون الحذر ، مقالة قائل : افعل كذا وكذا فكل

الناس يفعلونه . فهذه الكل الشبيهة بالشركات المغفلة ، تنطوي عـــلى مخاطر جمّة ، تذكّر أنّ أرفع ما بلغه الإنجيل ، في باب الأخلاقيات ، هو مخالفة الكل ، فلقد كان الصّلف سائداً فقال المسيح طوبى للودعـــاء ، وكان المال معبوداً فمجّد الفقراء ، وكان الكل ، يبغضون اعداءهم فأمرهم بمحبة الأعداء . وكان « الكل » يعظّمون الفريسيين والكتبة ، فوصفهم السيد له المجد بأنهم القبور المكلّسة ، فحطّم الكبرياء في أمنع حصونها .

ولا يحملنّك قولي هذا على الشذوذ للشذوذ ، والمخالفة لمجرد أنهـا مخالفة ، فانما أريد بك ارتفاعاً من مستوى البشر المقلّد الى مرتبة الإنسان المفكر .

وهاءنذا أشعر يا بنيّ عند بلوغي نهـــاية رسالتي اليك أني حمّلتك وقراً ، لأنك بعد إذاعة كتابي هذا في الناس، لا بد أن تمتدّ شهرتك وتنمو بنموّ سنّك، فتأخذك العيون الراصدة ، وأنت بعدُ صبيّ ، وأنا قد توسّمتُ فيك النباهة فأسأل الله ألاّ يكون رأيي فيك فائلاً [1] فيعيب عليّ القارىء فراستي ويشمت بك الشامتون .

وأرجو ان يكون في كتابي هذا من العِبَر ما تفيد منه العامّة ، وبا نعم الثواب ، فلئن كنتَ يا بنيّ حفيدي وبضعة مني فسواك من الشباب حفَـدة إخواني ، وانما الإنسان اخو الإنسان أحَبّ أم كره .

ويشهد الله اني ما كنت أنانياً بل خصماً شديداً لذوي الأثرة والمحتكرين والأشحّاء ، فانا الرجل القائل :

سالت على حَدّ المباضع مهجتي   فشفارهـا مصبوغة بدمائي

---

١ - فال : أخطأ وضعف .

وقد صهره الألم أيّما صهر ، فبات لا يضنّ بالحياة ، لن يكون ضنيناً بنصح ولا بمال ، ولا بالمروءات التي بها وحدها يكون الانسان إنسانا .

قلت في مقدمة كتـــابي (مذكرات جريح) إني سطرته بدمي ، في المستشفيات ، من خلال الفترات التي هادنني فيها ألم الجسد ، وأشعت فيه النوادر والفكاهات لئلا أشرك القارىء في همومي . أمّا هذا الكتاب فلقد ألـّفته في الجبل ، في بيت مولدي ، إذ تهادنني آلام النفس . وتحـــاشيت ما استطعت أن أخضبه بدم فؤادي ، ولئن طويت خاتمته على بعض العلقم فتركت لك صورتي واضحة في قصيدتي وحده :

سَوْطُ العَذاب أطال سُهده ... فـرَثـَتْ لأنـّتهِ الِمخدّة

أنـّاتـُه الحمراء جــارية ... مع الأنفـاس وَقـْدَه

لزِمَ الوِسَادةَ عُمرَه ... ما أطولَ الأعوام رقده

بَرِمَ السريرُ بعَاشقٍ ... أعيا الأساةَ فلن تصُدّه

لا الليلُ زحزحهُ ولا ... وَضَحُ النهار أزال وجده

زفـرَ الحديدُ ولا مَلامةَ ... فالحديدُ أطـاق جُهدَه

. . .

يا ساجيـاً أكلَ الفراش ... ضُلـُوعَه وامتصّ جلده

يا برمكيّاً ضافـــه ... شخصُ العذاب فقرّ عنده

عجبـــاً أكنتَ حفيدَهُ ... أم كنت والِدَه وجـــدّه

بوّأته القِمَم العُـــلى ... وعلى العصور رفعتَ بَنده

ما آهَــةٌ في الأرض إلاّ ... من معينك مُستَمِدّه

أيثوبُ أعْوزَهُ الخلودُ   فجـاء منك يروم خلده
ثـأرَ الزمانُ من الورى   وعليك وحدك صبّ حقده

. . .

ظَفِرَتْ يداك من الوجود   بشَوكهِ وأضعت ورده
شوكٌ أحَدَّتهُ المباضع   في العظام فما أحَدَّه
سمّته ألسنةُ الصلال   وحِسُكَ النفّاذُ مَدَّه
كم صـدَّ عنك مُخاتِلٌ   هَزْلُ الزمان أجدّ سعده
قد كان يُكبر منك تسليماً   فيَشريـهِ بسَجده
فإذا به ، والجاهُ أبْطَرهُ   يُصعِّر عنك خَـدَّه
رَضِعَ الخساسةَ منذُ ما   صدرُ اللئيمة فضّ نهده
العـارُ شدَّ قِماطه   والفاجِراتُ بَسَطْنَ مهده
والدهرُ إن يَهزِلْ تسُدْ   عرشَ النُهى والُحسن قِردَه

. . .

وصَرفتَ مدمعك الأنوفَ   ببسمة فأتيت ضِـدَّه
ضِنّاً بوجهك أن تصغِّرَهُ   الدموعُ وأن تُخِدَّه
عَـافَ الدناءةَ سيّدٌ   جعل الزمانَ الوغدَ عبده
يُودي الكريمُ من الطوى   ويُورِّثُ الأجيال مجده

. . .

عِشْتَ الغريبَ سماحـةً ... ومروءةً ، وعُرى موده

وأشدُّ آلامِ التَغَرُّبِ ... جَهْـلُ منزلةٍ وشدّه

جارُ الحسام قِرابُـه ... والغِمدُ يجهـل منه حَدّه

بصميمه الوشيُ المنمنمُ ... وهو لا يدري فِرِنْده

بين الشهيد وأهـله ... من شاسع الأبعـاد وهـده

جَلَدٌ تجوزُ به العيون ... وتجهـل الأحداقُ بُعْده

والسهلُ إن جاز المدى ... تتجـاهل الأبصارُ نَجْـده

ولكانَ يُسْعِدُكَ الثواءُ ... بموطنٍ حَلَّيتَ بُرده

لو كان يكتنف الشذا ... في عصفة الأرياح بلده

. . .

كيف السبيل لِغَفْوةٍ ... والهمُّ ساقَ اليك وفده

ليلُ المريض وهـل له ... في العمر ، أو في الوقت مُده

ليـلٌ يضلُّ به الزمان ... فليس يعـلم منه قصده

أبدٌ تحوك نسيجَه ... كفُّ السهاد المستبده

يخلو من الطيف الأنيس ... وليتَ للأطياف ردّه

ولكان يقنع بالمنـام ... فتًى يرى الأحلام جنده

أفـلَ الشبابُ وطيبه ... أوّاه لو سَدّت مسدَّه

للصخرِ عيـدُ شبابه ... وحُرِمتَ بهجتَهُ ورَغْده

. . .

يَهَظ الغطاءُ رفيقَه وأمَضّ كاهِلَه وزنده
قد كان بالأمس المحجّل لو هوى جبلٌ لصَدّه
أترى اللحافَ غطاءَه أم باتَ هذا السِتر لحده
كم مرّةٍ طلب الحِمامَ يَعُوده فيبتّ عقده
عِشرينَ وعداً بَتّها الأجلُ الكذوبُ وحلّ وعده
بَرْقٌ خلوبٌ يحصد القَلِقُ الكسيرُ القلب رعده

. . .

يا موتُ يا ملك السخا رحماكَ لو عجّلتَ فقده
عجباً لكفّكَ ، وهيَ دأماءُ العَطاءِ تصير جعده[1]
ولكنت أشفقَ راحم لو في المنام سَلبتَ رشده
ما هَدّه عمقُ الجراحة بل دفيقُ الوعي هَدّه

. . .

يا أيّها الداني وقد تستوحشُ الآفاقُ بَعده
وإذا مضى أرَجُ الربيع ترَقّبُ النسماتُ رِنده
والذكرياتُ اذا نشدنَ الخيّرين ذكرنَ رِفده
عجباً أيذكرُهُ الزمان وتخفر الأصحابُ عهده
تتأوّه العظمات إمّا تذكر العظمات وُدّه

---

١ – الدأماء : البحر .

فتقول يا عَلَمَ المروءة وَيْحَ بُؤسك ما أشده
ماتَ المُعذَّبُ وحده أتراهُ عاشَ العمرَ وحده ؟

هذا وأسأل الله ان يمتّعك وحَفَدتي جميعاً بالعافية والعيش الخفض ، ويحيل المرارة التي جرعتها أنا حلاوة في حياتكم .

وما أطيبه عزاءً ، لو علمت أن مأساتي كانت كفّارة متأخّرة عن آثامي وخطايا آبائي ، وفديةً مقدّمة عن ذنوب أبنائي ، إذن لطبت بذلك نفساً وما بخلت بتضحية مهما جلّت .

وأخيراً أطبع قبلة على جبينك أضمنها أرقّ ما تنطوي عليه جوانح شاعر من حب ، وأقصى ما يدركه خياله من تمنيات .

بولس سلامه

بتدين اللقش ١ تشرين اول سنة ١٩٦١



الحفيد يعانق جدّه شاكراً

الجزء الثاني

علّمتني الحياة

علمتني الحياة ان أيام الصبا هي أطيب الأيام ، وأصفاها مورداً ، وأخصبها رواء ونضرة آفاق. وان ألذّ ما في الصبوة غفلتها الحلوة التي تلوّن العيش بكل أزهر باسم وأزرق صاح ، فتجعل من تافه اللعب ومبتذل اللهو ، ودسم المأكل غاية الغايات . وتحسب الروابي التي تنتهي عندها تخوم القرية حدود الكون ، وتظن ساحة البلد المحور الذي تدور عليه الأرض ، كأن من أجل ذلك القطب تشرق الشمس ، وإيناساً لذلك الريف يطلع القمر ، فما أسعد الانسان واهماً جاهلا معالم المكان والزمان .

علمتني الحياة ان أفق الشباب الأول هو فجر الآمال ، ومستهل المناعم ، وباب الأحلام الوردية التي لا يرنّق صفوها شقاء . بيد ان ذلك المطلّ هو السبيل الى الغرور والمنفذ الى الكبرياء ، والمنحدر الى الخطيئة ، بما يزيّن من أباطيل الدنيا وزخرفها . وانها لفاجرة تفتنّ في ضروب السحر والإغراء ، تروح بلون وتغدو بألف لون ، فترين الشهوات على قلب الفتى ، فيزيغ بصره ، وتعمه بصيرته ، وتهن عقيدته ، فكأن إيمانه معلّق بخيط مشيط في مهب الريح المتناوحة ، ويتبلّد وجدانه لفرط النشوة وما هو بالثمل ، فتراه بين الشك والإلحاد مضطرباً ، ما يبرح يبتدع الأضاليل تمويهاً لغواية ، أو دعماً لمنهج ، فاذا اعترف بوجود الله فكأنه يمنّ على باري الوجود بالوجود .

علمتني الحياة ان الألم هو المحجة الى الحقيقة ، والنداء الذي به يفتح الله القلوب الغلف والآذان الصم . ألا وان مشكلة الألم لمشكلة الإنسان الكبرى . فلا غروى أن يستقبل الحياة بصرخة ويودّعها بزفرة . قال ديكارت : أنا أفكر فإذن أنا موجود ، ولو قال أنا أتألـّم فإذن أنا موجود أو أنا موجود فإذن أنا أتألـّم ، لكان قوله أنفى للشك ، وأعلق باليقين .

وعندي ان الألم هو الطريق الضيّق الموصل الى الله ، وهو المطهر الذي يصهر الروح في مصهر العذاب ، والكوثر الذي يغسلها من الأدران ، كما يقع الطل على الأماليد فينقيها من الغبار فتلتمع في الضباح وفي شفق العشايا .

علمتني الحياة ان الصبر على المكاره ، والانتصار على الذات ، وتقوى الله عزّ وجلّ ، هي أسمى درجات الانتصار ، تلك هي البطولة التي تخوض أنبل الوقائع فيسلم الشرف الرفيع بدون إراقة دماء ، وذلك هو الفوز البريء الذي لا يخلف ثكلاً ويتماً وإرمالاً ، ولو كافت هذه المعارك أصحابها كبت الدموع في المحاجر ، والآهات في الحناجر . ومن هؤلاء الأبطال الذين لم تخضب أكفهم بنجيع القتلى كان الأنبياء والأولياء والقديسون الأطهار لا من فئة (السوبرمن) الذي توهمه فريدريك نيتشه فيما توهم فقادته عبقريته الى مستشفى المجانين .

علمتني الحياة ان شرّ الناس المترفون ، فالمترف مريض يسمّن بدنه بهزال عقله . وبهذا السبب كان سواد أهل الثراء من أصحاب الغفلة ، فتراهم وقد استخفهم البطر سفيهة حلومهم ، متخلفة مشاعرهم إلا عن الشهوات ، منقبضة أكفهم إلا عن الفواحش ، وربما أخذتهم العنجهية فأخلتهم من كل شيء وملأتهم من أنفسهم ، فيا عجباً للفراغ يمتلىء بمثله .

علمتني الحياة ان ما تواضع الناس على تسميته نجاحاً ليس وليد العبقرية ، ولا نتيجة الصفات الغر ، وربما كان العكس هو الصحيح . ألا وان العقاب لتعترض الجبابرة كما تنزل الصواعق بالقمم ، وربما كان السابقون أقزاماً لا شأن

لهم في معرفة ، ولا شأو لهم في خلق . وإنما نفذوا الى الميدان من منفرج الحلبة فما زحمتهم الجياد ، ولا تقاذفتهم السنابك ، مَثَلهم في التوفيق مثَل الخطباء السطحيين كلما أمعنوا في الهذر أفلحوا .

علمتني الحياة ان الصداقة المحض هي قدس أقداس المجتمع لأنها بنت المحبة ، والمحبة غرسة الله في صدور الأوادم ، فما أغلاها حلية ، وما أندرها في عصر الناس هذا . فمن أحرز في حياة طويلة حافلة بالمكرمات عدد أصابع اليدين من الأصحاب الخلّص فانه ليغبط على هذه السعادة ، أما الصداقة ذات المنافع فبئس التجارة هي ، وتبّاً للرصيد الحقير .

علمتني الحياة ان الاعتدال هو النهج الأصوب ، والتدبير الأحجى . وان الوداعة هي أمّ الفضائل ، كما ان الكبرياء منبت الرذائل ، فهي مصدر الاثرة والبغضاء والجشع ، فكل جريرة للكبرياء منها نصيب ، وانها لتدخل في كل جرم كما يدخل الهواء في كل مكان ، تلك هي الخطيئة التي اقترفها إبليس مرة في الدهر ويرتكبها البشر — إلا من عصم الله — كل يوم .

علمتني الحياة ان الدين والتعصب لا يجتمعان ، بل يجتمع التعصب والطائفية ، وما أقبحهما من زوجين ، وبئس ما ينسلان من سلالة بغيضة . والطائفية أشدّ خطراً من الكفر بما تنبت من مفاسد ، وما تثير من فتن ، ولتجدنّ المتّجرين بها أرقّ الناس ديناً ، وأكثفهم وجداناً ، وأكثرهم رياء وملق لسان . ولعلهم يسترون مركب الدونية فيهم بما يتصنّعون من غيرة على الدين ، دفعاً لتهمة الزندقة عن أنفسهم ، وما هم بالأبرياء .

علمتني الحياة ان الناس أصحاب الموظّف بقدر حاجتهم اليه ، فهم أصدقاء المنصب لا أصحاب شخص بعينه ، فاذا انقطعت الأسباب بمن يصانعونه ، وهوت سدته ، وانطوى بساط نعمته ، رأيت ألصق الناس به أوّل من يزْوَرّ عنه ويهتك ستره ، ويثير عليه الشامتين ، فعلة الذئب برفيقه الجريح .

علمتني الحياة ان لا مجد إلا للقلم ، أسميته معرفة أم علماً ، أم فناً جميلاً . ولو لم يكن للقلم ذلك العرش الرفيع لما افتتح به التنزيل في الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ، فذُكر بعد اسم الجلالة وفعل الخلق .

علمتني الحياة ان حكومات الشرق العربي مقصّرة بحق الأدب . وربما افتقر الأديب المفكـّر الى ثمن الكساء . فاذا هو خلـّد أمة أو دولة أو بطلاً بما كتب أو نظـَم منّوا عليه بعطاء رمزي لا يسمن ولا يغني من جوع ، على حين تهدر الملايين للمتعيشين المتزلفين ، ولأصحاب المكايد والشفعاء المتوسطين ، وسماسرة اللذات الأدنياء ، وللمتأدبين الذين يوسّخون بالحبر الطروس البيض ويملأون الفراغ بمثله ، أو لممثلين يحكمون تمثيل المهازل ومن ورائها المآسي ، كأنه كتب على الأدباء أن يحيوا بعد موتهم بالذاكرة فقط بعد ان يعـــانوا في الحياة ألماً موصولاً .

علمتني الحياة ان لا قيمة لها بدون القيم العُلى فانها قليلة مباهجها ، موصولة آلامها ، داء كان هذا الألم في الجسد ، أو حرقة من حسد ، أو كدحاً في سبيل الثراء ، أو استماتة في ابتغاء المراتب ، أو همّاً ناصباً لفراق حبيب ، بل ان الوجود نفسه قلق لا ينقضي فمن قـال الوجود قال الهمّ الدائم . وما إقبال المجتمع على اللهو واللعب والملذات إلا فرار من الألم . ولكن هذه المخدرات لا تنقع غلة صاد فويل لمن يكرع اللذات موصولة لا يستفيق من غمرة إلا تأهباً لأختها . فهو بشارب الثلج أشبه ، تراه كلما نهل نهلة لاب وازداد أواماً . ولولا القيم العُـلى المنبثقة من الله جل جلاله لكانت الحياة من التفـاهة بالدرجة التي وصفها سارتر وأمثاله من الملاحدة، ولكان العدم خيراً من الوجود .

رحلة إلى لورد

حديث ألقي في قاعة سينما (أمبير) في زحلة ، مساء ٣٠ ايار ١٩٥٩ .

زحلة يا قاعدة الجبل ، ومليكة السهل ، وأريكة الدولتين : القلم والسيف ، ها أنذا أعود اليك بعد هجرة شبّ في مداها الاطفال ، واكتهل الشباب ، وتحدّب الكهول فما أطولها غيبة على القريب النائي .

يا عروس الكروم ها أنذا أحييك ، بمثل الطيب نافحاً من دواليك ، وبمثل النسيم يحلـّي أماسيك ، وما هو تسليم الغريب : فلكل لبناني أصيل وطنان بلده وزحله . أوَلستُ أنا القائل في قصيدتي « الجنة السمراء » لربع قرن خلا :

من جارة الوادي بعثت بزفرتي   فإذا الربيع مآتم الاشذاءِ

عهد الشباب النَّضْر همَّ مودّعاً   وأطلّ في الأفق الذبيح ِ مسائي

يا روضتي وخميلة اللذّات ، في الزمن الجديب ، وواحة الصحراء

يا نشوة الخمر العتيق ، وبهجة الكوخ الدفيء ، بليلةٍ دهماء

تيهي على سُرُر الخلود ، وانما سُرُر الخلود روائع الشعراء

وفي قصيدتي « الامير بشير » :

يا ليالي ايلول في جارة الوادي ، كبارَ المنى ، رحابَ النذورِ

تنهل العين من ربى « تلّ شيحا » سكبةَ البدر في المساء المنير

خفقـان النجوم رقصُ ضياء وخفوق الارواح وهج شعور

فكأنّ السماء صفحة حبّ وجمـال مقسم في الثغور

مضّها الهجر والنوى فتهاوت واطمأنـت على شفاه الحـور

وياطالما فئت اليك ، يا سيدة البقاع ، اذ الحمّى تلفحني ، فنقلت فؤادي مبترداً على الدوح في « وادي العرائش » ، وعلى الكوثر في « قاع الريم »

وأنّى لأديب قد تنزّه عن مركّب الدونيّة ، فأفرغ الله قلبه من الحسد ، أن يتفلّت من سحرك ، وهو كلما أعمل خاطراً في المعرفة ، أو أدار قلماً على الجمال ، تراءى له في القِنن ابنـاؤك الألى أوحت اليهم سماؤك ما أوحت ، فأصبحوا رادّة الفكر ، وذؤابات البيان ؛ فاذا الإلهام جلجل في يراعهم انتحوا شطر السماك فتَخِذوا له من الريح بساطاً ، ومن عبقر مرتفقاً . فاذا انسلخوا من ثراك ليُعمِروا وراء البحر زحلةً ثانية ، حنّ العباب ، ونادت المجاذيف بأناشيد آل معلوف[1] .

بيد ان الحظ الذي يسّر لكِ رسلاً يحملون صيتك الى اقصى الارض ، أبى أن يتخلّى عن اللواء ، فركزه في هذا الوادي منطلَقَ جمال يشعّ في كل قطر لاهج بالضاد ، فيُهتف باسم سعيد عقل ما بين دجلة والفرات ، وعلى النيل ، وفي مشارف الدار البيضاء وتونس ، أكثر مما يُذكر هـذا العملاق على البردوني . ألا وإنه عندي لأنضر قلم سلك رويّاً على الضفة الشرقيـة من حوض البحر المتوسط . ولقد كان همُّ الناشئة في أمصار العرب محاكاة النسر الذي اطلقته

[1] إشارة الى الاناشد الشعرية الرائعة التي انتجها ابنا المرحوم العلامة عيسى اسكندر المعلوف : « على بساط الريح » لفوزي ؛ و « عبقر » و « نداء المجاذيف » لشفيق .

رباكِ ، يا زحلة ، فأسفّوا حيث حلّق سعيد ، وعشيت أبصارهم حيث أحدّ نظره الى الشمس فما طرف له جفن ؛ ولقد بلغ المفلحون منهم جانب الطود لاهثين ، وعيونهم الى الذروة شاخصة ، وفتاكِ على العرش السَنيّ . وأظن ان الارض ستدور كثيراً حول الشمس والصولجان في يده .

ما كنت ارغب أن احدثكم بالألم في هذه الأمسية ، وقد خُصّت العشايا بالطيبات وحلو السمر ، تخفّفاً من الكدّ ، وتفرّجاً من أوزار النهار ، وأراني أدير الكلام المرّ على الرِزء الأمرّ فأبعث في الخواطر همّاً ناصباً . فما كان أغناكم عن هذا المجلس ، اذ القلوب الى المباهج أميل ، واذ الطبائع بالمفاتن أولع ؛ فمن شيم النفوس أن تعاف الكدر القابض، وتفرّ منه الى الفرح الباسط، لذلك افتنّ البشر في اللهو واللعب والشراب ، يخادعون بصائرهم الى حين ، ويُغطّون الهزيمة بالأغاني،كمن جمّد البردُ عروقه فطفر يرقص مستدفئاً لا طرِباً ولا ثمِلاً .

ألا وإن الألم توأم الحياة ، ولئن تتكـّر بألف زيٍّ ؛ لقد لزم الانسان منذ اختلجت النسمة الاولى في أول جسد ، وسوف يلزم الأوادم حتى ينبهر الزمان. قال ديكارت : « أنا أفكر إذن فأنا موجود » . ولو قال : « أنا أتألم فإذن انا موجود » أو : أنا موجود فإذن أنا اتألم » لكان تعريفه بالوجود جامعاً مانعاً . وبعد هذا الاستهلال أراني مُتّهماً عندكم بالنِظرة السوداء ، أو ملحَقاً بفيلسوف المتشائمين شوبنهور . ومما يزيد في التهمة قولي في قصيدتي « النسر » :

يا خالق الانسان ، كيف خلقته من معدن دنس ، ومن أحقادِ

أخلى من القفر الجديب فؤاده واذا يرقّ فرّقه الجلاد

الوحل طبع أبيه فهو مغلّفٌ بالطين ، بئس الطين في الأبراد !

حسدٌ ، وسفك دم ، ومَينُ منافق جاءت مع الدنيا على ميعاد !..

بيد أني استقلت الله عثرتي عقب تلك الزلة ، فشارفت الهاوية واكتنفني ليلٌ ضرير ، كالذي وصفته بقصيدة من شعر الصبا حيث قلت :

ليلٌ اذا الغيدُ الملاحُ وسَطْنَه صبغ الوجوه فعُدنَ غير ملاحِ
حاولت بالمصباح شقّ أديمه فاذا بفحمته على المصباح

ثم عاد فالتمع قبس الرجاء في بصري المرين ، فانكفأت بالذكرى الى القرون الخوالي، ووقفتُ ساعةً على باب « أيوب » الذي قلت فيه من قصيدة ملحمية :

سل روابي حَوران عن خطب «أيوب»،وعن دمع قلبه وانكساره
أَنزَحَتْ لافحُ المصائب عينيه ، وعذبَ المياه من آباره
سرَحَ الدودُ في تقرّحه الدامي، وضجّ الصدّيق من أقذاره
كاد ، لولا مِجَنّةٌ من صلاحٍ يصدع الأرض من أليم انفجاره
هانَ في عين صَحْبه ، وهمُ الخِلّانُ إبّان خِصبه ويساره
ما دروا أن ربّه سيجازيه ، ويُعليه من خلال انحداره
أنّ آلامه شعاعٌ لهذا الشرق ، يوم ادّعائه وافتخاره
سِفْره آدمُ الروائع والأسفار ، في صفوه وعمق ابتكاره
سيكون السدي لمزمور داودَ ، ولحنَ الخلود في مزماره
بعد ما كان ملء خاطر موسى أو ضياءً يهلّ في أسفاره

ثم وقفت ساعةً على عتبة داود ، في بيت المقدس ، فاعتبرت بالأول مُجَدَّلاً أو ثاوياً على الرماد ، وقد شاعت الآكلة في جسده ، وجفاه الصَّحب

شأنهم في كل بلوى ، ومع كل أيوب ، فأخجلتني برارة الصدّيق ، فعدلت عنه الى الشاعر النادم ، لما بيننا من قربى روحية ، وهتفت مع صاحب مزامير التوبة في مستهلّ ملحمة « الغدير » :

يا مليك الحياة ، أنزل عليّا عزمةً منك تبعث الصخر حيّا
جود كفّيك ، إن تشأ ، يملأ العيش نماءً ، ويفرش الجدب فيّا
كلما افترّ برعم داعبتْه كفُّ ريحٍ تقول للطيب : هيّا ! ...
واهبَ النور والندى للروابي أوْلِني من جمال وجهك شيّا
طال في منقع العذاب مُقامي واستراح الشقاء في مقلتيّا
فنسيت النهارَ من طول ليلي أتُرى الليلَ شرعك الأبديّا !
ليتني أبصر النجوم فأهدي في العشايا ، ابتسامةً للثريّا
إن حظي من الحياة سريرٌ صار مني فلم يعد خشبيّا !..

ولقد استجاب الله صلاتي هذه فحباني درعاً متينة السرد ، تكسّرت عليها النصال ٢٣ مرة ، في ٢٣ عملية جراحية كبرى ، فاين الغلوّ في قولي ، بعد هذه الموسوعة من العمليات :

سالت على حدّ المباضع مهجتي فشفارها مصبوغة بدمائي !..

وإذن فلقد كانت النصال في هذا المقام شفراتٍ من فولاذ مرهف ، فما أبعدها من سهام المتنبي الوهمية في التباكي على اخت سيف الدولة : فهناك شاعر يتملّق ملكاً فيسُنّ السهام على قلمه رويّاً يخضّبه بخياله ، وهنا شاعر تلتوي المباضع في عظامه ، وتصطبغ بدمه .

ولقد أدركتم ، ولا ريب ، ان تلك الدرع ، التي ألبسنيها الله ، كانت من

إيمان هو وليد الصبر . وانما الصبر أشبه شيء بحجر الفلاسفة الذي نشده القدامى طمعاً في تحويل المعادن الى ذهب . تلك النعمة وحدها انتشلتني من التشاؤم الى التفاؤل الذي يستنبت النوازل الكالحة أملاً أخضر باسما . ويا طالما عُذِّبتُ بالصبر اذ الحمّى تشويني ، فتصوّرتُني سكران مفرطاً في الشراب ، فانتقلت من بحران المحموم الى نشوة الثَّمِل ، وأخذتُ نفسي باللوم على الإدمان ، وانا يومئذ أكاد أجرض بالماء . وقلّما كانت زائرتي المُبرِمة تفارقني فاذا هي ملّتني في السحَر فلا تلبث أن تعودني في العشيّ ، وإياها عنيت في قصيدتي « ألم » حيث قلت :

وتشيع بي حمى تهُدّ مفاصلي	وتدِبّ مثل الحيّة الرقطاءِ
فأغيب في الكابوس غيبة سابح	في النار ، بينَ الحسّ والإغماءِ
في عالم الأشباح يغرق خاطري	ويمدّني في الظلمة الشنعاء
أهوي الى مثل الجحيم مروّعاً	وأغوص في غمراته النكراء

والآن يجدر بي أن أوضح هدف هذا الحديث الذي أكرمتموني بالإصغاء اليه ، وما هدفه إلا الخير ، فاذا أنا استطعت إدخال العزاء على قلب كسير ، واستنزال قطرة من الصبر على صدر موجع ، او توجيه فؤاد بائس يائس الى القمم العلى ، فبحسبي ثواباً ، ويا نعم الأجرُ الموفّى ! ثم انكم لن تروني واعظاً ولا مرشداً ، فأنا الى العظات أحوج ، والى الإرشاد أفقر . ويخلق بي أن أسوق لكمَ بعض نماذج المأساة التي أنا مدارها ، وفيكم من شاهدَ في دور السينما جمّاً من الفواجع المختلَقة ، والمآسي البدَع ، وبعضها محنة للأخلاق بما تثير من غرائز ، وتسيل من دموع ، فما ضرّكم أن تتحملوني ، باسم المحبة ساعة او بعض ساعة أروي لكم فيها جزءاً من الكارثة التي عانيت ، وإن هي إلا قطره من بحر ، ولكنها تكفي للتعريف بالماء الزُعاق الذي تجرعته اكواباً مترعة .

●

لقد أذِن الله أن أُبتلى وأنا عهدئذٍ من الشباب في عنفوانه ، فصرعني داء الجُناب في ١٤ من تموز ١٩٣٦ ، فكان عيد الحرية آخر عهدي بالحرية الصحية ، وفجراً لمساءٍ دام ظلامه ٢٢ سنة ، لا يكاد يبسمُ لي نجم من أجوائه القواتم حتى تربَدّ الغيوم ، فلا يتكشّف أفق أدكن إلاّ عن أصفقَ منه ، وما يطلُع فجر جديد إلا منذراً بويل جديد . وشاءت العناية الالهية أن يعمَهَ أجلاّء الطب وأساطين الجراحة ، فلا يهتدون الى جادّة ، وأن يضِلّ أعلامُ التصوير فلا يرون في العمود الفِقَريّ وعظم الحُرقفة ما يريب ، فكأنهم في ضباب غشّى أبصارهم فصدفوا عن العلم الى التخمين ، وعن الواقع الى التوهّم . وموجز القول أني أمسيت حقلاً للتجارب فتناوشتني المباضع احدى عشرة مرة بين ١٩٣٨ و ١٩٤٢ . ولم يخطر لواحد من اولئك الجراحيّين ان يتجاوز اللحم الى العظم . فاذا عرفتم ان بدء الـ Ostéomyélite كان سنة ١٩٣٦ أدركتم ان الجُرثومة الخبيثة ظلّت في عظامي ترتعي بضع سنوات بدون ما رقيب ولا زاجر ، فنهكت جسدي ، واستنزفت قواي ، وحفر الداء في عظامي مَسَارب وكهوفاً . وكان على الدكتور جورج بدر ان يلملم بمبضعه الماهر شظايا القنبلة التي تفرقت في جسمي بدداً في إحدى عشرة عملية عظميّة ، بدأت سنة ١٩٤٢ وانتهت في سنة ١٩٥٦ . فما أشقّها مهمةً على الطبيب ، وما أطولها حقبةً على المريض ، أفأكون بعد ذلك مغالياً إذ أقول في قصيدتي « ألم » :

داء تخلــل في العظــام فردّها	فِـلذاً ، وأشلاءً على أشلاءِ
وتشابهت مني الجراح فأصبحت	حفراً تضلّ بها جفون الرائي
وادٍ تقطّعه الكهوف ، كأنما	جسمي الطعين مغاور للداء !..

ويحسن بي أن أجمل الحساب ، مقتصراً منه على الرصيد : فلقد بلغ مجموع العمليات ٢٣ ، وتمادى مقامي في المستشفيات ٧ سنوات وبضعة أشهر ، وكانت الحقبة التي لزمت فيها الفراش بين ١٩٣٦ و ١٩٤٢ في فترات متقطعة ، زهاء

سنتين . ثم لزمته مرة واحدة من أواخر شباط ١٩٤٣ حتى أواسط أيار ١٩٥٨.
أما النفقات الجسام التي ينوء بمثلها العُصبة من ذوي اليسار ، فضلاً عن الأديب المعسر ، فاني أتجاوز عن ذكرها أنفةً لا استكباراً . وبحسبكم علماً انني كنت أكافح على غير جبهة ؛ فلم يُتح لهذا المريض أن يستريح يوماً واحداً في ضجعته القسرية المديدة ، ولم يُمتّع بمثل منام اهل الكهف ، فكان اذا هادنه الألم دعاه القلم ، كأنما كُتب عليه ألا يهدأ له بال . فعكفت على الدرس في الساعات السوانح ، وانصرفت الى القلم في الليالي الفواصل بين عملية وأختها ، وبهذا السبب اتّسمت مؤلفاتي بطابع السرعة ؛ فألّفت في النثر كتابين : « حديث العشية » و « الصراع في الوجود » ، كما أخرجت في الشعر ملحمتين : « عيد الغدير » و « عيد الرياض » عدا المطولات من القصائد والمقالات، وخلا الأعمال القلمية التي كُلفتها ، وحاشا « مذكرات جريح » كتابي الحميم ، وهو فِلذ من فؤادي سلكتها في اليراع ثم نثرتها على الصفحات . وبرز الألم في كتبي جميعاً لمن استطاع ان يقرأ السطور وما وراءها ، ولكنه الوجع الضاحك والألم الباني .
وانما أسرد هذه الوقائع من قبيل العِبَر ، وصِدق الخبر ، وقياماً بحق التأريخ لا من جهة المباهاة . وبمَ تُراني أباهي أبالوجع أم بالبؤس ؟ أم بالكدّ الموصول ؟

●

قلت في مستهلّ الحديث إني سأورد لكم بعض نماذج المأساة مقتصراً على اليسير اليسير ، لأن الموجز وحده يقتضي المجلدات فكيف بالمفصّل . وها أنا مختار بضعة ألواح من مشاهد الألم: فمنها درع من الجفصين طوّقني ٩٠ يوماً و ٩٠ ليلة فغمرني حتى عقِب الرجْل ، وكثيراً ما اعتراني السُّعال فتكسّر على نفسه من جرّاء ضغط الزنّار الصخري البارد ، في الشتاء الأبرد ، اذ كنت عارياً في كهفٍ صُنع بغير كف الطبيعة . وفي ذلك الكهف الحجري تُركت فجوة لتمكين الطبيب من ضمد الجرح كل يوم . ولكنّ طغى الصديد من الداخل فتشرّبه الجفصين : فما أشبه الكفن الصُّلب الأبيض بالضريح المكلّس ، تنبعث منه

العفونة والنتانة، ولا مفرّ منه للدفين الحيّ ، فهنيئاً للمُدْرجين في لحودهم أمواتاً ينعمون بالرقدة الكبرى ! وما أحسبني عدوت الواقع إذ قلت :

صبحي أمرّ من المساء : فعيشتي   موصولة الظلماء بالظلماءِ

أوّاهُ ! لو كان الرقاد يزورني   لرضيت من دنياي بالإغفاء

لا يلتقي جفناي إلا خِلسةً   فكأن بينهما قديمَ عداء

ومنها ان الجراحات النجلاء، بل الثلوم الفاغرة تُحشى بألفاف من الشاش فكان يجمد عليها الدم والصديد معاً ؛ وكنت ، عند انتزاعها من المقلع ، أشعُر ان روحي تنسلّ معها . ولقد أُصبت مرّة بنزيف قاتل، وأنا بين يدي الجراحيّ العسكري الذي انتزعها عسكريّاً ، فانهمر دمي على الفراش فروّاه فأفعمه . ثم نفذ الى ارض الغرفة فضرّج بلاطها ، فأشرفت على النزع ، فحُشي الكهف من جديد واستمرّ مسدوداً سحابة ٢٠ يوماً لا تمتد اليه يد لئلا يتكرر النزف ، وانبعثت الرائحة الكريهة حتى جفاني عوّدي، فكان أصبرُهم على الشدائد لا يلبث في غرفتي أكثر من خمس دقائق، برغم الكولونيا والعطور التي ضمّخت بها سريري .

ومنها انه بعد ما تقطّعت بنا أسباب العلاج وأخفق البنسلين وسواه فمُنينا بعدة هزائم على هذا الصعيد ، عقدنا للرأي مجلس شورى ، فاقترح واحدٌ من أعضائه ، وهو ذو صيت مجلجل في عالم الجراحة ، أن نُقحم الدود في الناسور يرعى الموبوء من اللحم والعظم ويعِفّ عن السليم : الدود الذي أنِفه أيوب الصدّيق نفسُه ، اجتلبناه نحن على قطعة من لحم باض فيها الذباب وفرّخ ، وأكرمنا وفادته فأنزلناه الكهف الممتدّ بين الحرقفة والعمود الفِقَري ، لنُكرمه الضيف على الوليمة ؛ وإن قلمي ليعجز عن وصف ما لقيت من الغم ليلتئذٍ . فمثل تلك الحشرات القذرة يشمئز المتمدن من التحديق اليها ، ولو بعيدة منه ،

وينفـُر منها أشدّ ما يكون النفور ساعيةً على جلده . ولا ريب ان المتوحش يعا ُفها اذا هي غلغلت في شرايينه ، فكيف بالمتحضّر اذا كان رهيف الحس ! وأظن أنه لم يحتمل هذا الضرب من الأذى ، مختاراً ، إلا القديسون ، ومنهم القديسة « ريتا » الإيطاليـة ولكن ما أنا والقداسة ، بل أين أنا من الصلاح . ويتراءى لي ان الذباب نفسه يعشق الحرية فيأنف الغِذاء حبيسا ويؤثر الجوع . ويبدو ان الضيف لفرط نقمتهم على آسِرهم قضوا في صبيحة ذلك الليل الجهنمي الذي يقصّر عن وصف هَوله جمهور من أمثال امرىء القيس ، ولو احتشدوا له فكان بعضهم لبعض ظهيراً .

ومنهـــا اني تلقيت في خلال ٢٢ سنة من وخزات الإبر الوريدية والجلدية والعضلية زهاء ١٣٠٠٠ وخزة ، حتى تحجّرت مواضع الحقن فلم يبقَ للابرة في جسدي مغرِز ، فحرت على أي جنب أميل . وكيف المنقلب وأنا عن الحركة في متعذّر . وكان من البدهي ان يفضي استلقائي على الظهر ، هذا المقدار من الزمن – مما يذكر بأسطورة بروميتوس (Promethée) – الى إهاجة الجلد وتكوين بقع حمر لقيتُ منها شرّاً مستطيراً ؛ وعبثاً حاولت افتراش المطاط المنفوخ ، فكانت الحرارة المنبعثة من احتكاكه بالجسم سعيراً على سعير .

ولعل هذه الأوجـــاع ظلت دون التكفير عن آثامي فابتليت في ١٩٥٤ بالحصى في المثانة ، فعدت أبول دماً وأعاني من جرّائها ما أعاني ، كأن لم يكفني العرق الليلي وما برح يرافقني حتى الساعة ، وهو ملازمي منذ ١٩٣٦ ، فبينـــا أكون غافياً خائرَ القوى ، وأنا أحوج ما يكون المرء الى الرُّقـاد ، يوقظني العرق البارد ، فأصحو غير مرة في الليلة الواحدة . وفي هذا الصدد قلت في خاتمة ملحمة « عيد الغدير » :

أتلوّى على الجراح صباحاً	ويفتّ الناسورُ عظمي عشيّا
فتعجّب لسابح في جحيم	صاغه الخطب زورقاً بشريّـــا

ومنها اني في العملية الثالثة والعشرين ، بينا كنت منبطحاً على بطني ، وكان الإزميل والمطرقة يحفِران العظم على الغرار السابق ، تزلـّقت إبرة المخدّر من الوريد فصحوت وشعرت بالإزميل والمِطرقة يخُدّان في الناسور ، فيا لها من صحوة لم يستفق على مثلها سوى الشهداء . وفي أسرع من امتداد الطرف ومَضَ في دماغي المكفهر ، بفعـــل المخدّر ، ان أصرخ فيدرك الطبيب اني واعٍ ، فحاولت الاستغاثة التي يلوذ بها الطفل قبل ان يؤتى ملكة النُّطق ، ولكن الحنجرة تخلـّفت، وخذلتني القوى ، فاستجمعت ما وراءها وصحت: يا حكيم، كثّروا البنج ! وقيل لي انها نادرة في تأريخ الطب ان يفكر المخدّر ثم يشير بما ينبغي .

ومن نماذج الألم اني سلخت من دورة الزمن ٦٠٠٠ (ستة آلاف) ليلة مسمراً على سرير العذاب، حتى كان يسعدني انتقالي مسطوحاً على المحمل الى سيّارة مقفلة، في ذهابي الى المستشفى او في إيابي الى البيت . تلك هي نزهتي الوحيدة ، وقلـّما جاوزَتْ بضع مرات في السنة ! فما اطرفها نزهة كنت ألمح فيها أعالي البيوت وغصون الأشجار معكوسة ! ولقد طالعت في باب المُلَح أن احد المارّة صدمته سيّارة فكبّته على ظهره ، فنظر الى السيارة وقـــال في نفسه : الى أين يفرّ السائق وها هو رقم سيارته ٧٧٧ ؟ وكان الرقم الحقيقي ٨٨٨ . وعلى هذا النحو كنت أرى المشاهد في طريقي الى الجبل في مطلع القيظ وأفوله .

ولقد ذكرت في السياق اني ألـّفت ملحمتين ، ولعلّ ابلغ منها هذه الثالثة، وهي الستة آلاف ليلة بما انطوت عليه من وجع ومرارة وأرق ، وبما ذُقت من غِلظ عُوّدي وأسئلتهم المحرجة ، فما يرتضون إلا إسهاباً في الوصف ، وتصدّياً لتشخيص الداء الذي استعصى عـــلى الطب ، وقلّ بينهم الزائر الأنيس العليم بشعور المريض ، وبما ينبغي ان يُنشر من الامور وبما يجب أن يطوى . وفي تلك الليالي الدُّهم قلت في مطلع قصيدتي التي عنوانها « وحده » :

سوط العذاب أطال سهده فرثت لأنّته المخدّه

أنّاته الحمراء جارية مع الأنفاس وقده

لزم الوسادة عمرَه ما أطول الأعوام رقده !

برم السرير بعاشق أعيا الأساة فلن تصده

لا الليل زحزحه ولا وضح النهار أزال وجده

زفر الحديد ولا ملامة فالحديد أطاق جهده

لقد حان لي أن أبرَّ بوعدي فأقتصر على هذا المقدار اليسير من النماذج ، إشفاقاً على شعوركم ، وصوناً لمروءتي ، فما انا بالبكّاء ذي الطبع الكئيب ، والمزاج المنقبض ، بل الرجل المنبسط ؛ فمن عرفني قبل الكارثة عهدني بشوشاً في غير تبذّل ، فكِهاً في غير إسفاف ، وما فارقتني النُكتة في أشدّ حالات البؤس ، يشهد لي بذلك العشرات من أصحابي ، ويذكرون بأيّ صدر كنت ألقاهم فأربأ برجولتي ان أحمّلهم همّي ؛ فإذا أبوا الا الخوض في الكلام على الصحة والمرض أوجزت ، ثم صرفت الحديث الى المُلَح وموّهت المأساة بالمهزلة فنفست بعبراتهم أن تسيل دموعاً .

بعد البلوغ الى هذا الفصل من الحديث تحتم عليّ أن أوجز الغاية فأخلص الى النتيجة التي ترقبون . اذ لو اقتصر محدّثكم على سرد نكبات وقعت لرجل كُتب عليه أن يشقى ، فقصّ عليكم نُتفاً من عذابه وبيّن طاقة احتماله وصبره على البلوى ، لكنت إذن أنانياً فائشاً أضاع وقتكم وكلفكم رَهقاً ، وما لهذا جئتم . وما عساه يعدِل في ميزان القيم رجل يبتلى فيتعذب فيموت ، والمستشفيات ملأى بالمعذبين ، والقبورُ ضاحكةٌ من تزاحم الأضداد . ألا وإن صاحبكم ليريد بكم وبنفسه أعلى من هذه السفوح ، فلا يقف بكم على الغدير الضّحل ، فذاك مرتاد الكسالى ، ومتنزّه ضعاف الهمم . وانما همّه في

توجيه العزائم الى القِنن، ولو ان الطريق الى الصرود وعرٌ كثير العقاب، تزلّ فيه الاقدام فما يطأنَ إلا شعاباً ويفاعاً، او صخوراً غبراً جرداً، وما تقع الأبصار إلا على السباخ الموات، فلا يبقى للمُصعّد إلا معراجٌ ضيق الدرجات، صعب المرتقى، ذلك هو سلم الألم الموصل الى الذرى، الى مراقص الشعاع وملاعب السحر ... الى الله.

على ذلك المعراج تسامى الانبياء والقديسون وابطال الصلاح والإصلاح. أولئك الابطال خاضوا أرهب الوقائع، وأحماها وقوداً، فتمّ لهم الظفر، وما خضّبوا أكفّهم بالنجيع، ولا يتّموا طفلاً، ولا أيّموا زوجاً، ولا عفّوا آثار حضارة، بل كانوا هم جنودَها وبُناتها. تواضعوا أمام العلي، فما جُنّوا ولا انتحروا، اذ الكبرياء هي المدرج الى الانتحار، فما أحطّها رذيلة، تتزيا بزيّ الغلبة وهي أشنع الهزائم! لقد انتصر اولئك الأجلّة كواكب الدنيا، ومناور التأريخ، اذ كانوا على سابق علم بأن الدنيا هي وادي الدموع، فأدركوا أن ما دفعوا من شرّ، وما واجهوا من بلايا هو القياس. وان ما عرض من سوانح الغبطة هو شواذ وتجربة ومتاع الى حين. «ومن يصبر الى المنتهى يخلص».

وفي ملء الزمن جاء السيد المسيح فركّز قاعدة السلّم على مذود المغارة، وأسند أعلاه إلى رابية الجلجلة. ألا وان الترف الرخيص، واللذة العجلى، ومناعم العيش لتوهن القوى، وتبلّد العقل، وتكثّف الوجدان، وتقتل في الانسان ما هو به انسان. اما العظائم والروائع التي تستوقف الزمن في هنيهاته الحوالي فوليدة الألم والمخاض الموجع. واما الهيّن فيهون على صاحبه وعلى الناس معاً، ولا يكون إلا سِقطاً، بحسْبه ان يهوي، وعلى نظام الثّقل تتمة الانهيار. وما اشبه الألم بالبرد الباعث على النشاط، الحافز الى الحركة. وبعد هذا لا نرى عجيباً قول القديسة تريزيا: «من لم يتألم ليس بانسان».

ولا يخفى على بصائركم انه لا بد للألم من جناحين يطير بهما ، ألا وهما الإيمان المتواضع ، والصبر المطهّر ، وكلاهما مطلِع للرجاء ومشرق للمحبة . ولا يتبادرنّ الى اذهانكم أنني أدّعي فضلاً او تفوّقاً على هذا الصعيد ، فربما كان شأني كشأن سواد الاطبـــاء ، ينهَون عن التدخين ويُدمنونه ، بيد أنهم يقولون حقّاً ، ويؤيدون صوابا .

●

اراني قد أوجزت الغاية وبقي أن أُجمل النتيجة . فقد أطلت انتظاركم وانتم أشوق ما يكون الى معرفة خاتمة المأساة ، فلقد أثرت فضولكم بمـا عرضت من نماذج ، ولا ريب انكم تتساءلون كيف تمّ لهذا المقعد أن ينتقل من فراش الألم الى منبر الخطابة ? ومختصر القول في الفصل الأخير هو ان العملية الثالثة والعشرين حاشت ما تشعّث من الفقرات الثلاث الأخيرات في الظهر . وانتشلتني كفُّ العناية من الحفرة التي تردّيت فيها سحابة ٢٠ حولاً فوضعتني على طريق العافية . ولكنه سبيل السُّلَحفاة الى الجبل العالي ذي التعـــاريج والعطفات ، فكان الجرح يَعِد بالاندمال ولا يندمل .

وجاءني في اوائل ايار ١٩٥٧ من يقترح عليّ حجّاً الى لورد ، مزار العذراء في فرنسة ، على أن يكون الحج في العام القابل الذي يتم بتمامه قرن كامل لظهور أم المسيح فوق صخور المسّابييل (Massabielle) . فتاقت نفسي للطيران الى مزار مريم . ولكن أنـّى يتأتـّى لي ذلك وليس في الطائرة مُتّسع لمحْمِل . وانا عن الجلوس في متعذّر . ونذرت لله أنه اذا أمكنني من اقتعاد كرسي فانني مسافر ان هو شاء . ومنذئذٍ بدأت استقوي ، وأخذ جرحي بالالتئام ، واطـّرد تحسُّني نائماً فجالساً فثاوياً على كرسي فواقفاً بضع دقائق . وبلغت في منتصف تموز ١٩٥٨ درجة من التطوّر امكنتني من احتلال الكرسي قرابة ساعتين ، ومن الخطو في الغرفة نحواً من عشر خطوات ، متوكئاً على ذراعين[1] .

---

١ – وكان ذلك في فندق السيدرز في برمانا حيث أقمت شهراً كاملاً .

وفي اواخر تموز حُملت الى الطائرة ، وقد وُطِّىء لي فيها مهدٌ ليّن فأبيت إلا ان استوي جالساً . واقلعنا إقلاعاً هيّناً فرأيتني بين موّار ازرق دوني ، وجلَدٍ صاحٍ فوقي . وانا بينهما متشوّف من النافذة فلمحت ، اولَ ما لمحت الغبراء ، ، جزيرة قبرص . واستيقظ عقلي الباطن فانطوى بساط الزمن ٤٠ حولاً ، فوجدتني أقلب عينيّ في خريطة المدرسة على مقاعد الطلب . وكأنما رُفعت سواحل بحر الروم لبصيرتي فتبيّنها بصري قاعـــاً وسفحاً وشعاباً . واستبدلت وسادة المريض بمرتفق الشاعر ، فما اشرفها نزهة وما انضره أفقاً ! وبلغنا جوّ الاغريق في الظهيرة فأديرت علينا صواني الغـــداء ، وخالفتنا ريح صرصر ، فمالت مركبتُنا الهوائية على جناحيها بعض الميل ، فكأني قلت لها في نفسي ما معناه: باسم الله الذي جعل في سكاك الهواء مُجراكِ ، وفي سمت الأرَضين مُرساكِ ، لئن كان انعطاف جناحيك محاكاةً لأجنحة نسور الفكر ، وتسليماً على أجداث عباقرة اليونان بعد إذ بيّض الزمان رفاتهم ، لقد بيّضتِ وجـــه المعروف ! ناشدتك الله ان تخشعي ولا تسجدي ... واضطربت الصحاف على الطبق غير قليل ، فناجيت العذراء بما مؤداه : « يا مريم انت قصَدْنا ونحن ضيفك ، وانك لَمشرقيّة المنبت ، عربية السخاء ، فدعيني أُسيغ هذه اللُّقم » . ثم لانت الريح المتناوحة ، وهبطنا في روما بعد ساعـــات ، وما شكوت إلا قِصَر المتنزه ؛ وها أنا اسرع في الوصف ، فِعلَ الطائرة في المسير ، فلقد بلغنا مدينة العذراء هانئين .

وكان يجدر بي ان احدثكم عن تلك المدينة الصغيرة جاثياً لو استطعت . فلقد مكثت فيها خمسة ايام تسمّر فيها الوقت فما هي في الزمن . ولقد كان يصعب عليّ تصوّر الهنيهة الداخلة في الأبدية ، فتكشف لي في لورد معنى الوقت الذي يندّ عن الأزمنة لانه داخل في الأبدية نفسها . في ذلك المكان تغرُب عن الذِهن هذه التوافه اليومية التي نُشغَل بها في حياتنا العادية ، من مثل الجوع والشبع ، والبرد والدفء ، والأرق والكرى ، فتتعطل المشاعر في المخطاف

هو الى انتقال الصوفيين أدنى ، وبانسلاخ النفوس من أجسادها أشبه . في ذلك المصلّى تجلّ الصلاة عن ان تكون جرْساً وتمتمة شفاه لتصبح اشتعال قلوب مفصحة بلسان الدمع . هناك امام صخور المغـــارة التي تأبّت على الزخرف والتهاويل، فما يلطـّف غبرتها إلا عُلـّيقة خضراء تـدلـّى من عل، فتذكر بعلـّيقة موسى في حوريب ؛ هناك مصبّ الافئدة الدوامي والعيون الهوامل .

في مزار السيدة التي « نفخ الله فيها من روحه واصطفاها وطهّرها وجعلهـا وابنها آية للعالمين[1] » ، تلك التي « تقبّلها ربّها بقبول حسن ، وأنبتها نباتـــاً حسناً ، والتي صدّقت بكلام ربّها وكتُبه وكانت من القانتين[2] » ، هناك تنصهر القلوب في وَحدة سماوية فيكون لهـــا من الإيقاع ما لا يسمعه الفهم المقيّد بالمعادلات الرياضية ، والعقل المشدود الى المنطق ، المأخوذ ببهلوانية القياس . هناك يخبو نجم أرسطو المتـّقد ، ويتألق كوكب افلاطون وبولس وأغوسطينس وابي حامد الغزالي ، وبسكال وغندي وهنري برغسون . ويستريح علماء الكلام وأساطين اللاهوت ولو الى حين. فان تلك الرقعة من البسيطة وأمثالها من البقاع الشريفة التي هي برزخ بين السماء والأرض لتحبّب الى المتـّقين الدنيا التي قال فيها الإمام ابو الحسن : انها مَهبط وحي الله ومُصلـّى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر أوليائه .

في تلك الزاوية المعطرة بشذا مريم ، الكاسية من زنابق طهرهـا ، يستحي الجدل البيزنطي ، وتنظر العقائد الى ما هو أبعد من العقائد ، ويتشوّف الوجود الى ما وراء الوجود ، وتـُنقـّى الضمائر من رواسبها ، كما يتبخر ماء البحر فيتنزّل طلاّ جماناً ، وينهمر عذباً فراتاً ، بعد ما كان مِلحاً أجاجاً ، فيتفرغ المرء من كل شيء ليمتلىء بروح الله ، وينهزم الإلحاد شرّ الهزائم – وما الإلحاد الا امتلاء

---

[1] و [2] – بضع آيات قرآنية مدموجة : آل عمران ٣٧ و ٤٢ ، انبياء ٩١ ، تحريم ١٢ ، مؤمنون ٥١ الخ ...

المستكبرين من انفسهم ، يوصدون أفئدتهم من دون الله فلا يبقى للنسيم العُلوي مدخل .

وأرجّح في ما أرجح انه لو وجد في ذلك المكان داعر شبّ في حمأة الفجور واكتهل ، وبرزت له أجمل فتيات الأرض ، لأخذه وقار المكان فعصمه من أن ينظر اليها نظرة مريبة . في لورد تتلاقي الفئات النُّخَب من كل قُطر معمور ، وتنسجم البشر على اختلاف الألوان والأقاليم والألسنة ، فتخجل السياسة ، وتمّحي العنصرية وشقيقتها الأنانية وأختُها البغيضة الطائفيةُ الأخرى . فهناك ترى المريض غير الكاثوليكي مشغولاً بجاره الكاثوليكي ، تأخذه به الرأفة لما يرى من عاهات في الوجه والعنق واليدين جميعاً . فيتخفف في تلك الوثبات المجنحة من أثرته ، ويناجي الله من أجله ، فدين المصلّين دين الإنسانية ، لا مذهبُ طائفةٍ بعينها ، وان كانت غالبية الحجاج من الكاثوليك . هناك في الذوبان الشبيه بالصوفي ترتفع النفوس الى رب واحد ، هو الخالق الضابط الكل ، فما هو برب الجنود ، ولا بإله شعبٍ مختار – وما يختار الله إلا الطيّبين ، الى أي ملّة انتسبوا . ولئن تصارع الإخوة فأبوهم واحد هو الذي يفصل بينهم يوم القيامة ، انه الله رب العالمين وإن تشعبت اليه السبل . في لورد ، في ذلك المسجد الفضاء ، يصلّي الكل من أجل الكل . ويسألني سائل بالمعجزات ، وما عليه من لوم فيما يبتغي ، فلقد ألِف البشر المادة والمحسوس والواقع . وما الجواب على الأعاجيب من شأني ، بل شأو المفكرين العمالقة والعلماء القمم ، ألكسي كاريل[1] وأمثاله ، ممن لا تطولهم تهمة الوهم والإيحاء الذاتي ، ولا يسمو الى علمهم وإخلاصهم الريب .

بيد أني استطيع أن احدثكم بمعجزة في مدينة العذراء دائمة ، هي معجزة

---

١ – إشارة الى العالم الكبير والطبيب الجراحي الشهير الكسي كاريل الذي توغّل في مزالق المادية ثم عاد الى الله بعد زيارته لورد ورؤيته المعجزة بأم عينه .

المحبة . فإن العاكفين على خدمة المرضى يُعدّون بالألوف . وسوادهم ذؤابات المجتمع خلقاً وثقافة ، ورفعةَ منصب ، او كرم نِجَار . وسألت واحداً منهم عمّن يوفّيهم أجورهم ، وفي نيّتي أن أثيبه على مروءته ، ولقد أخجلني أيّ خجل حين أجابني بابتسامة برأت جهلي واردف قائلاً : ان مريم العذراء هي التي تدفع .

في ذلك العباب الزاخر بالمرضى الألى تقطعت بهم الاسباب ، وأقصاهم الحظ عن مائدة الحياة السمحة ، واحتلتهم آي البؤس من كل ناحية ، فانفصلوا عن اخوانهم البشر بعاهات ترتعد لبشاعتها الأعصاب ، يسبح اولئك الخيّرون جنود الانسانية ورسُل الرحمة ، فلا تهولهم فرائس الشقاء الذين تجمعوا في لورد تجمُّع الألفاظ في معجم . ولا تجد بين اولئك المتطوعين الأوادم واحداً يتذمر او يشمئز ، او يبطىء عن إغاثة ، او يخشى العدوى . بلى ، ان في مزار العذراء مرضاً واحداً يُعدي هو مرض المروءة .

ويسألني سائل يقول : وانت كيف صلّيت في لورد، وهل في امرك معجزة؟ وجوابي ان صلاتي كانت قصيرة فقلت : اللهمّ ، لتكن مشيئتك ... اما المعجزة ، فلا ، بحسب رأي الكنيسة التي تشترط اول ما تشترط ان يكون الشفاء فورياً تاماً ، بيد اني تحسّنت تحسّناً واضحاً ، واستقويت جسدياً وروحياً ؛ وما همّ ان أنهَد الى الحركة مسرعاً أو بطيئاً ، واني لموقن ان نعمة الله ادركتني ، وهذا حسبي .

وأرى ان اختم هذا الحديث الذي تكرمتم فأصغيتم اليه ، بما ختمت به « مذكرات جريح » :

اللهمّ لا تكن توبتي اليك سطحية كتوبة الفرّيسيين ، بل اجعلها ناراً تُحيل أمسي رماداً ، فيُولد من هذا الرماد بشرٌ جديدٌ تدعمُه نعمتك ، فتستقوي

فيه عناصر الخير على جراثيم الشر ، وتظهر عليهـــا كما يظهر الضحى على قطع الغمام . فأنقذني من الوَحَل الذي تزلّقت فيه كثيراً ، وخذ بيدي لئلا أعودَ الى السقوط ، فان قدمي ثقيلة مشدودة الى التراب ، منه جاءت واليه تحاول الإياب ، وأنا لست ملاكاً ، ولن أكونه فلا تتركني أعود حيواناً .

اللّهمّ ، اجعلني عبرةً لهذا النشء الطالع الذي يتفلسف عليك فتارة يمُنّ عليك بالوجود ، وطوراً يُنكر وجودك ، وقـد أضلّته الشهوات ، وأغواه الشيطان متجسّداً تارة في ابتسامة حلوة ، وطوراً في كتاب زنديق او فاجر .

اللّهمّ ، اني معلّق بخيط فوق هاوية الابدية ، واني استرحمك يوم تأذَن بانقطاعه أن تهزّني هزّاً رفيقاً ، لأرفع بصري الى فوق ثم أطبق أجفاني على آخرِ قبسٍ من ضيائك .

بولس سلامه

بيروت ١٥ ايار سنة ١٩٥٩

●

إلى سابا زريق

مقدمة ديوان

ليت المؤلف اختار سواي من أهل الصناعة لهذه المقدمة ، ذلك ان بيننا من الأخوّة ما قد يحفزني للجور عليه دفعــاً للتهمة واستبعاداً للميل ، فسابا صديقاً غيره شاعراً ، فان كان في الذؤابات العلى وفاءً ، والعصر قد فسد أهله فتقمصوا سواءً ، وتنفسوا رياءً ، إلا من عصم الله ، فشأنه معي غير هذا حين يعهد إلي في تصدير كتابه .

قيل لحاتم الطائي: عجباً لك يا حاتم ، تلقي برمحك الى عدوك وقد انكسرت قناته ! قال ما حيلتي في من يقول أعطني يا حاتم ؟!

وأحسب ان شاعرنا يؤتى ، أول ما يؤتى ، من هذه الجهة ، فيؤخذ عليه إفراطه في السخاء ، سواء أكان العطاء مالاً ، وما يملك منه إلا نصيب أديب أبيّ صرفه الشمم عن التكسب ، فنزّه قلمه عن الأخذ ، وبسط كفه للجود ، ولو بفلس الأرملة التي نوّه بفضلها الانجيل الطاهر ، أم كان العطاء شعراً يجود به في المناسبات ، وهي كثيرة في بلد صغير ، وما عنيت به الفيحاء وان كان صاحبي شاعرها الشادي بمآثرها ، بل قصدت لبنان يوم كانت أندية الأدب فيه تتجه ببصائرها نحو الشمال في مواسمها البواسم ، او في الحقب الجواهم ، لتختار لعكاظها شاعراً يمثل أجمل البقاع اللبنانية ، فيحمل في ديباجته نضارة الفيحاء

على الشاطىء الهادر، وشموخ الأرز في القمم الفاخر،فلا تحار الأندية في التخيّر، ولا يتردّد الشمال في انتقاء رسوله الى المنابر ، سواء ركّز المنبر في ساحة البيعة ، او فناء المسجد ، فمثل أبي قيصر تلتقي عليه الأفئدة التقاء النواظر عفواً على الرابية الخيّرة ، بيد ان الأكمة يختلف حسنها باختلاف الفصول ، تلقاها رافلة بالزهر في نوّار ، كاسية من بهاء الثلج في آذار، حالية باطايب الأثمار في الصيف، فاذا غشيتها في أعقاب تشرين ، فلن تجد من معالم جمالها إلا ارتفاعها عن السفوح ، فاذا أكرهتها على العطاء ، لم تظفر بغير بقايا زهر يخالطه الهشيم ؟..

إذن فالشعر ، كل الشعر ، يصطبغ بنفس الشاعر ، وتختلف مكانته سمواً وانخفاضاً باختلاف المناسبات ، ولقد أسرف النقدة في الجور على هذا الضرب من الشعر ، شعر المناسبات، وساندهم في ذلك شبابنا الطالع .

معلوم ان الشاعر يعيش في الناس ، وانه ما دام مركّباً من جسد وروح ، يفتقر اليهم افتقار السمك الى الماء، ومنهم يستمد حياته وإنسانيته وشعره أيضاً. أما القول بالأبراج العاجية ، فتزوير للواقع وافتئات على الحق . السمك يظل في الماء ، فاذا استغنى عنه بحراً أو حوضاً ، فلن ينفصل عنه محصوراً في إناء !.. ولو شارف الإناء البحر ، فدل عليه بارتفاعه مرتبةً . لذلك تحتم على هذا العضو المندمج في الجسم أن يوجع لوجع الكل ، وينشرح لانشراحه ، وإنما أتاه شرف العضوية من هذا الجسم ، فاذا انفصل عنه عاد شلواً منتناً .

ولا مُشاحّة انه في كثير من المناسبات الناجمة عن وثبة عاطفية ضئيلة الارتجاج، قصيرة الأمواج ، او عن حادثة يُسخّر الشاعر لتدوينها – ولا يكاد يسلم منها شاعر واحد – ينحط الشعر الى مرتبة النثر ، فيكون فطيراً مرتجلاً ، ولا يعدو كونه نظماً يموت بموت الممدوح او المرثي ، ويزول بزوال موضوعه ، ولا سيما اذا كان الموضوع تافهاً ، داخلاً في باب الحوادث اليومية ، بحيث لا يتجاوز الخاص الى العام ، ولا يرتفع الى مرتبة التجريد الصالح لكل مقام .

بيد ان هناك مناسبات لا تخلق القصيدة خلقاً ، بل تجسّد في الكلم تلك المشاعر العميقة التي جلجلت في النفوس أحقاباً ، حتى دفعتها المناسبة فاندفعت غرَباً عبابا ، وثبجا صخّابا ، فقامت المناسبة مقام الضوء في إبراز الألوان وما كان الضياء بخالق لها . عندئذ تجد في القصيدة من صدق العاطفة ، وإنسانية الإنسان ، وانطلاق الشاعر في آفاق التجريد ما لا تجد له مثيلاً بعد طول التفلية في ذلك النوع من النظم المفتعل ، المزعوم شعراً منظوماً لوجه الشعر ، ولا يعدِل هذا السخف إلا قول القائلين بمحبة الله ، لأنه الله ، غير منظور اليه من جهة ثواب او عقاب ، او آلاء لا تحصى ، أفاضها على المخلوقات ، ونظام عجيب عمّ به الكائنات .

ولا ريب في ان من طرد شعر المناسبات من مملكة الشعر دون تميز ولا تفضيل ، كما أُجلي اليهود عن ألمانيا إجمالاً في العهد الهتلري ، فقد فجع الأدب العالمي عموماً ، والعربي خصوصاً ، بكارثة لا تعوّض إلا بطول بقـــاء عصبة المتحكمين بالأدب والأذواق .

وتصيب الكارثة أوّل ما تصيب ، شعراء الضاد بدءاً من امرىء القيس ، الى آخر من رفع صوتا على ضفاف دجلة والفرات والنيل ، وبخاصة ، المتنبي إذ يدوس المعربدون النشاوى من خمرة مجدهم الباطل قبره ، ويسكبون ثمالات الأقداح على ضريحه وهو القائل في إحدى المناسبات :

ولا تحسبنّ المجد زقـًّا وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى ... لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويا كأنما ... تداول سمع المرء أنمله العشر . .

ولا يقتصر شعر المناسبات على العرب ، فالفرنجة ايضا من البشر ، وهم يتألمون لموت صديق او قريب ، ويستوحشون لفراق حبيب ، ويحزنون لاحتراق

مدينة ، او غرق باخرة ، ويثورون لكرامة أمة ، ويندّدون بظلم ظالم . . . الى آخر الباب .

فالشعراء إذن ، على اختلاف الأقاليم ، يتخذون المادة الأولى من الواقع ، ويرتفعون بخيالهم الى ما فوقه ، فعل الزهرة ، شميمها أطيب من تربتها ، ولكنها لا تنبت في الجوزاء بل في الأرض .

وقبل أن أضع شعر صاحبي على محك النقد المزعوم حديثاً ، أبدأ بنقده ، أنا العتيق ، وقد درّفت على الخمسين ، على الطريقة العتيقة ، فآخذ على (سابا) إثباته في الديوان طائفة من قصائد الشباب الأول « حين يبرأ رصفاؤه ، ومنهم صاحب المقدمة ، من ثمارهم الفجة » ، وهي غير ذات إشراق اذا قيست بالشعر مطلقاً ، بل اذا قرنت باخواتها الحسان اللواتي يصغرن عمراً ويرتفعن قدراً كلما كبر صاحبهن عن الصبا ، فترصّن القلم ، وتمرّس الخيال بالأجواء العلى ، فمرد الجناح الصليب على الرياح الزعـــازع ، ونهض بالشاعر ديباجة ضاحية كصفاء الصحراء في لياليها الغيد ، وشعور زاخر تعجب كيف وسعه جسمه الناحل ، لولا علمك باتساع المقلة ، على صغرها ، لاستيعاب الآفاق التي تلتبس فيها المعالم بين الأرض والسماء ، ونفس مديد لا ينبهر ، فهو في آخر الجولة مثله في أولها ، لا لهاث في القوافي ، ولا بحّة في الإيقاع .

وعذر شاعرنا في نشر قصائد الفتوة وعرض الحصرم بجانب العنب ، ان في الحصرم لذة التلفت الى ماض انما سمّي كذلك في ما اصطلح عليه الناس من تسمية وتجزئة للزمن ، بيد ان الانسان واحد يستعصي على التجزئة ، فهو حاضر في ماضيه بتلك البواكير نفسها ، فكأنما هو يضنّ بالحصرم على الفناء ، لأن فيه ما يثير الريق ، وينسيك طعم العنب على حلاوته .

ومما يؤخذ عليه ، تكرار القول في إصلاح المجتمع ، والدعوة الى مناهضة الظالمين ، والنقمة على لئام الأغنياء ، والتنكر للطائفية ، وما يتصل بهذه الشؤون

من قريب ومن بعيد . وعـــذر الشاعر في ذلك ان فكرة واحدة تخطر في بال مفكر، فتكون منطلق فلسفته ومدارها، فلِمَ يعاب الشاعر اذا كرّر الصيحة في وجه المجتمع ، ناقماً على مفاسد تجدّد كل يوم بين سمعه وبصره . دع ان هذا النغم المردد أخف على المسامع من عويل مرضى الرومنطيقيين الذي لا يهدأ ، حتى لتحسب قصائدهم المآتم ، حروفها السوداء بطاقات النعي ، او شارات الحداد ، فتذكر بالخير ايام « الدخول فحومل » .

وقبل ان نطوّح بهذا الديوان ، فنلقيه بين مخـــالب النقد المتوشح بوشاح العصمة ، نستميح القارىء وأعلام النقد ، إقحام النادرة الآتية ، وان كان التصدير يضيق بالنوادر :

في الأساطير اليونانية ان جبّاراً عتيّـــا اسمه « بروكيست » ، كان يقطع الطريق السابلة على المارة فيجردهم من كل نفيس ، ويبسط واحدهم عاريا على سرير مسرود من حسك الحديد ، فان قصرت قامته عن التخت أخذه الجائر برجليه ومطّه مطّاً تنخلع منه المفـــاصل والأوصال ، فاذا طالت ، حذف الزيادة من جهة الرأس والقدمين ، وندر من طابق جثمانه السرير فنجـا من البتر والمد .

بيد ان الفئة الناجية كانت تخرج عارية ناصحة للناس ألا يسلكوا هـــذا الطريق الذي يتراءى للعيون البريئة دميثاً براحاً ، مخضوضراً رحراحاً ، وان الأزاهر القائمة على ضفتيه لو تفتحت أكامها لانفرجت عن زنابى تلدغ او نيوب تلسع ، وقلّمـــا سلم الفـائزون بالحياة عراة من خدوش كثيرة ، فكأن « بروكيست » آلى على نفسه ان يسم الناس بميسم العبودية اذا خانه الحظ في البطش بهم .

ومثل هذا السرير شائع عند نقـّادنا ، وقـّام الله وصمة السلب ، ولا يعد من قبيل (التشليح) شن الغارة على اكفان الموتى الفرنجة ، واستلال خيوط هذه

الأكفان ، ليطرزوا بهـا مطارفهم بعد صبغها بالصباغ العربي أو جعلها اللحمة هنا ، بعدما كانت السدى هناك ، وما أحسب هذا من قبيل السلب الداخل في باب الجناية ، ولكنه الجناح المنصوص عليه في باب انتهاك حرمة الموتى .

ولقد بلغ النقدة من النزاهة مبلغ التأله ، فلست بواجد في ضمـائرهم محط ذبابة لسوى الحق ، لو قدّر للذباب ان ينغمس في الضمائر ، فمـا أشبههم عند تصنيف الشعراء بالديّان يوم الحشر إذ يتيامن الخراف ، ويتياسر الجداء ، ويدخل المباركون الى الملكوت ، ويطرح المحرومون من وجهه تعالى في الظلمة.

أما قوائم هذا السرير « البروكستي » فمنها تعطيل الوعي على نحو ما يقع للصوفيين ، في حالات الشطح ، أو للهنود في حالات التخدير والانطراح عراة على المسامير ، ويردّون هـذا الوحي الى اللاشعور ، ولو اطلعوا على ممتعات فرويد، وآدلير، ويونغ على الأخص، في مضامين العقل الباطن (Inconscient) لما وقفوا على الغدير الضحل . ولكنهم لا يعرفون من أمر هذا الخضم الأسود أكثر مما يعرفون من معاني الخير والحق والجمال التي يتغنون بها في كل مناسبة ، ويعجزهم القيام بحقها فضلاً عن تحديدها . وان البليّة لتكون أيسر لو خرجوا بهذا الوحي اللاشعوري الى الدائرة النيّرة ، فلا بأس على الوردة أن تستمد عبيرها من جذور ضاربة في السهاد ، غارقة في العتمة . أما أن تظل أكمامهـا مغلقة بالدجى ، فوارحمتاه على الحسن .

ومن قوائم السرير « البروكستي » التنكر للعقـل ، ولبناته الأفكار ، ولو كنّ أبكاراً ، عرْبا ، أترابا، كأن الفكر وهو القمة يبقى متفرجاً خاملاً مترهلاً ممدود الساقين في هذا المعمعان الذي يلتهم الانسان كله ، ويحتل أعماق أعماقه ، ومنها السرداب المظلم ، او المنطقة اللاشعورية التي يشيرون اليها على أنها منبع الوحي ، فلماذا يريدون ان يبدأ الإلهام من تحت ، وفي عرفنا أن الضياء يتنزّل على القمم قبل أن ينزلق الى السفوح. ويوازي هرطقتهم هذه في تقسيم المشاعر ،

ضلالة الماديين الذين ثرثروا في تقسيم الدماغ الى مناطق تتشعب منها الأقنية والحواجز ، حتى طلع عليهم هنري برغسون بكتابه « المادة والذاكرة » فتلاشى سراب التجزئة ، وغمر برغسون او هرقليط سدودهم وحواجزهم ، ونسفها الى آخر الدهر ، واعتبر الانسان كلاً متداخلاً . ولو فطن النقدة الى الرائعة العالمية « فوست » لغوتيه ، وعلموا مبلغ ما يستشهد الفلاسفة بآيها ، لأدركوا ان ذروة الفكر هي ذروة الشعر ، ويروق لي في هذا المقام نص أحد سادة القلم عندنا في كلام له على الفن حيث يقول :

« لقد كان قدماء اليونان، وهم لا منازع اساتذة الخلق في الابتداع والتفسيح في الفكر ، يطردون من أرضهم من يضيف في القيثارة وتراً آخر ، فان الحرية في الفن هي ذات دائرة، من تعداها فقد تعدّى دائرة العقل، لا أقل ولا أكثر.» وقوله :

« آية ابن الفن في الفن ، ان يعرف كيف يشد الخيط، خيط العقل فلا يفلت من يده ، أما اذا هو أفلت ، فلا المخالفة تشفع بالصنيع الفني ولا المشادة ، إذ ان الشرط في كل شيء هو ان تكون ذا عقل قبل كل شيء » .

وبعد فان النقدة أصحابنا ، يحملون على العقل بالعقل نفسه ، واني لأربأ بهم أن يكونوا في حالة لاشعورية حين يسفّهونه ويزدرون به .

وفي قوائم ذلك السرير « البروكستي » عينه، ان اللفظ لا قيمة له في الشعر، والافتتان به بدعة ، ما أنزل الفن بها من سلطان ، ان هو إلا رموز تنقلك الى جو الحسن كما يلفتك اللواء الى الأمة التي وراءه » وكما تومىء الزنبقةِ الى الطهر ، أو هو من قبيل « الشيفرة » في البرقيات ، على الموظف ان يفك رموزها ، كما على القارىء ان يفسر الألغاز اللاشعورية . بيد أن سادتنا النقدة يستدركون الأمر فيولون الألفاظ بعض اهتمامهم عند الكلام على موسيقى الشعر » إذ ينعون على المسرفين في العناية بالإيقاع والجرس ، إسرافهم — وهي

طعنة في ظهر المدرسة الرمزية ، وان غلّف الخنجر بقراب من دمقس – فيقول واحد منهم : ان هؤلاء (يعني الرمزيين) ، « لا يحسبون للفكر والعاطفة والصور حسابا » . حقاً ان في هذا التناقض لعجبا : لقد رأيناه منذ لحظة ، يطرد الفكر من ملكوته ، ونراه يعود اليه عن غير قصد منه فيقحمه في العناصر الشعرية . هنا يستعيد العقل الباطن سلطانه ، في هذه الفلتة ، وهي من قبيل الـ Lapsus الذي يتحدث عنه فرويد ، فيبيّن كيف يفضح اللسان عفواً مخبئات اللاوعي .

وهنيئاً لك يا صاحب الديوان ، زعم القوم ان الفكر والعاطفة والصور داخلة في عناصر الشعر ، فما خلا شعرك منها . طردوك من الباب ثم أدخلوك من النافذة ، وشالتك القائمة الثالثة من قوائم السرير بعد ان هوت بك الأولى لانك تظل واعياً عند النظم ، وأسلمتك الثانية لأنك لم تخن العقل ، فتطلّقه الى الشطح ، وقد فات أصحابنا ان الخيال هو في صميم العقل بل هو العقل في آفاقه الصِباح ، ما لم يحسب العقل مرادفاً للقياس المنطقي ، وهذا مما لا يقول به عاقل .

وعلى الجملة فان بعض آلهة الشعر العربي الذين ينزلون من سماواتهم بين الفينة والفينة لنقد الشعراء وتصنيفهم فصائل فصائل ، او لنصرة بعضهم على بعض ، جرياً على نهج رصفائهم آلهة الإغريق ، يهبطون الى الأرض حين يطيب لهم ، ويخلونها حين تشتاقهم السماء ، يكادون ينكرون الشاعرية على المتنبي ، فاذا منّوا عليه بها ، فبعد الصراع الذي يحمّر فيه بياض وجدانهم حياء من ملايين العرب الذين يزعمونه مالىء الدنيا وشاغل الناس . وبديهي ان يرسب شوقي في الامتحان ، ويهوي في أثره من القافلة اللبنانية نخبة طيبة في طليعتها أمين تقي الدين . فاذا كان نقّادنا قد زكموا في الحديقة العابقة بالورد ، أفتراهم يحفلون بالبنفسجة وراء السياج يا سابا ؟!..

وتهون النكبة بالنقاد ، وقد أتاهم العمه من صلف واعتداد بالنفس أو من

زكام شديد يجني على السمع والشم والبصر جميعاً ، بإزاء الفواجع التي تأتيك على يد النشء الطالع او النازل ، لأنه متحرّك على كل حال – والكلام هنا يدور على سواده – فان في الهشيم بعض الورود ، تلك سنّة الله في الأجيـــال ، فان العناية التي أوحت الى نوح أن يصنع الفلك، ويسّرت ليونان إنقاذ نينوى ، وأنقذت لوط وآله من سدوم ، إلا عجوزاً في الغـابرين ، لا تزال ترعى نخبة الشباب فتقيهم الأوبئة الفاشية في عصر الناس هذا ، ومنها الإلحـاد والإزراء بالقيم ، حتى ليتوهم الزغب الحواصل ان الكون بدأ بهم ، ولـكان الخطب أيسر ، لو تقدمهم روح الله مرفرفاً على الغمر ، كما يقول موسى ، فلا آلهة إلا هم ، ولو وثنيين ، أوليس المريخ والمشتري وعطارد وما حولها ، أترابهم ، أو مواطىء أقدامهم في شطحة اللاوعي ونشوة الانتفاخ؟ ولتجدنّ في تلك الصدور من بغضاء للسلف الصالح ، واحتقار للقدامى – وإنما تعلموا النقلة على أفنانهم– ما لا تجد له مثيلاً في صدور الضرائر ، فاذا بلغ واحدهم بضعة أبيات بعد كدّ الخاطر وسفح العرق البارد غبّ العرق الحار ، طاب له التهكم بأساطين الصناعة وفحول القلم بدءاً بالمعاصرين ، حتى الذين بيّض عظامهم دجى الرمس وكرّ الليالي. فاذا ابتليت بواحدهم يتلو قصيدة ألفيته يرتلها ترتيلاً كأنها سورة النجم او الضحى تجويداً وتنزيلاً ، ويلقيهـــا كما يتنزّل الإنذار من طائرة ، فتراه تارة ينقبض انقباض الشتاء وطوراً ينبسط في الإداء انبساط الشحيح المرائي ، ينثر الدراهم على اليتامى في عيد الفطر من الشرفة العالية متشوفاً مشرئباً ، منتفخ الصدر والأردان .

ألا غفر الله لسعيد عقل جنايته على الأدب من حيث أراد به خيراً . أجل ان سعيداً الجبّار الذي استهللت قصيدتي فيه بقولي :

ملك يراعك يا سعيد   فالخلد أيسر ما يريد

هو الذي خلـّف، على غير قصد منه ، في مملكة الشعر ، فصيلة من الأقزام .

وكأني بهم ، وقد اختلعوا صِوانه عمدوا الى مطارف العملاق ، واقترعوا على قمصانه ، وتوكأوا على صولجـــانه ، وقلّ بينهم الذين ترتفع قاماتهم عن مسوخ الأسكيمو ، ولقد انتهبوا فاكهة المائدة وعبثوا بالنقل الذي يتلمظ به على موائد الشراب موقنين أنه الدسم كله ، فهزلت أقلامهم وضاقت آفاقهم ، وأنـّى لها ان تتسع وبضاعتهم لا تعدو جدولاً من الكلم يشابه جدول الضرب في عـلم الحساب، تُختار منه اللفظة الفرحة للتعبير عن الآهة المصطنعة ، وما هم في عصر كثيّر عزة ، وجميل بثينة .

ولقد كان يغفر لهم كذبهم الفني لو استطاعوا إبداعاً واختلقوا ميسماً خاصاً يُعرفون به ، ولكنهم أبعد ما يكون عن الشخصية فان استطعت التمييز بين أقداح السكارى بسوي الغيرية أمكنك التفريق بين غزاة الجدول اللفظي ؛ ومن هنا تكاثرت النكرات وندرت الأعلام .

لقد كان شأن صاحب « الجدلية وقدموس » ، شأن المصلحين الدينيين ثاروا على الخرافات فمهدوا السبيل للهرطقة ثم للإلحاد .

فيا صاحب الديوان ، هنيئاً لك ان قامتك لا تطابق سرير « بروكيست » فدلّ رجليك من فوقه ، فان أرسطو على عظمته وروعـــة مقولاته العشر ، لم يستطع احتباس الفكر في تلك الأُطـُر ، فكيف بالسرير المخلع القوائم ! دع الموازين الغربية تضطرب كفاتها في الهواء المشرقي ، فهي إنما تصلح لما وضعت له، فمن العبث ان تقيس الارض باللتر ، والبطيخ بالمتر ، ولا بد لمن يتلهى بهـذه المهزلة من الوقوع في الضلالة التي تردّى فيهـــا التراجمة ، فالأذن التي تسمع : (Au nom de Dieu, clément et miséricordieux) غير التي تسمع « بسم الله الرحمن الرحيم » والذوق الذي يبرمه سرد عشر قواف متواليـــات ، على ضفـاف السين ، غير الذوق الذي يطرب لمئات القوافي تهلّ على النيـل ، في « نيرونية » مطران او مطولات شوقي ، فمن زعم ان مقاييس الجمال موضوعية فقد افتأت على الذات .

يقول قائل : ولكن الذات البشرية واحدة في نظرها الى الجمال ومثله العليا، فاذا صح هذا القول ، فانما يصح بالنسبة . ألا ترى ان الشخص الواحد يترنح لنشيد يسمعه في الصباح ويتجهم للنشيد نفسه في المساء ، وان العين التي تستحلي البدوية مشرفة من هودجها على بساط القفر تستقبحها في ذلك الهودج على ساحة البرج ، فعلى رسلكم يا أصحاب الموازين ، انكم لمن المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم او وزنوهم يُخسرون .

*

هنيئاً لك يا سابا ، الرجولة في شعرك الخــالي من الهذيان والتخنث وغنج العوانس ، وكفى به انه مرآة تنعكس فيها حياتك من محبة تعلو على المنافع ، وخصومة مبدئية تبرأ من اللوم ، وأريحية تهزك فلا تدّخر شيئاً في سبيل وطن وكرامة أمة، فديوانك ديوان الفيحاء برياضها الخضر وبحرها السمح و«رشعينها» الذي تنهل منه الشفــاه ولا ترتوي ، وسيفنى خلق كبير من الذباب المذهّب الأجنحة ، الدائم الطنين ، قبــل ان تنطوي أجنحة النسور القشاعم ، فاذا انتقلت من الحياة الدنيا ، بعد عمر طويل ، ظل رفاتها مشيراً الى انها النسور... أما الذباب فلا رفات له !

الصَّيْد

قبل أن يتألف الانسان الحيوان فيصبح راعياً ، وقبل أن ينكبّ على الأرض ويستخرج كنوزها فيغدو حارثاً ، كان الانسان صيّاداً . فهو لم يكتفِ بالثمر ولحاء الشجر ، بل استعر في أحشائه قرم الى اللحم ، راح ينشده في ذوات الظلف والخف وفي ما يدرج وفي ما يطير . وأغار على الحيوان يرشقه تارة بحجر يسدده اليه بقوة الساعد الملتف ، ويرميه تارة بالمقلاع ، فيزيد في قوة الدفع وبُعد المدى ، حتى فتقت له الحيلة ابتداع القوس والسهم فبلغت الرماية بذلك أوجها في العصور الغابرة .

وعندما أضحى الانسان في بسطة من العيش، خرج الصيد عن غايته الأولى، أي التماس القوت ، فصار لهواً يتسابق اليه الندمان زيادة في السرور ، ويطلبه المتعبون تفريجاً للقلوب . وهام به الملوك حتى أصبح لهو الملوك . وتفنن الانسان وابتكر الأساليب في الصيد فطارد الغزلان والمها ، يكرّ عليها بالجياد الضوامر، كما يقول امرؤ القيس في المعلقة .

وقد أغتدي والطير في وكناتها   بمنجردٍ قيد الأوابد هيكل

ونرى جميع الشعراء الذين نظموا في الطرد يستهلون قصائدهم بعبارة « وقد اغتدي » . وهذا ما يفعله الصيادون ، اليوم ، إذ يبكرون في الغداة فيبغتون

الطير ، وهي لم تنفض عنها حبوب الطلّ بعد . والصياد يكون في مطلع الفجر أمضى همة وأصلب عزماً منه في الظهيرة أو في الأصيل .

والأوابد التي يشير اليها الملك الشاعر هي جمع الآبدة ، أي الوحش والطير المقيمة بأرض ، صيفها وشتاءها ، مثال ذلك الأرانب والحجلان في لبنان . ونقيضها القواطع ، وهي التي تغيب وتعود ، مثل البط والسمانى .

وطارد الانسان الطرائد بالكلاب والبزاة . وأسرع الكلاب عدواً النوع السلوقي ، وهي خمص البطون ، منجردة الأياطل ، مستطيلة الأعناق ، مرهفة السوق ، تندفع اندفاع السهم في أثر الوحش ، فلا يفوتها إلا نادراً . وفي هذا النوع من الكلاب يقول أبو نواس :

أنعت كلباً ليس بالمسبوق   مطهّما يجري على العروق

أما البازي فهو ضرب من الصقور يؤخذ صغيراً ، ويقوم على تربيته رجل كثير الأناة والصبر ، يسمّى البازيار أو الصقّار ، فيدرّب هذا الطائر الكاسر على الطراد . وقبل ابتداء الصيد ، يعمد الصقّار الى عصفور يذبحه ويجرع البازي من دمه قطرات ليوقظ فيه الشهوة الى الدم . وهو لا يحاول إشباعه لأنه اذا شبع تراخى وأحجم عن الطراد؛فهو إنما يبغي القنص لنفسه لا لنفع صاحبه. وإنما يكون هذا في الباشق الصغير الذي يعد لقنص السمانى ، وهو الطائر المعروف عندنا (بالفرّي) . ويقوم ذلك بأن يحمله الصقّار على يده بعد ان يعلّق جلجلا في رجليه ، ليستدل برنته على مكان البازي في المروج الفيحاء ، حيث يغوص في الخضرة ، فاذا ثارت الطريدة من مجثمها ، انطلق في أثرها ، فأنشب فيها براثنه وهوى بها الى الأرض ، فيأتي صاحبه ويستنقذها منه . وفي الصقور الشواهين الكبيرة التي تراض على صيد الحجلان . وحسب الحجل ان يشعر بوجودها لتنهدّ عزيمته وتتلاشى قوته في الطيران ، فيأخذه الصياد من أسهل الطرق . ويدرّب هذا النوع من الشواهين على قنص الغزلان ، فهو يتبع

الظبي ويهوي بجناحيه على رأسه ، فلا يزال يضرب بقوادمه على عيني الغزال حتى يغشى على بصره ، فلا يستطيع سيراً فيدركه القانص فيذبحه . وقد عرفت هذه الطريقة في الصيد ، في نواحي جبـــل عامل وسهل البقاع وسهول عكار ، ولم يزل الصيد بالصقور مستحباً في جهات عكار وبلاد العلويين الى اليوم .

أما الصيد بالسهام فقد عرفته العصور القديمة في جميع أقطار الدنيا . وفي هذا النوع من القنص يظهر حذق الرامي ، إذ لا يخفى ما فيـــه من صعوبة في التسديد . ومن يصطاد بالسهم كمن يصطاد بالرصاص ، لا « بالخردق » الكثير العدد الذي ينتشر رشاشه فيصيب الهدف ، شرط ان يكون توجيه البندقية محكما . وقد وصف الشاعر المجيد ابن الرومي هذا النوع من القنص وصفاً رائعاً حيث يقول :

وقد اغتدي للطير ، والطير هجّع ... ولو أوجست مغداي ما بتن هجعا

وجَدّت قِسيُّ القوم في الطير جدّها ... فظلت سجوداً للرماة وركّعا

طرائح ، من بيض وسود ، نواصع ... تخال أديم الأرض منهن أبقعـــا

نؤلف منها بين شتى وإنمـــا ... نشتّت من آلافها ما تجمعـــا

فكم ظاعن منهن مزمع رحلة ... قصرنا نواه دون ما كان ازمعا

وكم قادم منهن مرتاد منزل ... أناخ به منا منيخ فجعجعـا .

الصيد العصري :

ولننتقل الآن الى الصيد العصري ، وخصوصاً الصيد بالسلاح الناري في لبنان ، ولا تكاد قرية في لبنان تخلو من هواة الصيد . وإدمان الصيد كإدمان المسكر والقمار ، وقد يبلغ بصاحبه مبلغ الوجد حتى ليضحي بكل شيء في هذا السبيل ، فترى الشاب المنعم الذي ألف لين المهاد وحلاوة الترف ، يعتزم رحلة

صيد ، فلا يراود النوم عينيه ، ليلة السفر ، إلا غراراً ، وتراه يهب من منامه قبل أن يستبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، فيخف الى بندقيته لا يثنيه برد ولا زمهرير ، يخبّ في الوحل ، ويتوقل في الجبال ، غير مبـــال بالصخور المرهفة ولا بالأشواك الملتفة تُدمي بنانه ، ويتقطر الدم من أصابعه وتتمزق ثيابه فلا يكترث للامر .

وقد يقاسي من الجوع والعطش ما يقاسي ، ولا يجد لذلك ألماً ، وتنبعث همته فيقطع عشرات الأميال، وحسبه ثواباً عن كل ذلك أن ينال بعض الطيور ليعود مغتبطاً هانئاً . وقد يكلفه الحجل الواحد ما يربي على ثمن كبش سمين . وهو عندما يصوّب بندقيته الى الطريدة ويضغط باصبعه على الزناد فيهوي الطائر الى الأرض ، تتمشى في جسمه ، نشوة الظفر ، كما لو كانت السماء بنجومها قد هبطت الى الأرض هدية اليه ، فيخف اليها ويحرزها في جعبة .

وقد رأيت ، بعد ان تمرست بالصيد طويلاً ، ان أهم شروط حسن الرماية هو ضبط الأعصاب عند توجيه البندقية الى الطريده ، فان برودة الدم تنفع صاحبها كثيراً في هذا الموقف ، ويصعب على أصحاب المزاج العصبي ان يمسكوا جأشهم في هذه الحالة ، فكل صيّاد يرتعد من فرّة الحجل او وثبة الأرنب يبوء بالفشل في أكثر الأحيان . وهنا تفاصيل كثيرة في كيفيـة التسديد وحسن الإصابة ، وهي تتوقف على نوع الطريدة وسرعتها ووضعية الأرض ، ويدركها الصياد بالاختبار الطويل ، بعد ان يكون أحرق مئات القذائف وأحفى كثيراً من النعال .

في الطرائد :

أما الغزلان فهي نادرة في لبنان ، ولم يبق منها سوى القليـل في الجنوب والشمال . وتجد في بعض غابات عكار بعض الأراوي (chévreuils) وهي نوع

من الوعول ، والغزال أخفّ منها في السهول ، ولكنها أعدى منه في الوعور وأسرع في الطفر على الصخور .

أما الأوابد التي يقصد اليها الصيادون ، عادة ، في هذه البلاد ، فهي الحجلان ، ومطلبها عسير ، لأنها لا تكثر إلا في الجبال الشم ، يجوبها الصياد والعرق يتحدر من جبينه ، فلا يبلغ هذه المعاقل إلا بشق النفس . وفي المثل السائر بين الصيادين : صيد الحجل يقرّب الأجل . هذا فضلاً عن سرعته في الطيران ، خصوصاً وانه يطير من أعلى الى اسفل ، فيزلّ في المنحدر كما يزلّ الشهاب الثاقب . وليس الحجل أسرع الطيور ، فالبط أسرع منه . ولكنك تصيد البط وأنت واقف ، وقد تأهبت له ، لأنه يطل عليك من بعيد فتراه في الجو ، ويستطيع الصيّاد الماهر ترجيح مصير الطلق ، إذ يرى الطريدة ويقدّر المسافة ويحس برعشة الظفر قبل الرماية . ولسقوط البطة على الحضيض أو في الماء – وهي لا تسقط إلا من عل – دويّ يحدث في نفس القانص رنة طرب لا يستبدل بها أطيب الأنغام الموسيقية . وأصعب الطيور مرمى دجاجة الماء المعروفة بالـ (bécassine) لأنها تقطع في طيرانها ما يفوق المايتين وعشرين كيلومتراً في الساعة ، ولأنها تطير متعرجة متلوية فلا تسير متراً واحداً في خط مستقيم . أما الطير الذي يأبه به الصيّادون كثيراً فهو السمانى ، أي الفري الذي يهجر مصر في أوائل الربيع وينتشر على السواحل اللبنانية . وهو لا يطمئن إلا في السهول حيث يكثر المرعى ويتموّج العشب الطريء . وصيد السمانى يستهوي الصيادين جميعاً لأنه يكون في إبان زهو الأرض وعرسها ، إذ لا برد ولا حرّ ، فيغوص الصيّاد في بحر أخضر ، يترنح بين يديه ، فلا يودع عبيراً إلا تلقاه آخر ، ولا ينصرف عن زهرة إلا ضحكت له وردة أخرى ، فاذا أحس بالتعب دعاه هذا البساط الجميل الى الراحة ، فعمد الى شجرة ونزل ضيفاً خفيفاً على الظل الوثير ، وقد قام برياضة البدن ونزهة النفس ، ونشق العافية فادّخرها في رئتيه ، وراح يكحل جفنيه بسحر المباهج ثم يطبقها على نشوة من الأنس والطلاقة .

في هيكل السّحر

خطر لي في مطلع آب سنة ١٩٣٥ أن أجاور النجوم الى حين ، فراراً من الحرّ اللاهب في جوانب الفيحاء (طرابلس) يلفح بساتينها وزيتونها في الهاجرة، فيمّمت شطر الأرز وبلغته في العشيّ قبل أن تتوارى حمرة الشفق في العتمة ، وكأن الشمس تسلخ نفسها سلخاً عن تلك البقعة الحبيبة فتخضّب الأفق بهجتها الذائبة .

وأجلت بصري في الرقيع الأزرق، فخيّل إليّ ان النجوم في متناول يدي، فليس إلا أن أمد اليها كفّي . وآلمني علمي ببعدها ، وبكون أصغرها في رأي العين يربي على حجم الأرض ، كما تربي جبال الأرز الشوامخ على النمال التي تدب عليها .

وتفقدت غرفتي في فندق الشفق فاذا هي شرفات سماوية تطل من نوافذها على الجمال مبسوطاً مدّ البصر وملء البصيرة . وعلمت ان الشيخ يوسف رحمه صاحب الفندق آثرني فخصني بالغرفة التي ينزل فيها خاله صاحب الغبطة بطريرك الموارنة ، حين يأتي الأرز يوم عيد التجلي . والعامة تدعو هذا العيد عيد الرب ، والأرز أرز الرب ، إذن فقد أحسن غبطته الاختيار إذ يقيم في ذلك اليوم قداساً حافلاً في ظلال الأرز يشهده الألوف من الناس على اختلاف مذاهبهم وطقوسهم ، فكأن الطائفية تمّحي أمام هيبة الأرز الجبّار ، وتنصهر

النفوس في وحدة شاملة يضمها الفضاء الرحب في هيكل السحر والجمال . ثم ان هذا العيد ذكرى تجلـّي السيد المسيح على طورطابور، إذ رآه التلاميذ في أسنى حلل البهاء ، أجل لقد تجلى يسوع مرة واحدة على طور طابور ، ولكن قوة العليّ تتجلى في الأرز كل يوم عند مطلع الشمس ومغربانها .

في الحديث المسند : ان الله جميل يحب الجمال ، وها هو الجمال الدافق يطلع مع الفجر المذهّب الأشقر الأذيال ، وكأن الضياء الوليد تستخفه النشوة إذ يشرف على لبنان، فيستبق أمه الشمس مبشراً بمقدمها ولسان حاله يقول : لبيك يا لبنان إنـّا هنا .

وتطلع الشمس فتحلّ غدائرها، وتلقي بها الى بحر أبيض تواطأ الناس على تسميته ضباباً . وقد يصح هذا التعريف ويطابق الاسم المسمّى في غير هذا المكان ، ولكنه هنا زراية على الجمال وعلى المعنى والموسيقى معاً ، إذ تبدأ هذه اللفظة بالضاد تليها الباء فتذكرك بالضب مجموعاً . أوَلا ترى أن الجوهر نفسه يختلف باختلاف المكان ؟ فالريق في ثغر الحسناء يدعى رضاباً كان وما برح موضوع غزل الشعراء – أعني الذين لا يتقذرون ولا يتأثمون – ولكنه متى فارق الثغر عاد لعاباً تشمئز منه النفوس وتنبو عنه المسامع . اما الضباب هنا فسمّه ثلجاً صيفياً ، او غيماً ريفياً ، او البياض المطلق المنعتق من الأجرام ، المجرد من الاجسام ، المنسوج بأصابع اللألأ يتراكم سدلاً فوق سدل، وعباباً فوق عباب ، ولجة ترتمي إثر لجج . ذلك هو الطوفان الذي يغمر وادي قاديشا في الأسحار ويتعالى حتى يبلغ اشجار الأرز نفسها ، فيلقى غصونها مبسوطة كأنها أذرع الأمهات تستقبل أبناءها الغائبين ، فيغسل أكامها ويبعث الخضرة في السنابل ، ويسقيها العنبر شراب آلهة اليونان لئلا تؤذيها حرارة الشمس . وهو يضنّ بنضرتها على الذبول ، وينفس بمجدها على الأفول ، وقد رافقها الندى السمح منذ فجر التأريخ، وساير تلك الجذوع الدهرية التي ثبتت للأيام ، فكان ثباتها حافزاً للاقلام ، اذ لم يكد يتحرك في العالم القديم يراع شرقي ، مؤمن بالعظمة

والجمال ، الا حاملاً ذكر الارز ، شاعراً بعظمته ، عابقاً بشذاه الذي تتفتح له الصدور ، فينعم به القريب ويتشوق اليه البعيد، فمن لم يمتع به الحواس متع به المخيلة . وهذا سليمان بن داود الذي بلغ الذروة في الأبهة والأناقة ، وتقلب في مناعم العيش ، يلتفت الى الأرز حين يفكر ببناء اول هيكل شيد على وجه الارض لعبادة اله واحد . ويختار الشجر الذي يتمرد على الزمان الا ّ ان يسمح الله بفنائه .

وجلست في ظل الارزة المنسوبة الى (لامرتين)، على انه في الحقيقة لم يبلغها ، ولكنه وصل بشري وحالت عِقَاب الطريق دون بغيته ، فـأوفد من مدينة المقدمين المردة من ينقش اسمه على رخامة سمّرها بالشجرة . وعندي ان رحلة الشاعر حجّ كامل فانما الأعمال بالنيّات . ونظرت الى السور القائم حول الغابة ليصونها من عبث العابثين ، وفؤوس المحتطبين ، ونيران المصطلين ، فقلت في نفسي عجباً ! أليس في هذا المكان من الوقار ما يصدّ عنه اعتداء المعتدين؟ فلقد صدت هذه الجذوع عنف الزمهرير وصدمات الرياح الزعازع ، وشلت يد الفساد طول الأجيال الغابرة ، ولفت في لبابها أعمار الدول القديمة ، وانطوى في قشورها أجل الف عرش وعرش ، ثم يأتيها صبي احمق ، أو راع طائش فيهددها بالفناء ! حقاً إن الإنسان ليستطيع ان يهدم في ساعة ما حضنته الطبيعة في ألوف السنين .

وبينا كنت غارقاً في هذه التأملات أقبل نفر من الزائرين الفرنسيين يتقدمهم كهل ممعن في الطول فسألني ، بعد السلام ، عن مقدار ارتفاع الأرز عن سطح البحر ، فكفيت ذاكرتي مؤونة التذكر وأجبته الف وتسعماية متر .

فنظر في كتاب بين يديه وهز رأسه احتجاجاً وقال : كلا بل الف وثماني مئة وخمسون . وغاظني منه هذا النظر الشزر يلقيه الي ، كالمعلم يؤنب التلميذ، فقلت ان الفرق خمسون متراً فاذا شئت فارقَ هذه الشجرة (واشرت الى ارزة جبارة)

فان علوها مضافاً الى قامتك المديدة يبلغك التسعمئة متر ان شاء الله ، فضحك صاخباً وانصرف لسبيله . وعدت الى التأمل كرة اخرى ، وما هي الا ساعة حتى امتلأت رئتاي بالأريج المنبعث من جذوع الاشجار الصمغية التي تستعجل الكرى الى الأجفـــان ، لما تنطوي عليه من (التربنتين) المخدر فنمت ساعة خلتني بعدها آدم ناعماً في فردوسه ، واستشعرت الهناء الذي تخلعه العافية على حامليها . وقطع علي خادم الفندق نعيمي الموقوت اذ جاء يدعوني للغداء، ولولا طيب المناخ يبعث الشهية في المرء، ولولا ان الانسان روح وجسد لقطعت الدهر صائماً في ذلك المعبد الجميل .

●

عيدُنا في الجبل

« أرسل الله ابنه الوحيد نوراً للأنام » .

بهذا المستهلّ وما يليه من نشيد الميلاد ، الرّكيك المبنى ، السنيّ المعنى ، منطلقاً من عشرات الحناجر ، كانت كنيستنا الريفيّة تتجاوب لخمسة وأربعين حولاً مضت ، في الأمسيات اللائي يسبقن ليلة العيد ، كما تتقدم الأميرات بين يدي الملكة إيذاناً بقدوم صاحبة التاج .

وأقطع اليوم ، وقد ذرّفت على الخمسين ـ غير متأثّر بما يبعثه الحنين الى الصبوة من مباهج ، وما يلوّن الماضي من ذكريات حلوة يصفّيها من الشوائب ـ أن تلك الأماسي كانت أبهج ما تخال العشايا ألقاً وغبطة وانشراح صدور ، على فقر كنيستنا عهدئذٍ[1] وعطَلها من الزينة ، فكأن البـؤس قد لطا في زواياها فراراً من الوَكَف الذي يسّاقط من سقفها ، واتقاءً للرياح الزعازع تنفذ من الرواشن والأبواب وصدوع الشبابيك فيسمع لهـا دويّ وصفير ، وأنين وعويل ، واصوات تذكّر بما قصّه رادةُ المفـاوز من أخبار العزيف وأساطير الجن .

---

١ – وقد أصبحت الآن من اجل المعابد الجبلية .

ولعلّ تلك الرياح المُعصرات المتناوحة عصفت لتسدّ نقص موسيقانا ، أو لتغطي من هتاف المرتلين لغواً ولحناً وألحاناً ، يؤازرها في محو التنافر صنّاج حاذق يرين على الناشز من الأنغام . وكان الصنوج كل ما يحتوي المعبــد من النوافل . بيد أن كنيستنا العارية في رأي أهل الدنيا ، كانت في تلك الحقبة من الزمن من أغنى معابد القرى بما حوت من ثروة سماوية تضاءلُ حيالها أبّهة المعابد الزاخرة بالتحف والطُرف ، فيبوخ لمعــان الجواهر ، ويخفت صداح المعازف ، ولو كان من ورائها أمثــال بيتهوفن وشوبرت وباخ وكان بعضهم لبعض ظهيراً . عنيت ثروة الإيمان الذي تقلّص من الصدور ـ في هذه الآونة المحمومة ـ إلا أقله .

ذلك أنه بالايمان كان الدين وكانت المعجزات ، ومنه انبثقت العظائم . فهو الذي أرهف السكين في كف إبراهيم فلم ينفس بوحيده على الذبح لو لم يتداركه الله بكبش سمين . بالايمان تأبّى موسى أن يدعى حفيــداً لفرعون فكان التشرّد في القفر ـ على ما فيه من ضنك ـ أحبّ إليه من المناعم في كنف الملك العظيم ابن الشمس . بالايمان تمّت قيامة أليعازر فتصدّع الصخر ونهد الميت الى الحياة بين يدي القائل : « أنا الطريق والحق والحياة » . بالايمان تخضبت ملاعب رومه بدم الشهداء فقــامت على رفاتهم وعلى هامة بطرس كنيسة بطرس .

بمثل ذلك الايمان أو بقبس منه كانت صدور أهالي « بتدين اللقش » تحتدم فتضج الكنيسة بأصواتهم منشدين :

« أرسل الله ابنه الوحيد نوراً للأنام »

وكأن كل واحد منهم أمسى على مثل اليقين بأن ابن الله إنما أرسل اليه دون سواه ، فحقّ عليه تمجيد الضيف الاله الواحد فهتف يقول :

« نمجدك يا من ظهر بأمه إنساناً يدوم »

ويتسابق في التمجيد والتهليل الشيخ الذي بلغ من الكبر عتيًّا والصبي الذي لم يتفتح للحلم بعد . وهكذا يتلاقى في موكب المسيح الغروب والسحَر.

وكان في المنشدين جدي لأمي ، وهو يومئذ شيخ صلح القرية ، وكثيراً ما كنت أجاوره في المقعد مجاورة الغصن الرخص للجذع الصليب فتسري إليَّ منه عدوى الايمان أو حرارته ، فانّ للتقوى أيضاً حرارتها ، بل إن الإيمان ليس إلا هذا الاشعاع الحراري الذي يمتلك المشاعر ويحتل النفس فيدخلها ملكوت الله . فدع ما تأوّل المناطقة ، فان عند بولس وأغوسطين والغزالي وبرغسون الخبر اليقين .

ولئن فخر سواي بجـدّ عريض الجاه عريق الأصول ، فألحق نسبه بالمناذرة والأكاسرة ، فاني لأفخر بذلك الجد القروي القحّ ، اللبناني الصرف ، الذي كان في صدره من الايمان اوفى من حبة الخردل فلم يقل للجبل : انتقل لئلا يجرب الرب إلهه .

وما كان اولئك القرويون البسطاء في حاجة الى مغارة يتمثلون فيها رعاةً ونعاجاً ومذوداً ومصابيح تنير الجدُر، لأن يسوع كان يولد في صدورهم اولاً ، بلهْ أن في هذه المغاور الصناعية ما يشوّه الخيال البديع ويحد من ملكوته . فاذا قام العذر للمترفين من أهـل المدن فابتدعوا المغـاور على طراز مخادعهم ، وتنافسوا في تجميلها حتى ليخيل لرائيها ان المسيح ولد في نظير متحف اللوفر وحدائق « فرسايل » فما عـذر الريفيين في الانتحال والتزوير، والمغاور عرض سفوحهم وروابيهم ، والزرائب مطالع أرزاقهم وبيوت مواشيهم . وليس أهون عليهم من الكهوف الصناعية إلا أشجار العيد التجارية ، فأين هي من أشجار غابهم تملأ القاع وترصّع المنحنى بالخضرة الدائمة ، يحملها الصنوبر على الرأس والكاهل وجفن الأملود ، ويضرب بجذوره في الهضاب يمسك ثناياها أن تميد . وقد نشأ الجبليون لهذه الادواح لدات وأترابا، ففيها من زنودهم الجديلة ، وفي سواعدهم من جذوعها مشابه في

الصلابة والنضرة ودفق الحياة . ثم إن هذه السرحات البواسق هي ، فيما يعلمون ، أرواح مباركة تحني هامها حين يمرّ بها المسيح ليلة « الغطاس » فتلك هي عندهم ليلة القدر ، التي تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كلّ أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر .

وكنا في الأيام السبعة التي تسبق العيد نساير موكب الزمن فلا نستقدم الشمس ولا نستأخر مغيبها ، حتى اذا آن (بيرمون) العيد فلم يبقَ بيننا وبين نصف الليل إلا ساعات معدودات خلنا النهار أبطأ من ليل النابغة ، أو تمثلناه مُسمَّراً مشدود الوثاق أكثر من ليل امرىء القيس ، فكأن بين هذه الساعات التي تتقدم تذكار الميلاد وتلك التي سبقت الحدث الأعظم ، لعشرين قرناً خلت ، شيئاً من القربى إذ يتحتم على الزمن أن يتئّد قبل حلول الهنيهة المليئة الفاصلة التي تعالت على الزمن ، لأنها سرمدية أبدية ، فالمولود فيها لا قبل له ولا بعد ، إلا من جهة التأريخ ، وههنا ما هو أعظم من التأريخ .

ويا طالما استبطأنا ظهر ذلك اليوم وتشوّفنا اليه وأرهفنا الأسماع انتظاراً للجرس، بل لأجراس إقليم جزين تدور في القباب تبشيراً بالليلة العظمى ، أخص منها أجراس دير مشموشه الثلاثة . فكأن النحـــاس في تلك الساعة غيره في سواها، ذلك ان النشوة تجاوبٌ بين موضوع وذات، وان الأفئدة دقت بشائرها قبل النواقيس، وإن كان هتاف النحاس يومئذ مايبرح يهز دساكرنا، ويرنّح قرانا سفحاً وقاعاً وتلالاً ، حتى ليتحرّك المدر ، ويتلفّت الشجر .

وَودِدْنا لو أعجلنـــا الشمس فأزلقناها عن عرشها المذهّب ، فدَحضتْ فأغرقناها في اليمّ المقابل استبعاداً للضوء ، والتماساً للعتمة خلافاً لغريزة الطبع التي تنبسط للنور وتنقبض للديجور ، حتى اذا هبط الليـــل ، ورانت أسداف كانون على الكواكب بما نشرت من غمام وكثّفت من دجنّة ، أوينا الى بيت وجيــه من القرية فيتحلّق السمار حول موقد يتضرّم فيهدر فيحموم فيسمع للحطب قضيض وتكسير ، وللنار شهيق وزفير .

وتضاف الى فاكهة الشتاء اللاهبة فاكهة الصيف مجففة ، ومشتقات الخريف مدّخرة في الجرار والدنان ، محفوظة في مخابىء لا يُفضّ ختامها قبل أوان صبارّة البرد ، إذ ترتعش الحدائق ، وتتهاوى المطارف الصفر ، ويلجأ العصفور الى السطوح والدور .

وتقدم الحلاوى ، ومنها التين الشريح الأشقر يطاف به على القيشانيّ من الصحاف، أو يبسط على صوانيٍّ من نحاس أو قشّ محكم النسج، مُعلم الديباجة، حبكته الصناع المَهَرة . ويجانب التين الناشف تتكتل لبوب الصنوبر والتين المعقود باللوز والسكر ، والدبس العنبي الضريب الملتمع التماع قطائف المخمل الأحمر ، والزبيب العقيقي بإزاء الجوز ، بينهما صحاف طافحة بالعسل المصفى أقرسهُ البرد فتجمد ، فلاح سبائك من عسجد ، ثم أساله دفءُ الموقد المتوهج فبدا عقياناً مصهوراً .

ويحل النبيذ للشاربين لفرط ما عنس في الدن فخمدت سورته ، وماتت حدته ، بعد جيشان وهدير ، فهو السلسبيل الذي عناه الحكيم بقوله : قليل من الخمر يفرح قلب الانسان . أما اللعب بالورق في تلك الليلة فكان بدعة مكروهة مرجأة التنفيذ الى رأس السنة . وبديهي ان المقامرة كانت جريمة في رأس السنة نفسها ، إلا ما يكون من المراهنة على الجوز واللوز والبرتقال .

●

ها هو الليل يوشك أن ينتصف ، وها هو الجو بالعاصفة نذير يقتدح بالغيوم السود برقاً غير خُلّب ، يقتحم المنازل فتندلع ألسنته من خلل النوافذ، ويعقبه هزيم يتقصف ، يليه وابلٌ كما تنحلّ أفواه القرب ، أو تتفجر كُوى السماء فتنهمر تارة غيثاً وطوراً برَداً أو جَمَداً . ومن وراء هذه الثورة العاصفة والريح الصرصر، يلج المسامع رنين الجرس فتضطرب المجالس بالسامرين وترتسم إشارة الصليب على الجباه ويتصايح الناس : هيّا .

وما كان سكان البيوت النائية بآخر الواصلين الى الكنيسة ، وبينهم الشيخ الهِمُّ الأشيب يدلف ويتوكأ على عكازه ، والعجوز المحدودبة تدب على عصاها، تكاد لفرط تقوّسها، تلامِس الأرض، وقد جَلِدت أصابعهـــا فهن كالضرائر يتجاورنَ ويأبين انضماماً . وبينهم الصبي القاصر يغوص في الوحل فينتزع قدميه انتزاعاً كما يُسلخ الفلس من كف اللئيم الراضع ، فاذا اعترضته الساقية المزمجرة قطعها واثباً طافراً فوق صخورها النواتىء وربما كان حافي القدمـين ولا يبالي .

ولو اقتصر الأمر على سكان القرية لهان – على صعوبته – . ولكن نداء النحاس كان يقتصر على دوي الأعصار، فيمتد الى المزارع المجـــاورة (الحرف وتعيد والبابا) فيهرع فتياتها وصباياها وكهولها مشياً عـلى الأقدام ، هازئين بالعقاب التي روّعت المتنبي فارساً ، وهو المدعي سيادة الخيل والليل والبيداء .

حقاً إن الشعاب والوعور ، ومرهفات الصخور التي بين « تعيد » و « بتدين اللقش » قمينة أن تخيف أبا الطيب ، ولو حاول عبورها في عنفوان الصيف ، فكيف به لو شهد بني قومنـــا ، في غيهب كانون ، يتوقلون آناف الجبال ، ويتلمسون مواطىء أقدامهم بين صخرة صيخود ، وصَوّان أمعز ، وزَلَقة ناعمة يزلّ عنهـــا الضبّ لفرط ملاستها ، تتنازعهم المضايق والعراقيب، وينشب في حواشي أثوابهم حسك العوسج والعلّيق إذ يمرّون بالنَقب والجُرُف ، حيث يتلكأ المعيز وتتهيّب الأراوى ، وما يستضيئون بسوى فانوس لا يعدو ضوؤه وميضَ الحباحب ، فاذا أطالوا ذباله المغموس بزيت الزيتون غشيت زجـاجته كدرة ، أو تصدعت فانطفـأ المصباح ، فمن كان منهم موسراً أو متدرّجـاً في الحضارة أنار فانوسه بشمعة .

وإن أنسَ لا أنسَ تلك المصابيح المضطربة تغص بها الدروب المتعرجة ، ولا أنس عزيمة أصحابها يغالبون العاصفة ، ويصارعون الزمهرير ، في ليل غُدا فيّ

تحسبه قاراً أو قطراناً لزجاً يكاد يطلي زجاجة المصباح ، حتى اذا ضجّ مدخل البيعة بالقادمين ، أخذتهم العيون بالنظرة العجلى والتفاتة العجب ، فلمحت أولئك الأبطال العزّل، إلا من التقوى، ينفضون أحذيتهم على أسكفة الباب لما تراكم عليها من وحل ، ويهزون الأكتاف والمناكب ، لا زهواً ولا اختيالاً بل تخلصاً مما وقر عليها من الثلج ، ثم يدخلون المعبد ، وما في أيديهم شيء من الذهب والمر واللبان ، بل حرارة الإيمان وحمية أولئك الرعيان الهاتفين مع الملائكة « المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام والرجاء الصالح لبني البشر » .

ويسمعون أول ما يدخلون هتاف المرتلين نشيد الميلاد ومنه :

قد بزغ منها كما خرج من القبر شبه ضوء لاح

لأنه اللطيف ذاتاً والبتول أشرف مصباح

لا بالأوجاع ولا حضور قوابل بل بالأفراح

قد وضعته في نصف الليل والظلام انتزح

أجل في منتصف الليل ، لعشرين قرناً تصرمت ، وبعد ما عيل صبر الزمان انفرجت السموات ، وتألـّق الجلـَد فابيضّ الرقيع الأزرق ، وهتفت أجواق الملائكة المجد لله في العلى لأن عذراء فقيرة من سلالة داود ، وضعت ، في مدينة داود ، طفلاً أضجعته في مذود ولفته بما تيسّر من الأسمال ، وودّت الشمس لو كانت له شعاراً ، والنجوم لو انتظمت لردنه أزراراً . وكان ذلك اليوم برزخ التأريخ ، فقيل قبل وقيل بعد ، بينهما الميلاد ، أما الكلمة فلا قبل له ولا بعد .

وعندما يبلغ المرتلون قولهم :

لأنه اللطيف ذاتاً والبتول أشرف مصباح .

تضج المقاعد النسائية وتصخب ، فلا تبقى واحدة من بنات حواء إلا وترفع

يدها الى صدرهـــا قارعة هاتفة باسم مريم . فمنهنّ الضارعة لشفاء مريض ، والملتمسة عودة وحيد بعيد ، والمترحّمة على عزيز فقيد ، وما الى ذلك من أسباب الابتهال ، وكذلك القول في مطالب الرجـــال ، إذ ترتفع الأصوات بالدعاء وتُقرع الصدور . وإنّ الحناجر لتجهر بالصلوات والنيّات حتى ليتميزها السامع ، فما بين القرويين أسرار يستغلق معها أمر الجار عـــلى الجار . وقلّ بينهم من يناجي الله همساً فيحرّك قلباً ويخفت جرساً . وتراهم عـلى بعدهم عن الصوفية وما تقتضي من الشطح والانخطاف ، وفناء المحبّ في الحبيب ، يخاطبون الله بدالّة ورفع كلفة ، كأن الحُجُب التي سقطت فيما بينهم بحكم الجوار الحميم ، والعدد القليل ، والثروة المتقاربة ، وهي الى الكفاف والقناعة أقرب منها الى البحبوحة ، قرّبتهم أيضاً من طفل المذود فتخيّلوه قـــاب قوسين أو أدنى ، فانشرحت صدورهم ، وامّحت في تلك النشوة الروحية أضغانهم فوحّدتهم ، المحبة وشعروا كأنهم عيلة واحدة ربُّها الله .

وأشهد انه لو كان للسماء باب فقرعوه بمثل هذه الحميّة لما تلكأ بطرس أن يفتحه عـــلى مصراعيه ، فان بين صيّادي السمك وحرّاث الجبال قرابة ، فأولئك يسترزقون البحر وهؤلاء يستنبتون الأرض . أولئك طالما سلخوا الليـــل فوق غوارب الأمواج ، فما أصابوا سمكاً ، وهؤلاء كم تفصّدت جباههم عرقـــاً ، وتشظّت معاولهم مِزَقاً ، فما حصدوا إلا حسكاً .

هذا وان لسمعان بن يونا بين قومنا أنداداً في طيب السريرة والحمية التي تطوّح بصاحبها فما يتردد في عمل ، ولا يتحفظ في جواب ، لأن قلبه عـــلى رأس لسانه ، فترى الصفا يمشي على الآذيّ للقاء المعلم ، ثم يعتريه الشك فيشرف على الغرق . وتأخذه النخوة في بستان الزيتون ، فيضرب بالسيف بين يدي المسيح ثم ينكره ثلاثاً قبل صياح الديك ، في تلك الليلة العظيمة .

* * *

وتنتهي الذبيحة الإلهية والفجر لم يتنفس بعد ، وإن تباشرت بمقدمه الفئة الناجية من الديَكَـة ، إذ لم يحل بينها وبين الذبح سوى الهزال، فكان السمن في مثيلاتها سبباً للموت ، كما يكون الثراء وبالاً على ذويه . ويصدر الناس من البيعة أفواجاً ، وتضطرم المواقد كرة أُخرى ، ويستفيق الأطفال وتتحلـّق العيال حول الجفان مبكـّرين في الفطور . ويتعايد أفراد الأسرة الواحدة فيلثم الصغير يد الكبير ويتعانق الأكفاء عدا الأزواج ، فلقد كان وازع الحشمة يحول بينهم وبين القبل والأولاد شهود. وكان الأزواج في الأغلب يتبادلون عبارات التبريك عادلين عن الاسم الى الكنية زيادة في التوقير ، كأن تقول المرأة لبعلها « عيد مبارك يا بو يوسف » فيجيبها « وعليك وعلى أولادك يا أم يوسف » .

فاذا طلع الفجر شهدت الناس يتزاورون وفوداً ، فيغدو كل بيت من القرية مزاراً لسكانها قاطبة ، فلا تنسى عجوز ولا مريض ولا مقعد . شأن بني قومنا في ذلك شأنهم في المروءات العـلى حين يتلبد الثلج على السطوح فيجرف واحدهم سطح جيرانه، حين يكون جيرانه آخذين في جرف التلال البيض عن سطحه ، أو يشترك الجميع في تعهّد البيوت جميعـاً . تلك هي الاشتراكية البيضاء لا أمْتَ فيها ولا عوج .

ذاك هو عيدنا بالأمس ، فقير كأشد ما يكون الفقر ، وغني كأعظم ما يكون الغنى ، فما أشبهه بغار بيت لحم عارياً من النوافل ، بعيداً من كبرياء الفريسيين وبَهارج الكتبة ، فليس أروع من التواضع ، ولا أفخم من البساطة ، ومن أجل هذا كان الروح بسيطاً، وإنما هو خالد بهذا السبب، لأن كل مركـّب الى انحلال، وكل باظل الى زوال .

•

فيا وليد المغارة الذي اختار أن يولد بين الحملان ، وكان لقب الحمل أحبّ أسمائه الحسني اليه ، علـّمنا الوداعة ، وحبّب الينا التواضع الذي طوّبته في

عظة الجبل، واستهلت به ميلادك المجيد، فولدت في زريبة السوائم، وختمت به حياتك الظاهرة ، فصلبت بين لصّين . وجنّبنا غواية المستكبرين الذين أضلتهم الدنيا فعدلوا عنك إلى الأوثان، وبدّلوا إنجيلك الرحيم بالقسوة والطغيان، وأقاموا في ذكرى ميلادك مسرحاً للرجيم .

وأنت يا مريم أمَة الرب وسلطانة الملائكة ، وأعذب موصوف مؤنث تلاقت عليه الشفاه في الحديث على الطهارة والزنبق، ظللي لبنان الذي رصّع أجمل روابيه بالكنائس تشاد على اسمك ، وازدهت قبابه بالأجراس تنطلق جذلى في عيد مولدك وانتقالك ، وانقلي قلوب بنيه من سفوح المادة التي انتظمت هذا العصر المحموم ، إلى قمم الروح ومنازل الصفاء .

بيروت ، ١٥ كانون ١ ، سنة ١٩٥٥

إلى رُشدي مَعلوف

الحديث عن كتاب مرّ على صدوره سنتان ليس بالحديث المألوف . وسيكون مؤلفه اول من يتناولني بالنقد كأن يقول : طال رقادك يا صديقي ، فأين من ليلك المديد ليل امرىء القيس ، ومن هجوعك منام أهل الكهف ، الى آخر ما يستطيعه صاحبنا من التنادر الأنيق والنكتة البكر .

ولئن ظن قراء (الجريدة) ، ان اديبنا المعرق جديد على الأدب الساخر ، لقد وهموا أي وهم ، فان رشدي ـ على رصانته ـ فكه ظريف . واذكر انه عادني في مستشفى الصنائع ١٩٤٠ وحمل إلي في جملة ما حمل من كتب ترفّه عن المريض ، مؤلف هنري برغسون الموسوم (بالضحك Le rire) ، وما أحسبه الكتاب الفلسفي الوحيد الذي استهواه في باب الهزل فحبب اليه ذلك الضرب من الأدب .

ومما يتفرد به صاحب (مختصر مفيد) ، انه وهو في معمعان النقد يظل نبيلاً غير مُبتَذَل القلم ، فهو الشاعر المرهف الحس ، الوثاب الفكر ، الذي يمعن في الآفاق ويعود بأطيب مما يجنيه النحل في عشايا الربيع . وهو يطل عليك ، أول ما يطل ، بمقال عنوانه : الدبق . فكأن العصافير التي اذابت لهاها ، في كرة الشمس وضحاها ، استغاثت بالشاعر الهائم بالنغم ، الكلف بالموسيقى يُشيعها في قصيدة (الأمهات) صورا ورويّا ، ويستل غموض الالحان

رمزاً يوحي اذ تكون النادرة بالتورية أجدر ، وبالستر أولى ، لئلا تعرى فتبرد فيدركها الزكام. وتبرز انسانية الشاعر الموكل بالجمال في كل صفحة من كتابه، ولا سيما في مقاله (أعز من التفاح) فيرضى بتضحية الدجاج مثلا ، اذا قيض للدجاجة ان تأكل السم الذي يرش به التفـــاح ، ولكنه ينفس على الموت بالعصفور والحجل والوروار ، على ان الدجاجة أوفر دسماً ، وأغرض لحماً ، وأولى بالتفضيل في ذوق نَهِم بطين، والتفاح أجزل عائدة في رأي المزارعين، بيد ان الجمال أغلى من أولئك جميعاً في نظر شاعر يهتز للهديل واللون ونشوات الطرب .

وأحسب ان صاحبنا نهج في باب الفكاهة نهجا عجبا، فوشّح مقالاته بتلك العناوين العذراء التي لم يفطن لها القدامى ، ولا أستثني لوسيان السميساطي « Lucien de Samosate » من الأجانب ، ولا أبا عثمان الجاحظ من العرب . فاذا أنت لمحت عنوان (العودة الى الارض) توهمت أخانا يعـالج موضوعاً زراعياً، فاذا اطلـّعت المقال في تلك الأسطر القليلات، أو القنابل الذريات التي تنفجر بين يديك ضحكاً وفرحاً تبينت انها الغاية في التهكم بالحكومة والبلدية ومصالح الدولة ، وانها في باب النكاية الذع من نقد الجاحظ . واجرح من هجاء ابن الرومي ، وأدهى من قذع بشار بن برد . بيد انها آية في عفة اللفظ والديباجة المهذبة ، فلا بذاءة في الأداء ، ولا فحش في التعبـير ، ولا حجة للنيابة العامة في الادعاء ، برغم قوله « فالدولة كلهـــا عند ذلك تساهم في النصب » .

يقولون في باب تقريظ الرماة : فـــلان رمي عصفورين بحجر واحد . وصاحبنا يرمي عشرات العصافير بحصاة واحـــدة ، بل مئات الرؤوس بنقطة حبر ، فيصبغهـــا صبغة لا تزول ما دام على الأرض من يقرأ فيتأمل فتنفتح بصيرته على آفاق . وختـــام العودة الى الارض جليل كمطلعها وهو قول المؤلف « فسياسة الحكومة كلها هي العودة بنا الى الارض وقد جئنا منها » .

في مثل هـــذا التعريض والغمز اللطيف يقال : حيٌ على كلام جمع فوعى ، وأعجب بهذا النص الذي يشرع باب التـأويل لذوي الألباب ، اذ يرون في هذا الضرب من الإنشاء طائفة من المعاني يثيرها قلم خلاق في بضع كلمات . فيزعم بعضهم ان الحكومة يومئذ أرادت بالشعب شراً ، فرامت إفقاره فقراً مدقعاً ، وان الأرض تسمى الدقعاء ، فيصبح الناس بلا فراش ولا غطاء .

وذهبت فئة ثانية في التفسير مذهباً آخر فزعمت ان الارض في هـذا المقام تعني المقبرة وذلك ، لعمري ، أشد على النفس وأدهى ، وتأولت فئة ثالثة غير ذلك، فزعمت ان الحكومة أرادت حمل الناس على التواضع والإنابة الى الله، والتذكير بالآخرة ، فرددت العبارة التي يلفظهـــا الكهنة في صبيحة الصوم الخمسيني حين يَسِمون جباه المؤمنين بالرماد فيقولون : يا ابناء آدم انكم من التراب والى التراب تعودون . وتأوّلها غيرهم على وجوه أُخر ، فاذا كان هذا شأن جملة واحدة من مقال واحد فما ظنك بالمئات من اخواتها يوشّي بهن المؤلف كتابه الفذ فيوحين الى القراء ما يوحين، ويشهدن ان للباطن على الظاهر الغلبة اذا عمق الكاتب فسلست عبارته في غير وهن ، وتكثفت فكرته في غير تعقيد ، وفتح بيانه للذهن سهلا أفيح يسلمه الى مـــدى آخر كلما تراخى به الزمن وعاوده التأمل .

واقرأ (تمنياتنا في العيد) تشهد البراعة في عرض المتناقضات والصور توصّلاً الى تداعي الافكار بالتضادّ ، اذ لا يخفى ان الصورتين اذا تنـافرتا اشد التنافر تجاورتا أقرب التجاور، فالبرد يذكرك الحرارة، والاسود يذكرك الابيض ، لا جرياً على رأي صاحب (اليتيمه) والضد يظهر حسنه الضد، فذلك القـول ـ على حسنه ـ لا يعدو بهجة الغدير الضحل في صحراء يطويهـا البادي . أما صاحبنا فيجمع بين صفاء الغدير وعمق اللاجة ، ويتقلب على بساط أرسطو حتى ينتهي في باب التمني الى مدينة كمدينة الفارابي وجمهورية كجمهورية افلاطون.

أما مقالة (الحكومة ساهرة) فلم أقرأ في باب السخرية أبلغ منه . ولو بدّله بقوله (الحكومة ميتة) لما أزرى بها الى هذا الحد من الإزراء . وما دمنا في باب الفكاهة فقدذكرني عنوانه ذاك بنادرة مؤداها أن أميراً أصيب بعلة فأخذ أمين سره يذيع النشرات لتهدئة الخواطر ، ذاكراً في كل منها ان صحة سموه في تحسن مستمر . وأخيراً مات الأمير فقال أحـــد الظرفاء : أظن ان سموّه مات من كثرة التحسينات .

وكذلك القول في الحكومة أو الحكومات التي توالت وكان رشدي وأنداده عيوناً على أعمالها ، إذا سمّيت النقائص أعمالاً .

أما فضله على رجالها فعميم ، إذ لا بد لقراء (مختصر مفيد) بعد عشرات السنين أن يتساءلوا عن تلك الأنصاب ، وانهم لخالدون خلود هذا السفر البكر في لغة العرب . وما دام همّهم في البقاء فسواء عليهم أكانوا سيوف الدولة أم كانوا كوافيرها . فما العجب في هذا ، ولكن منتهى الغرابة أن يعيشوا ، بعد العمر المديد ، على هامش كتاب . فلله ما أعدل الزمن الذي يكتب البقاء لأهل القلم فيبيد الأصنام ، ويعفي آثار هبل ، ويمحو اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ويعيش القلم وما يسطرون . أما هالات المجد الموهوم فلا تثبت للزمن إلا بمقدار ما تثبت الغيوم للريح المتناوحة تمزقها كل ممزق .

في جملة تعابير الفرنجة قولهم : فلان يلعب على الحروف . ومن نعم الله على صاحبنا انه معرق في المبدأ شيمة الجبال العقاب التي هو وليدها ، بيد أنه من أمهر اللاعبين على الحروف . أقول هذا وأستغفر الله ، وأعني أنه عليم بتحميل الكلم غاية ما يستطيع الحرف من أداء . أي أنه يستنفد طاقة اللغة ، فلا يبقى وراءه مطمع لمستزيد ، فمن كان في شك فليطالع مقاله (الديك) يشهد كيف يستنبت المؤلف هذه اللفظة عشرات المعاني ، وكيف يقوم الديك ، في هـــذا الفصل ، مقام المتمردين فتذكرك صيحات صاحب التاج العقيقي بقضية (ميرابو)

الشهرة . ولكان رشدي أشفق على لبنان من ثورة لو رجح أن فيه ديوكاً تشمخ بأعرافها، وتشرئب بعُفراتها، وتصيح من فوق السطوح .

وما أشبه الغضبات المعلوفية بالغضبات الناصرية حيـال موائد الصيارف وباعة الحمام في الهيكل ، وشتان ما بينها وبين المضرية . ذلك ان البعد بين الغضبتين مصدره المحور الذي منه تنطلقـان . فالمضرية تنطلق من البغضاء والعنجهية ولذة الانتقام . والناصرية تنبعث من المحبة فهي حرب على الفساد ونداء للإصلاح والصلاح. وفي صدد المحبة على العموم، ومحبة لبنان على الخصوص يأتي صاحبنا في طليعة الأعلام . ولو لم يكن له في سبيل لبنان سوى مقاله الموسوم (بقمح المغتربين) لكفاه شهادة يأتي بها مرفوع الجبين يوم تبيّض وجوه وتسوّد وجوه . ولقد اصطلح البيانيون ، وتواضع أساطين الكلام على تسمية مثل هذا المقال إنشاء منثوراً ، وعندي انه أرفع من ذلك الموزون المقفّى . ويكاد لا يفوقه في رسائل المحبة إلا رسالة بولس الى أهل كورنثوس .

قلت ان صاحبنا يستنفد طاقة الحروف ويستنبتها معـاني شتّى ، وإني لأذهب الى أبعد من هذا فأجزم انه يستنفد طاقة نفسه فيسخّر معرفته كلها لخدمة القلم ، ولا يستثني أبواب النحو نفسها فيتخذهـا في مقاله (مشكلة إعراب) سبيلاً لإعراب جديد يضمنه رأيه في السياسة ألطف ما يكون التضمين . ولكانت مشكلة الإعراب أجزل نفعاً وأبعد وقعاً لو كان المقصودون بها أكثر علماً بأبي الأسود الدؤلي وأقل جهلاً على أصحاب سيبويه .

أراني أكاد أسهب في القول على (مختصر مفيد) . وان هذا المختصر لَيقتضي المطولات قبل ان يوفى حقه ، ولكني أخشى عتب صاحبه لتمردي على الإيجاز وهو اليه أحب وبذوقه أعلق .

لقد مرّ زهاء عامين على صدور الكتاب ، إلا ان الحديث عنه لا يخضع لمرور الزمن، مثله في ذلك مَثَلُ الحديث عن الحب والجمال في ليلة صيفية بيضاء الوجوه والزنابق والمناقيد .

بيروت ٣ نوار سنة ١٩٥٨

حول الدّروز

حضرة الصديق الكريم السيد سعيد فرنسيس حفظه الله

تحية عاطرة . وبعد فقد كنت آليت ألاّ أسطر كلمة في نقد لفرط ما تراكَم عندي من المؤلفات في الآونة الأخيرة ، فشقت المهمة حتى لتنوء بمطالعة هذه الكتب وتقويمها العصبة من الأدباء ذوي السواعد الغُلب فضلاً عن المريض الناقه . بيدَ أن كتابكم (بنو معروف في ساحـــات المجد) أيقظ في نفسي شعوراً يصعب معه الصمت أو الاعتذار، وأثار في خاطري شؤوناً كنت أحسب أن قد طواها الزمن . وانها لتنتشر في صدري الساعة فأتمثلني في ميعة أحداثها ، إذ انّ هذا الحس ترسّخ في ما هو أبعد من الذاكرة فأصبح مني جزءاً شائعاً في كياني ، فما أستطيع منه انسلاخاً .

أما كتابكم فلئن افتقر الى البيان الأنيق والأسر العربي المحكم ، لقد حفل بالصدق وتنزّه عن الهوى ، فما أنبله قصداً ، وما أشرفها غاية . واذا خفي عليكم العامل الذي حفز قلمكم الإنساني للذياد عن الحق وإنصاف الموحدين الألى ظلمهم التـــاريخ ، فإني بإبرازه لقمين ، ذلك ان بينكم وبين الدروز من القربى الروحية ما يزري بوشائج النسب الطبيعي .

أفلم يولد ويترعرع جدكم البطل المغوار ، الشيخ يوسف فرنسيس الحـاج الحاصباني في مشارف ذلك البلد الطيب ، فكان أول ما تفتح عليه بصره تلك العمائم الزُهر ، تيجان العرب ، والعباءات المخططة ، أوشِحة المهابة ، وهالات

الوقار . وكان أول ما رنّح مسمعه حداء الحماسة ، وزغردة البنادق ، تشوبها حمحمة الجرد المذاكي بين مباسط سوق الخان، وخمائل النبع الألفاف ، وتلاع (زغلا والشميس) .

إذن فإن أبا ملحم درج في شعاب وادي التيم وبطاحه ، وأيفع في غياضه حيث انطلقت لُهاته بالزمجرة، فنودي بأبي الأشبال شيخـــاً لشباب الوادي . أوَلست أنت ياسعيد نجل راعي الحصان سليم الذي كان يقارع الفرسان، ويتعمد الخطأ في إطلاق الجريد على منازليه لئلا يوردهم حتوفهم ، أو يراهم على الجدالة صرعى، لِما في ساعده الشمشوني من العضل الوشيج ، والقوة المتراكمة ؟

ولم يُتَحْ لي أن أشهد جدك وأباك وأعمامك فرسان الميادين ، وأقطـــاب الوغى ، فكان علمي بمآتيهم الغُرّ مما نقله لي ولأترابي ، الثقات شهود العيان ، وبينهم أبي . وما أعلم أن في الرواة من هو أجدر منه بالحديث على البطولة ، فهو من قد عرفت صلابةً وبأساً وتمرساً بالرجال .

غير أن الحظ أمكنني من رؤية عمتكم عليا، حين كنت ضيفكم سنة ١٩٢١ . فذكرت عهدئذ ما قرأت في تأريخ الفتوح عن خولة أخت ضرار بن الأزور ونظائرها اللائي بيّضن وجه حواء . وأثبتن ان التي تهزّ الأسرّة يمناها تستطيع — اذا هي أغرتها البطولة فصدّت عن الهوى — أن تهزّ الأعنّة يسراها فيكون مثار النقع حجابها ، ودويّ البارود زفّتها الكبرى .

وكأني بها ، رحمها الله ، وقد بلغت السن العالية فذرّفت عـلى التسعين ، طفقت بعد العشاء تحدّثنا بما أوتيت من التوفيق في معالجة المرضى ، ابتغاء وجه الله ، معتمدةً أساليب الرازي وابن سينا ، ولا غرو فقد نذرت صباها للمجد والشرف . وكهولتها والهرم للمواساة وبذل الخير . وما كنت لأنسى مجلسنا في اليوم التالي، وقد كلفتها أنا الفتى الجذع ان تحدثني عن عهدها بالسيف اليمانيّ ، والصواهل الأعوجيات ، فوسعني حلمها بعد عبوس، وحدّثتني على قدر الطاقة .

فرجح لديّ انها تكاد تعرف من أمر الفروسية ما يعلمه أبوها مؤلف (سراج الليل في سروج الخيل) . ويوم ذاك أدركت ان الخيل العتاق تردّ الى سلالات خمس هي (كحيلاء العجوز والصقلاوي جدران والعبيّا والمعنّقي والحمداني).

وعلمت أن جدك النبيل كان يرتبط في ساحة داره ثلاثين أصيلاً ، بينهـــا الكميت ، والأشقر ، والمحجّـــل ، والأبلق ، والمصمت ، والبهيم . يسميها بأسمائها ويفصّل ألوان أوظفتها وسوقها ولبّاتهـــا . ولا يفوته الوصف لأيّة شِيَةٍ كانت بين أعرافها وعسبانها . فكأنه ، وهو اللبناني الخالص – الآخذ من حضارة عصره بنصيب غير يسير – نشأ في البادية بين المهاريّ والخيل العراب . وعلمت ان ذلك الشيخ كان عفّ الضمير واليد واللسان وأمير خلق وسخاء . ولعمري أنها الإمارة الحق التي ترين على عدد وافر من أمراء الزمن الأخير ، مطايا المال ، وعبيد الشهوات .

ولقد تأملت في تلك الساعة محدثتي العجوز التي تمادى بها العمر وما برحت يدها على سبحة الصلاة رفيقتها في ربيع الحياة وشتائها ، وقرنت بين يومها ذاك وأمسها المحجل إذ تتبوأ صهوة فرسها الأدهم بين إخوتها الأشبال الأربعة وأبيها أسد العرين . فتبينت في تلك اللبؤة المخدرة بقايا صيت عريض ، وأيقنت انه ليتعذر على الزمن محو عليا فرنسيس من الخواطر المولعة بالبطولة ، ولو بيّض الرمس رفاتها .

أفرأيت أيها الصديق بعد هذه العجلى وجه القرابة بين بني معروف الميامين وبيتكم العريق ؟ فلقد وردتم في المعالي حوضاً واحداً ، ثم صدرتم عن المنهل نفسه ، فتوحّد المشرب وتعددت الأسماء .

واني لأعتبرها برهةً من حياتي ماثلةً أبداً تلك الأيام التي سلختها في حاصبيا إذ كنت قاضياً . ويا طالما ذكرت – وأنا مسمّر على السرير – طيب أصباحها، إذ يباكرني نسيم حرمون من صوب « عين قنيه » ، وحلاوة عشاياها ونور القمر

يفرش دربي الى قنن « شويّا » إذ الطلّ يتنزّل على شعاف الجبال الشرقية، فيبلّ أجنحة حجلانها . وكأيّن من سحر أزعجت فيه الطيور عن مجاثمها ، وأنا في نفر من شباب الدروز ، أعلام الفتوّة والنخوة ، وألوية الشجاعة التي عليهـــا فطروا ، فهي قوامهم والجوهر الذي به يعيشون . وإنما البسالة تجري في أفئدتهم مجرى المهج . فلو حاولوا النوم على الخسف والهوان لنبت بهم المضاجع ونبذتهم جلودهم ، فازورّت عنهم الحلائل ، وأعرض الأبناء . ألا ترى ان الأسد لو شاء تقليد الظبي في نزيبه ، لتمردت عليه لهاته ، لأنها على الزئير بُريت ، وفي الأجم اخشوشنت ، فما هي ربيبة الكِناس وما ينبغي لها .

وها أنا أمحو من رصيد حسابي في سجلّ الزمن سحابة ربع قرن، ليخفق في صدري ذكر اليوم الذي توقّلت فيه الربى الى « البيّاضه » منسك الموحدين ، وقدس أقداسهم، واني لأتصورني محوطاً بصفوة من الأجلّة الأجاويد الألى يصحّ فيهم قول الذكر الحكيم : « الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » وقوله : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » .

يومئذٍ شهدت وداعة الأكابر فما تُسمعُ الأصوات إلاّ همساً ، وما ينطلق الكلم الرصين إلاّ بمقدار، وقد اقترن بتلك البشاشة الطافحة بين العمائم واللحى، فما أكرمها ضيافةً ، وما أهيبه مجلساً .

وأحسب أنك وفّقت كثيراً في (اختيار) عنوان كتابك « بنو معروف في ساحات المجد » إذ لو لم يقم بينهم سوى الأمير فخرالدين المعني لكفى به للمجد ملاذاً ، ولساحاته لواءً، وكأن الذي سماه رُفعَ له المستقبل ، وسقط حجاب الغيب ، فجاء اسمه أصدق صفة لموصوف . ألا وإنّ أبا عليّ فرّج آفاق لبنان ، فأمست المروج ما بين الشهباء وعريش مصر ملاعب حصانه ، وبساتين التوت والزيتون وغابات الصنوبر آي عمرانه ، وغدت النجود قواعد أبراجه . ولقد

أظلّ جناحه المديد كُلّ صنديد سلّ حساماً على اسم الوطن ، وهزّ قناة على أجنبي ، فذاب في معمعان بطولته ضباب الطائفية ، وتآخت البيارق في عنجر وصوفر وطرابلس وعكار ، فرنعت الآستانه لاتحاد البواتر وائتلاف الأسنة ، وكان ما كان من الغدر والإيقاع بالأسد الرهيص ، أو لست أنا القائل فيه :

يا مطلق الخيل وأرسانها	أطلقت شعر الشاعر الألمعي
لبنان من كفيك روض الدنى	وواحة الركبان في البلقع
تغصّ بالريحان آفاقه	من موضع فيه الى موضع
واستكبر الأرز فأغصانه	تشامخت للفلك الأرفع
فمجّ سلطان الربى زاهياً	وماس في أذياله اللمّع

ولقد استمرّ فخر الدين حياً متعدداً بالمناجيد من بني معروف ، فكأن الخلود يضن على الفناء بالمروءات العلى ، فيسلم الراية الى آحاد يتداولونها فيبلغون بها الشأو الأمدى والغاية التي لا غاية فوقها . ألا وإن أصحابك وأصحابي ، ليتوّجون مآثرهم بما يعرفه كل آدمي من حميتهم في الذود عن أعراضهم وأعراض خصومهم على السواء ، فما أعفّهم في الوقائع حين تطيش الحلوم ، وتنفلت الغرائز ، ويثبتون هم في الزعازع ، فما يهتكون ستراً ، وما يدنسون حريماً . هذا بعض ما أيقظه في نفسي كتابك يا صديقي حفظك الله للخلق الطيب ، وللجهر بالحق ، وحفظ الموحدين لعزة التاريخ ورفعة لبنان الحبيب .

بيروت ١٦ نيسان سنة ١٩٥٩

وكان على المسيح أن يتألم

وليمة شكر في بيت عنيا :

وكان يسوع في بيت عنيا – تلك الزاوية الحميمة يرتادها ابن مريم فيسكن الى إخلاص الأحبة ، ويتنفس في نجوة من مكايد الفريسيين ، وحسد الكتبة ، ورياء العشارين وأضرابهم من عبدة الحرف وقتلة الروح . ثمة كان يرتفق ويتوسد ، ويصمت كل شيء عدا المحبة وهينمة الروح القدس مرفرفاً على دسكرة أليعازر ، ناصباً بينها وبين السماء نظاماً ، حتى اذا أودى أخو مرتا ومريم وأُدرج في اكفانه ودبّ اليه الفساد ، جلجلت المحبة في صدر المعلم فاجتذبته وتلاميذه من البلد القصيّ ماشياً ، فاضطرب النظام وتنزّلت الرحمة من لدن العلي فانتصرت المحبة وانهزم الموت .

في تلك الضاحية التي اقلع جوّها فَصَحا ليسوع غير مرة ، اجتمع الناصري وتلاميذه قُبيل الفصح فخفّت مرتا « المهتمة بأمور كثيرة » تعدّ العشاء وتفتنّ بالطيّبات ، قياماً بحق الضيافة المشرقية واحتفاءً بالنزيل الإله الذي ردّ الحياة على اخيها بعدما أنتن ، واستجابةً لفطرة المرأة الفاضلة ربة البيت التي امتدحها سليمان وتمنّى مثلها بين نسائه ، فلما اخفق تغنّى بها فراراً من الواقع المؤلم الى الخيال المعزي ، ومما كان الى ما يجب ان يكون .

اما مريم التي ادركت ، بحَدْسها النفّاذ وشعورها الصادق ، ان « المطلوب

واحد » ، فسنّت بذلك دستوراً جرت عليه القديسات من المجدلية الى تريزيا الصغرى،فأخذت قارورةً من سنبل الناردين ودهنت به قدمي يسوع ومسحتهما بشعرها، فامتلأ البيت من رائحة الطيب وصدورُ المتكئين من التذمر واللؤم، فنفث ابليس في افئدتهم فلسفة الاقتصاد سالكاً اليها افقهم الضيّق ونظرهم القصير، فعابوا على المرأة إسرافها ، فتهامسوا فيما بينهم واحتجوا بالفقراء . أما يهوذا الذي تقمّصه الشيطان فزيّن على لسانه الصدقة ، كما حلّى الثمرة على لسان حواء ، فصدع باللوم . فاعجبْ لخائنٍ يتلبّس الفضيلة ويقول كلمة حقٍ يُراد بها باطل! ولقد فات المتذمرين ان مريم اشترت بسخائها راحة الأبد، واستحقت بركة الأجيال في الزمن حيثما يكرز بانجيل المسيح . ذلك ان الجود يخلّد الخطأة فكيف بالطاهرين !

وكان يوم الشعانين ، فأبى وليد المذود ان يدخل اورشليم فارساً ، لا حذراً مما تبعثه الخيل في راكبها من الخيلاء — وهو الذي أعجز العالمَ أن يبكّته على خطيئة — بل تصديقاً للنبوءات . وما ازدهاه صياح الشعب هاتفاً : « مبارك الآتي باسم الرب ! » ولا المطارف والغصون والرياحين يتخطّاها مركبه الوضيع غير شامسٍ ولا هِملاج ، وإنما ارتضى الزينة مقدمةً لليوم العظيم ، كما يرتضي البلبل ميد الغصون الأماليد قبل هبوب الزوابع .

مأدبة الوداع في العلّية :

« ولما كانت الساعة اتكأ هو والرسل الإثنـا عشر معه ، فقال لهم : لقد اشتهيت ان آكل الفصح معكم قبل ان أتألم » .

في هذا المقام وحده تطهّرت لفظة « الشهوة » وتجردت من المعـاني التي ينكرها الفهم العفيف، لفرط ما حمّلها الناس من ميل منحرف ، ولكنها في فم المسيح جذوةُ المحبة التي انطوت عليها أحشاؤه فكانت حناياه لها وقوداً — منذ

خطيئة آدم – فتوّهجت فجرّت على لسانه كلاماً في مأدبة الوداع ، فلم يجد أفضل من الخمر رمزاً للحب المستعر والدم الطليل . فتناول الكأس وقال : « خذوا فاشربوا هذا هو دمي » فقدّس بالخمر العتيق عهده الجديد . فيا للرحيق يستحيل دماً بين يدي يسوع ، كما يستحيل الخبز جسداً ، ويكون من هذا وذاك غذاء للأبرار الى يومَ يأتي الذبيح بمجد عظيم ليدين الأحياء والأموات .

وهيهات أن يقف المسيح عند هذا الحد من الحب وهو الكلمة التي لا حدّ لها ، وإن تحيّز في المكان إنساناً ، فلقد أبى الحمل ، الذي وُلد تواضعاً في زريبة الحملان ، إلا ان يختم حياته بالتواضع الأكبر فتكون الوداعة فجراً لحياته وشفقاً. فلقد « نهض عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منديلاً وائتزر به ، ثم صبّ ماءً في مطهرة وأخذ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنديل الذي كان مؤتزراً به » .

من تُراه ذاك المنحني على أقدام الصيّادين ؟ انه الذي مشى على البحر وزَجَره فخرست العاصفة ، واستحيا الآذيّ ، ودان الثبج فامتدّ بساطاً أزرق يروح عليه الناصري ويجيء في خفقة الأشعة والتماع الضياء . ألا إن يسوع غاسلاً أرجل التلاميذ لأودع منه ساعة ميلاده ، ففي تلك الليلة حفّت بغاره أسراب من الملائكة تسوق الرعيان للسجود وتحدو المجوس للعبادة فنِعمَ العزاء ! وفي هذه العشية نراه يتصاغر كأحقر ما يكون العبد ، فيغسل أقدام الإثني عشر ، وبينهم واحد سينكره ثلاثاً قبل صياح الديك ، وآخر سيبيعه بثلاثين من الفضّة !

ويرجح ، في خاطري ، انه تبوأ العظمة لا مرتفعاً على الصليب ، فهو من أجل الصليب تأنّس ، ولا جالساً عن يمين الآب ، فذاك مكانه منذ البدء ، بل مكباً على أرجل التلاميذ . ذاك هو يسوع الذي يقول فيفعل ، أو يفعل ولا يقول ؛ ومن هنا كان وجوده ماهية نفسه ، وكان بهذا السبب أول الوجوديين . أقول هذا واستغفر الله . فقد خطر لي بحكم تداعي الأفكار جان بول سارتر وأشياعه .

ولكن الذي غسل المجدلية من آثامها بنظرة واحدة قمين بغسل أولئك الوجوديين من أقذارهم .

الكتبة والفريسيون يحبون السلام في الأسواق ، ويتصدرون المجالس في المجامع ، ويتبخترون قبوراً متحركة مكلسة ، في مشيتهم زهو ، وفي خدودهم تصعير ، وفي أعناقهم صَيَد . وتراهم يحمّلون الناس أحمالاً ثقيلة ولا يمدّون اليها إصبعاً ، بل يبسطون أرجلهم للناس منّة واستكباراً ، فينحني عليها البلهاء متبركين متدافعين بالمناكب تدافُعَ الأيتـــام في وليمة عرس ، ويأتي المسيح فيضرب فروخ الآلهة – أو الأقزام الذين داخلتهم روح لوسيفورس ، فجرت منهم مجرى الدم والنفس – ضربة قاضية ، وهكذا ترى ابن البشر الذي افتدى الإنسان بدمه ينحني على أقدام هؤلاء الضعفاء ، فيكرّم الإنسانية فيهم بما هم بشر على صورة الله ومثاله ؛ ويستوي لديه ، بهذا الاعتبار ، صيّاد السمك والأكّار وراعي الشياه .

المسيح لم يستكبر على المساكين بل دعاهم أخوته ، ووعد الحياة الأبدية من سقاهم كأس ماء بارد من أجل اسمه ، ولكنه استكبر على هيرودس الذي قطع رأس يوحنا ورفعه صبيغاً بالدم العبيط هدية الى بغيّ ، فبعث اليـه قائلاً : ايها الثعلب اني لا اخافك ! ولما كان في طريقه الى الجلجلة ضنّ بالجواب على اسئلة هيرودس علماً منه بأن الصمت هو اقطع الاجوبة وأقتلها للخيلاء المستكبرين. الفريسيون والكتبة يتقنون العظات ويثرثرون ما شاءت الثرثرة ، ويحدّثون الناس بالناموس والحق والطريق والحياة ، وما صدفوا عن شيء صدوفهم عن الحق ، ولا زاغوا عن جادة زيغانهم عن الطريق . أما الحيـــاة فقد جمّدها ناموسهم كما جمّد صقيع الليل طائراً طوّحت به الريح فألقته الى غدير ضحل ، فتلاقى عليه الظلام والجمد فأصبح طائراً محنّطاً .

ألا ترى ان اولئك اليهود جاؤوا في الليلة العظيمة « بيسوع من عند قيافا

الى دار الولاية ولم يدخلوها لئلا يتنجسوا فيمتنعوا عن أكل الفصح » ! فيا عجباً لأولئك الناموسيين يخافون الرجس ويقتلون يسوع، ويتذمرون عليه لأنه شفى المخلّع يوم السبت ! ولو سقط حمار أحدهم في هاوية لما تحرّج من انقاذه هازئاً بقدسية السبت ! وهكذا تكون الأولوية للحيوان في معجم الناموسيين ، أما الانسان فليمت !

وبديهي ان تختنق كلمة المسيح بين اليهود وتزدهر عند الوثنيين : فهناك الأرض السبخة الموات ذات الصخور النواتىء ، وهنا الثرى الندي البكر يتلقى البذور فتنفتح للحياة، فاذا هي الرياض والحدائق الفيّح تقع الطير على ادواحها، فتعندل العنادل، ويهدل الحمام، وينطلق الجمال من اللهوات بكرةً وأصيلاً .

وإذن فالعشاء السري وطّد المسيحية على ركنين هما الوداعة والمحبة ، ولعلهما الأصلان وعليهما تفرّع كل خير . لذلك يجدر بالمسيحي ان ينحني لا أمام الاله المنتقم ، أو الكائن الأسمى ، أو مهندس الكون الأعظم ، بل أمام الإله الوديع اللامحدود الذي بلغ منه الحب مبلغاً غير محدود . وكأنه لم يكفِه من الضعة ولادته في مذود ، ودنوّه من العدم ، وتمرّسه بالفقر حتى لا مكان له يسند اليه رأسه ، فارتضى ان يولد يهودياً ، ويعيش في الناصرة « وما في الناصرة شيء صالح » ، وان يلقى من خاصته ما لقي من الهوان حتى الموت...

تحت رحى المعصرة ببستان الزيتون :

ثم خرج وتلاميذه بعد العشاء ، ومضى على عادته الى جبل الزيتون ، مرّاً بوادي قدرون ، حيث مرّ داود لعشرة قرون مضت يصعّد في « عقبة الزيتون باكياً ورأسه مغطى ، وهو يمشي حافياً وجميع الشعب الذين معه غطوا كلٌّ واحد رأسه وصعدوا وهم يبكون » . بيد ان بين عبور الجدّ والسبط فارقاً مقداره فرقُ ما بين الارض بشهواتها واطماعها واقذارها وبين السماء بصفائها وعلوها وجمالها .

فهناك هارب من الدنيا الى الدنيا تكفيراً عن آثامه ، وهنا إلهٌ يعتزل تأهّباً للصلاة والموت فداءً عن بني البشر وتكفيراً عن آثامهم ؛ هناك تائب يقول : « تنضحني بالزوفى فأطهر وتغسلني فأبيض أكثر من الثلج »، وهنا الرب الذي يطهّر الزوفى ويبيّض الثلج ؛ هناك ابن يسّى القائل : « بالآثام حبل بي وبالخطايا ولدتني أمّي » ، وهنا الذي حبلت أمه من الروح القدس « فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سويّاً ، قالت : إني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيّاً ؛ قال انما انا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيّاً؛ قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيا، قال كذلك قال ربك: هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمراً مقضيّاً » .

•

ولقد أتيح لي ، في أسبوع الآلام ، ربيع ١٩٣٣ ، يوم كنت أشكر الله على العافية كما أشكره اليوم على المرض ، ان أعبر وادي قدرون وجبل الزيتون ، لا هارباً ولا مصلّياً ، بل متفرّجاً لا يبصر إلا من خلال عنفوان الشباب وزهو الفتوة ، فلا يرى في وادي قاديشا السحيق غير مسيل ماء ، وفي قنن الأرز الا مباسط الثلج في الشتاء ، ناسياً أنهنّ مطالع الأضواء وجارات السماء. لذلك نظرت الى وادي قدرون نظرةَ مجاور النيل والأمازون الى نهر ابراهيم ، او هي التفاتة الإهدنيّ الى جبل المقطّم .

وبين الوادي المحتوم ، والجبل المزعوم ، اعترضتني كنيسة الجتسمانية فولجتها، وما راعني في صحنها الا صخرة ناتئة تمرّدت فكفّت عنها يد الانسان، وصدّت عن الإزميل لتبقى كما كانت يوم اتخذها يسوع مركعاً فخضبها بعرقه المتحدر كنزيف الدم ، فأدركتُ حينئذٍ في دورة بال وقشعريرة خاطفة ان المكان تبعٌ للانسان ، وان هضبة الزيتون تلك فريدة في الآكام ، وانها سيدة الربى ما دام المسيح قد ارتضى ذلك اليفاع مسجداً ومصلّى ؛ فطوبى للتلعة الوديعة تحسدها قمم الهمالايا لان عليها جثا الناصري ، ومنها انطلق الى الآب

بعد القيامة ! وسايرتُ رفاقي الى جبل الصعود ونفسي تشدّني الى الجتسمانية ، وذاكرتي تعود بي الى نحو الف وتسع مئة سنة عبرت، فأتخيّلني في عشية الجمعة العظيمة مسمّراً في ذلك المكان ، مستغرباً ارفضاض التلاميذ عن المعلم ، مزدرياً خساسة يوضاس ، وكنت يومئذٍ في ربيع الحياة لا أرى في الدنيا إلا ورداً قانياً ، وروضاً أحوى، وزنابق ناصعة ميّادة السُّوق لفرط ما تلبّد عليها من البياض . ولو كنت قد تمرّست بالألم وعرفت الدنيا معرفتي بها اليوم ، لانتهك الحجاب الذي ران على بصري فرأيت البشر كما هم ، لا من خلال الذات ولا من وراء « النومين » Noumène الكنطي ، ولكنت التمس للرسل عذراً بعد ما علمت من جبن الناس وتغيّر الاصدقاء في الشدائد، وأمعنت في الصفح واغتفرت للإسخريوطي زلّته لو لم يكن الا سارقاً ، فان العفو عن اللصوص أيسر منه عن البخلاء . فلقد جاء في الانجيل الطاهر : « من يجدف على الروح القدس لا يُغفر له » وكذلك القول في الخائن اللئيم .

الا ترى ان احد اللصين احتدمت فيه جذوة الخير فانكشف عنها رماد الشر الذي غطاها طول الحياة ، فقال ليسوع : « يا رب اذكرني متى جئت في ملكوتك ! » وهكذا صعد اللص الى النعيم وهبط التلميذ الى الجحيم . الا قاتل الله المال الذي ينتزع من الاغنياء انسانيتهم ويستلب ما في صدورهم من المناعة فيبتليهم بالتدرّن المالي ؛ وأسبل الله على الصناديق ستراً من لدنه تعالى ، فطالما كانت شؤماً على حرّاسها واصحابها ! من أجل هذا كان اسم يوضاس بالذاكرة اعلق وبالخلود اوثق ، فله في كل زمان تبع ، وفي كل مكان شِيَع .

خاتمة المأساة :

وكان على المسيح ان يتألم قبل ان يدخل الى مجده كأنما الألم هو الجسر الأوحد يعبر عليه التوّاقون الى المجد ، وكأنما قام على ذلك جابٍ فظّ غليظ

يتقاضاك الضريبة . وتتنوع الجزية فتكون مضجعاً قلقاً ، وهمّاً مقيماً ، وداءاً لا يُرجى معه شفاء . وتكون زهداً بالمنصب ، وتنكراً للدنيا وتعبداً للخير ، وتكون عزوفاً عن لذة ، وانقطاعاً الى الله ، وصبراً جميلاً على بليّـــة . وتكون اكليل شوك ، واحتمالاً للهزء والبصق والصفع ، وتقبّلاً للسياط تخدّ الجسم خدّاً فتخطّ فيه خطوطاً زرقاً ، وتفجو اشــلاماً وردية ، ترِدُ المناكبَ والتراقي ظِماءً سوداً كأذناب الأساود ، وتصدر حمراً عليها رشاش من الدم واللحم النثير . فاذا جاوزت الإتاوة كل هذا عُلـّق البريء على خشبة العار ، ونفذت المسامير في الكفين والقدمين ؛ واذا فتح الذبيح فمه يستسقي بعدما انتفخت اوداجه ألماً ، وجحظت عيناه وجعاً ، وتشظّى لسانه عطشاً ، جادوا عليه بقطرة خلّ مرارُته مرارة العلقم ، ثم طعنوا جنبه بالحربة لئــلا يُخطئه الموت .

ولا تغبط الذين جهلوا أيَّ نوع من ضروب الألم على نعيمهم ، فانهم – مهما تمادى بهم العمر وعلت بهم السن – أطفال واقفون على باب مدرسة المجتمع . انهم في الحياة لا في الوجود ، أو أشخاص بالقوة لا بالفعــل ، إذ لا بدّ للفعل الخالق من ألم يرافقه ، تلك هي سنـّة الله في المخاض والولادة .

القيامة المجيدة، العيد الكبير :

مات يسوع ميتةً منقطعة النظير لانه لا نظير له . مات وهو الحياة بالذات، وكفـّر عن الخطايا وهو الطهر بالذات ، وتواضع حتى العدم وهو ابن الله . فكان لا بد له من أن يقوم قيامة منقطعة النظير فيغـدو القبرُ الممجـّد – وهو بضعة أشبار من الأرض – مُلتفَت أهل الأرض والسماء معاً ، ترتاده الملائكة ، قبل الناس ، فيتجلى منهم اثنان للمريمات المبكرات حاملات الطيب فيقولان : « لماذا تطلبن الحي بين الأموات ! »

وطوبى لكِ ايتها المجدلية السبّاقة الى الضريح، فما أعظمَك بين النساء! ان رجلَ يسوع التي مسحتِها بشعركِ ، عند اللقاء الأول في بيت العشار ، طهّرتك من قمة الرأس الى أخمص القدم ، فأحرقت كل ما فيك من الشرّ فاذا انتِ الحب القدسي المجنّح يمشي ، الحب الذي يبتدع العجائب فيجعل من بغيّ المجدل قدوةَ القديسات ، ومن خادمة الشيطان أمَـةً للمسيح ؛ ويفجر في قلب أغوسطين الفاجر ينبوعاً للخير يغمس فيه قلمه فيكتب للنـــاس بلغة الملائكة ؛ ويتخذ من شاول الفريسي ، ألد اعداء الانجيــل ، إناءً مصطفى يكمل الانجيل ، وتحتدم المحبة في احنائه فتجري على يراعه كَلِماً تكاد تحرق اليراع ، اذ يقول في رسالته الى أهل كورنثوس .

« لو كنت انطق بألسنة الناس والملائكة ولم تكن فيّ المحبة فانما أنا نحاس يطن او صنج يرن ، ولو كانت لي النبوّة وكنت اعلم جميع الاسرار والعلمَ كله ، ولو كان لي الايمان كله حتى انقل الجبال ولم تكن فيّ المحبة فلست بشيء » الى آخر هذه الرسالة العجيبة .

« فقال يسوع يا امرأة لمَ تبكين ، من تطلبين؟ فظنت انه البستاني ، فقالت له : يا سيدي ، ان كنت انت حملته فقل لي اين وضعته وانا آخذه . فقال لها يسوع : مريم ! فالتفتت وقالت له : رابوني ! الذي تفسيره يا معلم . فقال لها يسوع : لا تلمسيني لاني لم أصعد بعد الى أبي ، بل امضي الى اخوتي وقولي لهم اني صاعد الى ابي وابيكم والهي والهكم » . رويدكِ ، يا مجدلية ! لا تلمسي يسوع فان الجسد الذي مات مهاناً قام ممجداً « لقد جُعل الانسان الاول آدم نفساً حية ، وآدم الآخر روحاً محيياً ، ولكن لم يكن الروحـاني اولاً بل الحيواني وبعد ذلك الروحاني، الانسان الأول من الأرض ارضي والانسان الثاني من السماء سماوي » . ان ناصري اليوم غير ناصري الامس المتميز في الزمان والمكان ، على انه ليس بالطيف ولا بالشبح، وعند توما الخبر اليقين . ان يسوع « ابن يوسف النجار » غدا السيد المسيح الذي تجلى على الطور بين موسى وايليا،

وان الايام الاربعين التي قضاها على الارض بعد القيامة تنازعتها الارض والسماء ، فهي برزخ بين الزمن والابدية .

وعما قليـــل سيمضي المسيح الى حيث جاء ، فيتنزّل الروح القدس على التلاميذ ألسنة من نار، ويستمر الشرر المتطاير من تلك الألسنة ممتداً الى القلوب المنفتحة على الخير فيضرمها حتى لا انطفاء لها . ولا تحسبنّ اصحابها كسائر الناس ، وان هم ظهروا كذلك في بادي الاجواء الروحانية التي تبقى حرَماً على غير الانفس المجنحة ، يرون من الاعالي ما يستغلق على الحكماء وأساطين الفهم . حقاً ان لمثل هؤلاء البسطاء ملكوت السموات ! فأين عبقرية فولتير من بساطة جان دي فياني كاهن آرس ؟ واين فلسفة كنط من سذاجة شربل مخلوف ! تلك هي ثمرة القيامة لمن تذوّق طعمها ، وانما تـذكارها والربيـع توأمان : ففي الربيع تقوم قيامة الارض فتنشط من عقالها وتنفض عنهـــا أكفانها ، وتتمخض فتلد كنوزها الدفينة وتفترّ عن الورد والآس والنيلوفر ، ويهتز الثرى فيربو ، وتضحك البراعم على الغصون ، وينوّر الزهر وتنبسط الاوراق مطارفَ خضراً .

وما اخطأت روسيا الامس ، التي اطلعت امثال دوستويفسكي وتولستوي وبردييف ، اذ اعتبرت عيد الفصح اكبر الاعياد ؛ ولا اخطأ اجـــدادنا نحن القرويين بتسميته العيد الكبير ، وما كنا نعرف له اسماً آخر .

●

اكتب هذا والقلم يتلجلج في يدي ، فأسلخ من عمري نحو خمسة واربعين حولاً، ويأخذني الحنين الى الصبا فأتخيلني ساعياً مع أترابي الى ظاهر القرية ، في صباح يوم الجمعة العظيمة نجمع الاقحوان والبنفسج والريحان باقاتٍ نضعها على قدمي الصليب ثم نهتف مع المصلين :

بريخ مور حاشوخ دهوه حلوفين مطولوتخ بحاشوخ موران

مباركة آلامك يا ابن الله ، مبارك تواضعك لاجلنا الخطأة

وتأزف عشية الاحد فنُعدّ البيض ، ونفتنّ في صبغه ألواناً متحلقين حول القدور ، حتى يقرع الجرس ، في منتصف الليل ، فنتدافع الى الكنيسة وقد نوّرت بعد ظلمة ، وازينّت بعد عطل ؛ ويهتف كبارنا وصغارنا : مشيحو دقوم من بيت ميته اتراحم علين أيها (المسيح القائم من بين الاموات ارحمنا) . ويخرج الحشد من البيعة ، ونكون نحن الفتيان اول الخـــارجين « فنتفاقس » بالبيض المصبغ أمام الكنيسة على ضوء قمر نيسان .

اما الكبار فكان واحدهم يصافح صاحبــه فيقول : المسيح قام ! فيجيبه الآخر : حقاً قام ! ..

بيروت في ٢٦ من آذار سنة ١٩٥٥

إلى الخليلَيْن

سعيد عقل وخليل رامز سركيس

اخي سعيد ،

في هذا الصباح طويت كتابك « لبنان ان حكى » . ولئن وسمته انت بهذا العنوان ، لقد حرت أنا في تسميته . فخطر لي أن أدعوه السفر ، لان فيه من هيبة المزامير والجامعة مَشَابه ، ومن نشيد الانشاد اصداء ، على انك ، في تمجيد لبنان ، الاصيل الاحـــد ، وان جاوبت ريشتك أوتار من كنّارة داود وقيثارة سليمان .

ولقد تخيرت عنواناً آخر لمؤلفك الرائـع هو « الملحمة اللبنانية » ، لما بين دفتيه من الأساطير العجاب – ولا أصدق من الاساطير في ابداء خوالج النفس ، ولا أوقع منها أخيلة وصوراً تجسد رغائب العقل ، ما بطن منه وما ظهر – ذلك فضلاً عن النفس المديد الذي أوفيت فيه على الغاية . فان الشاعرية قد تحيزت فيك حتى جرت منك مجرى السمع والبصر ، فما يجديك ان تفرط سلك الجمان ، اذ اللؤلؤ يبقى هو اياه منظوماً كان أو منثوراً .

وما ضرك انك أدرت الملحمة على أبطال تكاثروا . فلئن تشعبت الروافد ، فانما المصب واحد : لبنان الذي غنيته فاغنيته بالدرر تصيدها من أغوار الزمن ،

ثم ترصّع بها البلد الملهم من سِيفه الذهبي الرمـــال الى ذؤابات صروده ، دارات النجوم وأخواتها .

اما آيتك فهي استنقاذ الجواهر التي عفّاها التاريخ ، وعرض اليواقيت في حلى ترى أطرف ما تكون الطرافة . بلى انك استخلصت الكنوز من الضرائح ، وقد رخص الأدب وأصبح جمال هذا البلد مشاعاً للخيال الكسيح ، ومُرتاداً لمرضى الهذر . فاكثر من استطاع ان يضم حرفا الى حرف ، أو يلائم بين رويّ ورويّ يأخذه التغني بماء الجبل وهوائه ، فان تعذر عليه وصف الماء كوثراً رائعاً ونطافاً جمانا ، أو نسج الهواء غلالة سحرية تلف لبنان من مسارح الأنسام من قننه الى ملاعب الامواج في شطآنه ، عمد الى الأرز يصفه بالخلود وما يزيد . ومعلوم ان هــذا النعت وأمثاله قد تبدّلت حتى تداولها الشاعر والزاجل والأكّار وراعي الضأن على السواء ، فما أهزل الخيال وقد هوى الى صعيد مشترك يستوي فيه النسر والسلحفاة ! وما اهون الأرز على الأغبياء من عشاق الصيت يتخذون من غصنه الأملود عكازاً ، ومن جذعــه الصليب معراجا ، بهما يتوسلون الى مراتب الشهرة الجوفاء .

ولقد فات نخبة من أعلام البيان انفسهم ان عرض مباهج الطبيعة ، سرداً مجرداً ، لا يزيد في منزلة الأديب زنة خردلة . فتصوير الطبيعة كما هي لا يعــدل الا رسما شمسيا تلتقطه عدسة مصور عابر ، او نسخة عن صـــك عتيق مذيلة بعبارة « طبق الاصل » . ولو فطنوا لأدركوا ان الأديب الحق يضفي من نفسه على الطبيعة ، فيبعثها خلقاً جديداً ، حينئذ تختلج الحياة في الحجارة فتصير مثل الخبز .

فلله انت ، يا سعيد ، اذ نفضت القديم فجعلته طريفاً ، واطلعت الأنوار من الغياهب ، وكأنما رُفعت أطباق الثرى لخيالك الأفيح ، فتكشفت الرموس عن ارواح مجنحة تكاد تسمع غادية مـــع المواكب ، خافقة على السفين بين صور وبيبلوس ، او خلف اعمدة هرقل ، او سائلة على الظبى في مواكب هنيبعل .

ان أمجاد لبنان المعرفة كانت ، قبل ملحمتك ، تحفاً منثورة ، فنسقتها في كتاب . فكان لك فضل المؤلف الذي يأخذ حروف الهجاء ، فيستنبت منهـا الصوت والنغم والمعنى الجلل ، او المهندس الذي ينتزع الجلاميد من المقالع يشيد بها نظير قلعة بعلبك . على ان الفكر الذي افرغتـــه في قالب الجمال ابقى على الدهر من هذه الشوامخ – على عظمتها – لان بناتها انطقوا الجماد ، وبين يديك هتف الحرف بانسانية الانسان .

اما الطبيعة فما خشعت لها خشوع الهنود قد اخذتهم رهبة الغاب فكان بينهم وبين حيوانها ونباتها أخوّة هي الى الحلولية ادنى. ولا بهرك جمال الطبيعة فتعبدت لها فعلَ الأغارقة . بـــل اشعت فيها المحبة شرط ان يكون الانسان المنبثق من الله قطباً للطبيعة ومداراً للحب والجمال .

بعد هذه الكلمة العجلى ينبغي ان اضع بعض النقاط على بعض الحروف ، دفعاً لتهمة المدح المجرد . وها اني في سبيل براءتي أتزمّت ، فآخذ عليك بعض الهنات الشكلية . ولو اخذت قلمي بمثل هذه الشدة ، في ما بناه قلمي ، لتصدّع من الحنايا والرواشن ، بل من الأساس ، شيء كثير . وما تلك الهفوات بإزاء القصر الذي شيدت سوى هبوات غبار عالقات ببعض ادراجه وشرفاته .

فمنها قولك (صفحة ١٢) « لقد تعرفت اليه » ، وانت تريد : « تعرفت به » . و « طيلة حياتك » ، والصواب : « طول حياتك » لان الطيـــلة هي العمر . و «لكنه قد لا يكون» (صفحة ١٧) ولا يسوغ النفي بعدَ «قد» . وفي الصفحة ٣٧ «وتقصد لوحدها» والصواب « وحدها » لان اللام لا تد خـــل على وحـــد . وفي الصفحة ٥٧ « يجترح الاعجوبة » ويقال « اجترح الاثم » . و «يصمدون» بمعنى يثبتون، ولم ترد صمد بهذا المعنى. وكذلك القول في «اركنوا الى الفرار » . وفي المقطع الاخير من الصفحة ٦١ تكررت لفظة « الامد » لغير موجب ، فقلت « طال عليهم الامد لطول امد الحرب » وبعد اربعة اسطر

قلت : « ان لبست سمكة الى امد » . وفي الصفحة ١٠٥ « اتفرج من داخله على مفاتن الطبيعة » ، « وتفرج على » من باب الاستعمال العامي. وفي الصفحة ١٧١ ختمت المقال بهاتين الجملتين : « ستقتلني بيدك لانك بحبنا اقسمت ، ان حبنا عظيم » ، والاولى ان تقول : « ان حبنا لعظيم» ، فالتوكيد هنا جد ضروري. وفي آخر الصفحة ١١٥ ابتدعت تشبيهاً بكراً ، فقلت : « فتاة كقلب الصبح» ، ولكن هذه الصورة الجميلة قد تكررت في سياق الكلام .

أما وقد فرغت من الهفوات النادرة ، فقد آن لي ان أدل على طـــائفة من محاسن لا تنفد . ذلك العالم الجمالي طلعت عليه يا سعيد بهذه الفاتحة الغراء :

« هنا تحت كل ترابه
مفاتن مجد
هنا الله شرّع بابه
وضمك ضمة وجد
هنا جبل لا الأساطير أشهى
ولا الشمس أبهى
أحايين يغري سهوله
بفلّ وورد
احايين يلعب يغري البطوله
برمية نرد » .

وانها لهالة من المجد والوقار صوّنت بها شيخ الجبال ، فحيّزته في الزمان والمكان . ثم أتبعت هذا المستهل النظيم بشعرك المنثور شائعا في سواد الصفحات من كتابك . فدسّمته بالفكر الوثيق وأيدته بالفلسفة الكلاسيكية ، ومن الجدة خلعت عليه مطارف لا تبلى .

فحددت الادب في سطر اذ قلت : « الادب ؟ انه حبس الدهر في عبارة •

جرعة خمر ، جرعة واحدة ، وتكون سكرة العقل » . وقلت في المدخل الى لبنـان : « هنا ولد او قال او عمل نفر من آلهة المعرفة . التطواف في هـذه الصخور، او تلك التلال. ليشيلنّ بك الى النجوم، او يملّكنّك الدنيا في لحظات».

ثم وطأت لمولد فيثاغورس (صفحة ١٣) بوصف رائع حتى ليكاد القارىء يستهين بكل مهد للفيلسوف حاشا صيدون ، وختمت هذا الفصل باغنية انطقت بها والدة الفيلسوف وجسدت بها لبنان المعرفة ، فما انفس هذه الكلمات :

« لبناني انت يا بني
في صيدون بالذات ،
في سفح جبل الطيوب ولدت
لبناني انت يا بني
وهو ، ولو حقد علي الاغارقة ،
لقب يفخر به هوميروس
اب الشعراء . »

بعد ذلك تغزلت بلبنان، ملاذ الحرية ، فجعلت فيثاغوروس يسأل « — حقا في لبنان وحده حرية ? »

وبديهي انك تريد لبنان اليوم الذي تتنفس فيه الحرية ولا يُكمَّم لها فم، ولا يشد على جيدها خناق. كما انك تعني فئة برأسها ممن يعاصروننا، اولئك الذين يعيشون على التوافه ، حين تقول بلسان المعلم : « بـلى فلنبكه ، فلقد مات اكثر من الاموات » . اما في الصورة التي ابرزت فيها الفيلسوف « كانت تعاليمه صعبة لكنه كان يغلفها بعذوبة ساحرة » الخ ، فاظن انك عنيت نفسك . وكذلك صورت ذلك مرة ثانية عندما تحدثت عن التعليم وعلو شرفه بلسان الشاب الذي اسس مدرسة في الجبل ، وذلك في الفصل الموسوم بـ « معلمو معلمي العالم » .

ولا يخفى على مستنير ان جزءاً — على الاقل — من المؤلف يظهر في مؤلفه ، سواء أكان ذلك عمدا ام كان على غير عمد ، اذ التعبير ينبع من العقل الباطن فيجري به القلم ولا يتعثر العقل .

وما تعديت الفكرة السائدة في العـــالم القديم اذ قلت : « المجد للمرأة في الارض وفي السماء ، انها لتجعلنا نفقه معنى المرأة العظمى التي ندعوها الطبيعة » .

بلى هكذا كان في البدء ، فاول المعبودات هو القمر باعتباره انثى مخصبة ، وان بينه وبين المرأة لنظائر منجهة اختفائه مرة فيالشهر واختفاء المرأة في إبّان طمثها اذ تعتزل الناس قسراً فتنتبذ مكانا قصيًّا . ثم ان القمركان مصدر اشتقاق للإٓلهات والكاهنات وكلهن يرمزن اليه او يخدمنه ، ولا عبرة باختلاف الاسماء تبعاً للازمنة والامكنة . وانما ارطميس وعشتروت وافروديت وعشتار وايزيس ونانا وديانا واللات والعزى ومناة واخواتهن قـــد صدرن عن منهل واحد هو المؤنث المعبود المنطوي على الخصب والسحر والجمال .

ولقد ابدعت ، يا صاحب قدموس ، ايما ابــداع في فصلك الموسوم بارض الابطال ، تغني بها زحلة . فكنت مؤرخاً وأسطورياً وشاعراً في مقام واحد ، تناولت من أفواه العامـــة الأغنية الشائعة : « زحلة يا دار السلام فيك مربى الأسودي »ونسجت حولها ما شاء لك الخيال الوحّد والتعبير المعجب ، فاستهللت بهذا المقطع صفحة ٢٣ :

« مدّها بهذا النهر ، شريطة من لجين ولا اجمل ، تترقرق وسط الشجر الملتف . فاستطاب الرومان عليها صيد النمر ، وطارت لها شهرة الى اقاصي الامبراطورية ، فقصدوها من هليوبوليس وبيروت وربما من ابعد وقنصوا على حواشيها ورقصوا وقصفوا » .

وفي الصفحة ٢٥ جعلت السماء ترحل عن كتف اطلس وتنهار منها حفنة من تراب ، ويحتفي الوجود بأرض الأبطال .

أحببت بلدك فأطلعته مطلع الشهب الثواقب، وأنزلته منزلة النيازك من سماء الدنيا ، وعرضت الزحالنة أوجز ما يكون العرض وأبلغ ما تكون البلاغة اذ قلت : « إنهم فرسان وأسخياء ومقـــاديم وشعراء وصناعيون أين حلوا حلت النخوة والعمل المبدع والكلمة الأنيقة وبسطة اليد والشرف » .

بعد هذا سأعجب اذا تقاعد اولئك الميامين الانجاد عن صنع تمثال لك يُركز على مدخل الوادي . وإنه لشيء يسير أن يدوّن الإزميل في حـيّز من الأرض محدودة ما نشره أخوه القلم في كل بلد لاهج بالضاد، فغنّى ما لزحلة من غرّ المآثر حتى ليتمنى كل من قرأ « لبنان إن حكى » أن يكون له وطنان ، بلده وزحله.

أمـــا في فصل هوميروس ، فقد مهدت لمولد أبي الملاحم كما يمهد لمولد إله ، إذ قلت :

« ويقال انها وضعت في ظمئها الى سماع الشعر من الشوق والحرارة مـا جعلَ الاقحوان الذي على الضفة يتجمع ويزورها رتولاً رتولاً. كذلك توقفت على الأفق جمهرة النجوم وأخذت تهبط على الطفل حاملة أغاريد الفلك العظيم » . (صفحة ٤٨)

وان حكمك لعادل في صدد الامبراطور الكسندروس ساويروس اذ تقول: « وتكون محاكات ومشاهد فاجعة يتغلب فيها المظهر ، التافه العملاق الجثة يفضل على العظيم الذي غزا الدنيا بمناقبه » .

ما في ذلك غرابة يا صديقي . فتلك طبيعة الغوغاء بالامس البعيد واليوم وغداً . الا ترى ان خادم رئيس الكهنة الذي صفـع المسيح كان في نظر انداده أقوى من يسوع نفسه ؟ فان المرء حين يتفلت من حكم الوجدان الادبي لا يلبث ان يعود حيواناً ، فيقاس بقوة المنسر او حدة المخلب .

أما فصل « الطائر العجيب »، فلم تقتصر فيه على النفحة البولسية في الكلام على برودة الفلسفة وحرارة الايمان والمحبة . ثم أبيت ان يكون الأردن الذي يعتمد فيه يسوع نهراً فلسطينياً بحتاً ، فما به من فلسطين سوى مجراه ، اما الينبوع فلبناني رائق لانه ذوب الثلج .

وأفضل ما اسديت من النصح للحاكمين خطاب عبدئيل للملك: «اما التجارة فحوّلها الى شعبك لا اليك » ، ومن المعدن عينه قولك : « لا مجد فوق مجد الخدمة » .

أما الصفحة ١٦٣، والحديث فيها عن موت الحبيبة، فلقد أشرقت سطورها بفلسفة الوجود، ثم ختمتها بسطرين من الشعر الصافي، اذ قلت : « أنت الوجود تكونين معي فانا قليل يطير ، وتذهبين فانا الفراغ الكبير » .

ولن ينسى تاريخ لبنان ما جعلته على لسان فخر الدين : « أكثر ما يقدر عليه العثمانيون ان يقتلوني ، ولكنني أكون قد عملت للبنان شيئين يبقيان ، فيبقيان على لبنان الى الابد. أكون قد جعلت هذا الجبل يرتعش برعشة البطولة. هو منذ عشرات السنين قابع لا ينفجر بجدوده . ساطلقه من عقاله ، سأبعث النار في عروق فتيانه . والى ان انكسر ويثوب العثمانيون من الوهلة ، أكون قد جعلت للبنان المعاصر سجل بطولات. العنفوان ! انه وحده منجم البقاء».

ولقد اقتصرت في الاستشهاد بكتابك على هذا القدر ، يا اخي سعيد ، ولو شئت ان ادل على مفاتنه جميعاً لاضطررت الى انشاء كتاب في حجم « لبنان ان حكى » . وبحسبي ان اشير الى الحدائق الألفاف والأدواح النضر الشوامخ ، ليستطيب الاريج نخبة من القراء الذين عصمهم الله من الزكام الادبي وجنّبهم رذيلة الحسد .

أخي خليل :

أما عنوان هذه الرسالة ، فلقد أوحاه اليّ اسمك الصفة المطابقة للموصوف . فانك انت الخليل اسماً وفعلا . وتراني جعلت الخطاب على صيغة المثنى وانا اعني ما اقول ، خلافاً لما جرى عليه القدامى يخاطبون المثنى ويريدون المفرد ، او الجمع ، او اقامة الوزن العروضي . فمن هذا القبيل قول الشاعر :

« افيقا خمار الهم جنبني السكرا وسكري من الأيام جنبني الخمرا »

كتابك « ايام السماء » ، يا أبا رامز ، يقع في زهاء مئة صفحة من القطع الوسط .

ولقد توهمت حين تسلمته اني سأفرغ من اطلاعه في ساعات معدودات ، وان مثله في الحلاوة مثل الفاكهة تؤخذ بعد الغداء . فاذا انا حيال قارورة من الفيتامين لا تشرب الا بالنقاط مقطرة وعلى التراخي . ففي كل عبارة منه وقفة للمتأمل ، وفي كل معنى افق مفاجىء يؤهب لِمُطَلّ جديد .

واني لأذكر مغتبطاً انه يوم تخيرتني لتصدير كتابك « من لا شيء » ، قلت في المقدمة ما هذا بعض نصه : (وبين العين وهذا المؤلف مشابه ، منها صغر الحجم ، فان الحدقة التي في مثل جرم الزمردة لتتسع الأفق العريض ، ومن ورائه عمود الصبح الاشقر الذوائب ، فتكتحل بالمباهج وتلملم حواشي الحسن . كل ذلك يتم في لفتة يسمونها ارتداد الطرف او دورة المحجر ، يقابلهما في مقالنا هذا ومضة الريشة أو خلجة القلم) .

ويظهر لي الآن أن روائعك تزداد نفاسة كلما صغر حجمها . فشأنك شأن الحاذقين في صناعة العطور يكتشفونها فيستخلصون زهر البستان كله ويحبسونه في حق صغير . وأنك لتلتقي سعيد عقل غير مرة في الاتجاه الخيّر والسمو الى الذرى ، على اختلاف السبل وجمّ الفوارق . فصاحبنا شاعر تشع في نثره الألوان ،

وتزدحم الصور، وانت بذلك ضنين الا في النَدْرَى. وهو يفجّر من قلمه النعوت وأنت على كرم أصلك وقلبك ويدك، في توزيع الصفات جد شحيح. فلا تنفك تجرد المعنى من كل ما ليس اياه، حتى تبرزه في الكلام البسيط الأنيق الذي يمر به الأغرار سادرين، ويهابه أرباب الصناعة، يقينا منهم بان هذه الغيد العواطل من الحلى يحسدن الجمال ما يجاوزهن احد.

أما سعيد، ناثراً، فيأبه للمعاني، وقلما يجهد النفس في الأقمصة، فيكون بعضها من ديباج وبعضها من قطن، اما أنت فلا يفارقك الحرير أبداً.

سعيد يهندس في الشعر، وهو في هذا الباب أحد. أما انت فتهندس في النثر على اسلوبك الفذ. واغرب ما في الامر انك تبـــدع وتصقل ولا تترك للصناعة أثراً. فالحمد لله الذي جعلك سيداً من سادة القلم، اذ لو كنت مجرماً – لا سمح الله – لما اهتدى الى بصماتك أحد.. ولقد حاولت غير مرة ان ازعج لفظة عن مكانها، أو ان استبدل بها سواها من الكلم، أو ان أضيف اليها لفظة موضحة، فكانت الجملة تمتنع امتناع الملكة المتوجة لا تقرّ إلا على العرش.

وأحسب اني تبينت أوجه الشبه بينك وبين العلامة الكسي كاريل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول». فهو يكتشّف العلم وأنت تكتشّف الجمال البياني، وتلتقيان في العمق. على ان العِقاب في مؤلفه نواتىء بارزات للبصيرة، اما أنت فآيتك البساطة الصعبة. لذلك يجـــدر بقارئك ألا يكون عجولاً ولا طريء العود في المعرفة، بل متمرساً بمناهج البيان، مِدْرَهاً في عالم الفكر، لانك أرستقراطي القلم تكتب وكأنك تواجه نخبة النخبة.

بعد هذه الكلمة في الشكل أرى ان أدخل في الأساس.

كتابك، يا عزيزي خليل، رسالة روحية خلت من عنف أنبياء التوراة

وخشونة العهد العتيق ، وصفت صفاء العهد الجديد . فتطل أول ما تقبل على القارىء بهذه الكلمات :

« ما أكثر البراهين على الإنسان ، في الاجمال ، لا يؤمن بالإنسان روحاً وجوهراً وقبس اله ، بقدر ما يؤمن به علماً وقوة وسلطان عقل ، فكم استهان الإنسان بهلاك الآخرين ، وكم استمات من أجل مبادىء لم تستو ، في معظم الأحايين ، إلا على الجثث والأنقاض . »

وإن البصير ليدرك مدار البحث كله اذا تأمل هذا المستهل . وهل قانون الايمان بالانسان إلا الاقتناع بكونه قبساً من النور الالهي ؟ أما الإنسان العليم القوي فقد يكون آلة بيد الشيطان ، اذ ان ابليس عليم ذو سلطان . أليس المعلم ، هو نفسه ، قد دعاه سلطان هذا العالم ؟

ولقد رأيتك تحاسب نفسك حساباً عسيراً ، فتزن الكلام بمقدار ، وذلك حيث تقول ما معناه : إن الوعي لقيمتنا الجوهر يرفع المصير الى مستوى المحبة ، وسميت الداء قاتل المحبة « الآفة المزمنة ، الأثرة » .

ولطالما اخطأ سواك التعبير ، فظن الأثرة وحب الذات شيئاً واحداً . ومن هنا كانت هفوة بعض اللاهوتيين الذين أوجبوا على الإنسان أن يحب قريبه ، ويضحي بذاته في سبيل الخير ، ثم أن يبغض نفسه وينكرها . وفي ذلك ما يضحك . فما تراه يكون أجر من يضحي بشيء يبغضه ؟ وبديهي ان هذا الإنكار للذات يناقض طبيعة الإنسان ، إذ ينقسم على نفسه ، وكل مملكة تنقسم على نفسها تخرب .

واذهب أبعد من هذا فأقول أن تلك النظرة الطائشة تناقض مشيئة الله الذي أوجب على المرء محبة أخيه بذلك القلب المنطوي على أشعة من نوره . فاذا أطفأ الجذوة الالهية المتقدة فيه فكيف يحب ؟

ألا إن حب الذات واجب طبيعي . اما الأثرة فتخنق الوجدان الأدبي الذي أشرت اليه في الصفحة ١٤ قائلاً : « فيه يتجاوب الحب والنجد والفدى » . ثم ان أجل غايات المحبة المعطية هي « أن نعتق الإنسان من البؤس دون ان نسترقه بالعطاء » . وفي الزمن الذي يتنافس فيه المبشرون بالطائفية ، وهم خلو من الدين والفضيلة ، يتلاقى خلقك وقلمك في الأجواء العلى ، فتؤكد ان الروحانية المنطلقة من الوجدان لا تزال ترقى في مداه حتى يتحد المعطي والمعطى له اتحاداً يتعدى الطبقة والعِرق واللون الى كل ذي سماح ، على انه شريعة حياة وحق معاش . فاذا ابن آدم حينئذ آدم جديد ، صنو المرتجى او يكاد يكون (ص ١٨) .

وقلت في الصفحة ٢٠ : «وعلى الجملة فالآدمي المعاصر قد ارتهن جل مستقبله بضروب من المرهقات الفكرية التي تحول بينه وبين التقدم ، خلافاً لمخايل رقي عرض . وكل منا هو ، الى ذلك ، جوهر أحد . كل منا هو الوسيلة والغاية معاً، أو في الأقل ، هكذا يجب أن يكون . » — بلى أن المرهقات الفكرية وهذا التيار الذي تواضع الناس على تسميته مدنيـة ، وهو من الحضارة جد بعيد — لأن مدارهما تكثيف النفس — هذا كله ليس من التقدم في شيء ، على خلاف ما يتراءى للآليين . ومع ذلك لم تصرم حبل الرجاء لانك تؤمن بجوهر الإنسان ، وبأنه الوسيلة والغاية معاً ، فاذا لم يكن في هذا المستوى فعليه أن يرتفع ليكونه ثم ليظل منفتحاً على الآخرين . وهكذا نرى انك إيجابي ما للسلبية الى فؤادك سبيل .

وفي الصفحة ٢٣ أوردت القول التالي :

« اذن فالمطالبة بالحق والاعتراف به عمل ارادة يجـاوز الحالة السلبية الى كونه شأناً إيجابياً واعياً . وكل عمل ارادة فهو فكر يتعدى حيز المعـاش ، فيصبح الوسيلة والغاية معاً . ولانه فكر فهو حياة . ولأنه حياة فهو عافية روحية وسلامة اجتماعية .

وحيث تكون العافية الروحية والسلامة الاجتماعية تستوطن العدالة والمحبة والسماح ولكي تستوطن العدالة والمحبة والسلام مجتمَعاً ما ، لا بدّ من ازالة الموانع التي تعترض لها ولو اقتضت تغييرات جذرية في المفهوم الاجتماعي السائد، شرط ان لا ينحاز العمل الى جهة واحدة . فانه بالاستقامة التي بها يؤخذ حق المطالب (بالكسر) يجب ان يصان حق المطالب (بالفتح) أيا كان صاحب الحق ، وكيفما كان الداعي الى المطالبة . »

حقاً انك أيقظت في خاطري قياس المناطقة ، فمر ببالي اريسطو الذي اقام القياس حائلاً دون بهلوانية المغالطيين «Les Sophistes» ثم تبين لي انك جاوزت المقدمتين الكبرى والصغرى فالنتيجة الى التوليد . فالعمل الإراديّ ولد الفكر، والفكر ولد الحياة ، ومن الحياة ولدت العافية الروحية والسلامة الاجتماعية . ومنهما مجتمعتين ولدت العدالة والمحبة والسماح. فذكرتني بسقراط المشغول أبداً بالتوليد الفكري ، وهو أقرب الى الخلق منه الى التسلسل . ثم انتقلت بحكم تداعي الافكار الى انجيل النسبة، ووثبت ذاكرتي من الآتيك الاغريقي المخصب عقلاً ، المجدب أرضاً ، الى السهول التي تدر لبناً وعسلاً . فتذكرت ان بوعز خلف عوبيد، وعوبيد ولد يسى، ويسى ولد داود ، وداود ولد سليمان، وسليمان خلف رحبعام ، الى آخر السلالة .

اما قولك انه لكي تستوطن العدالة والمحبة والسماح مجتمعاً ما ، لا بد من ازالة الموانع التي تعترض لها ، فقد ايقظ في حافظتي نادرة أرجو ان تتقبلها ، وإن كان مدار الكلام على كتاب جد رصين . فأنت يا عزيزي لطِيف العشرة ، فكه الحديث ، تبتدع النكات على طريقة الجاحظ ، بيد أنك حين تكتب تحمل القارىء على الانتباه الموصول ، فتأخذه الهيبة، حتى ليهم بارتداء اللباس الرسمي « الردنكوت » .. وما هذا دأبي . فلقد كنت أواجه الموت في العمليات الثلاث والعشرين فاقابله مداعباً مازحاً . أما النادرة فهي هذه :

قيل ان أحد الشعراء — وأظنه أبا دلامة — وفَدَ على أمير كريم، فأنشده

قصيـــدة اعجبته . فكلفه الأمير أن يتمنى الجائزة فطلب كلب صيد . فأجابه الممدوح الى ما طلب . فقال الشاعر : يا أمير المؤمنين ودابة أصيد عليها . فوهبه فرساً معرقاً . فقال : وجارية تصلح لنا الصيد . فحباه الجارية . فقال : وغلاماً يعنى بشأن البيت فرفده الغلام. فقال : ولا بد لهؤلاء من ضيعة يعيشون بغلّتها فأقطعه الضيعة .

وهكذا أنت يا خليل، تمنيت للقيم العليا مجتمعاً رفيعاً اين من سموه ضيعة أبي دلامة ، ومدارها معاش يومي تافه .

وفي السطرين الاخيرين من هذا المقطع يلمـــح القارىء هدفك الى العدالة الاجتماعية ، إذ يصان حق السيد والمسود، ربّ العمل والعامل . وقد أوضحت ذلك في الصفحة التاليـــة . لكنني أخذت عليك من جهة التركيب قولك : «التجاريب التي كانت تحدوهم». ألا ترى ان التاءات في هذه العبارة قد تكاثرت ولو كنت أنا الفاعل لما حاسبت نفسي على التنافر ، فان نقطة الحبر الاسود لا تضير اللباس الفاحم، أما أنت ، يا ناسج الحرير أبيض ناصعاً ، فشأنك غير هذا.

قلت في الصفحة ٣٤ : « زور أن يدعي مندوب دولة ، أو مندوبو دول ، حق العمل باسم الانسانية جمعاء ، الا اذا سمت ضمائرهم الى الأوج الذي ينبغي ان تبلغه الانسانية لكي يتحقق رجاؤها . فمن ادعى هذه الوكالة لزمه التشرف للانسان الذي لا خليقة بدونه . تلك هي أعلى مراتب السمو . »

أجل يا خليلي ، انه لزور أيُّ زور هذا الذي يدعيه مندوب دولة ، فمثل المتكلم باسم الانسانية جمعاء مثل القائلين بحب الانسانية جمعـــاء ، غير واثقين بوطن ، ولا مؤمنين بأرض ، وهذا النوع من الحب هو ادهى أنواع البغضاء . فالحب ، فيما أعلم ، يبدأ بالأسرة ثم بالبلد الذي أطـــل منه المرء على الحياة ، ثم بالوطن كله . وكلما اتسعت الحلقة خمدت حرارة الوجد . اما الانسانية جمعاء

فلا تُحبّ الا من خلال القبس الإلهي الكامن في انسانية الانسان . تلك هي محبة القريب من خلال الله تعالى . بيد ان هنـــاك واحداً يحب الانسانية كلها ، وهو الله ، أو الأقلون الأقلون من قديسيه الألى أحبوا الكون بأسره من أجل باريه فآخوا النبات والحيوان والغمام . وعلى رأس هـذه الفئة النادرة فرنسيس الأسيزي . ولا يتبادرنّ الى اذهان الحلوليين انه منهم ، بل فليطمئنوا الى عكس هذا التوهّم ، ففي رأيهم ان الكون هو الله ، وفي رأي الأسيزي ان الله شائع في الكون على انه منفصل عنه .

وجميل قولك انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان «ولكن من لا يضمن قوت غده قلما يستمرىء طعام يومه ، كأن الأمان حده المستقبل . فلكي نطمئن ، في يوم لنا حاضر ، يجب ان نطمئن ايضاً ، الى ما بعده . فنتجه تدريجاً الى ما وراء الطبيعة ونحن على عقيدة اجتماعية صافية ، نريد رغيفنا حراً كريماً» . ص ٣٥

وذكرتني نهجاً للبلاغة جديداً اذ قلت (صفحة ٣٨) :

« في هذا كله كنت اتأمل ، وأنا من « مورس زندل » في كتاب : « هل تؤمنون بالانسان ؟ » ولقد كنت اذا شققته ، فلبّبته ، فصلاً بعد فصل ، عدت منه بزاد لم ادر ، أول الأمر ، كيف التقلب فيه . فطويته ، فألح علي ، فأديته ، فسُرّيَ عني ، وخلتني محدثاً ما ليس له ، في بابه من نظير . وربما فاتني وقتئذ ، ان الذي يسنح قوله قيل جله منـــذ ما أبطلت حكمة سليمان كل جديد تحت الشمس . »

ولقد شرحت ايما شرح الآية الانجيلية « ملكوت الله في داخلكم » بعد ما ألبستها حلة الوجودية المؤمنة ، وذلك حيث تقول : « الحياة الصميم هي الجواب عن قلق الوجود . طريقنا الحق في مصيرنا الصميم . عظمة الانسان — اولاً — في داخله . لا مصير في خارج الانسان ، وعندئذ فانـّى للمصير ان يتحكم ، ان

ما يسمى تحكم المصير ليس ، في الأرجح ، الا عذر الواني الجبان ليسوغ تقصيره عن ان يطل من الداخل – داخله – على عمق حياته » . « ص ٤٥ »

واعجبني منك هذا التحفظ اذ قلت « ان تحكم المصير ليس ، في الأرجح ، الا عذر الواني » ، فالترجيح هنـــا أولى من الجزم ، إذ ان ثمة – في بعض المواقف – أسباباً لا قوة للمرء بدفعها مهما عظم شأنه .

وأعدت الى بالي علم المعاني في التقديم والتأخير ، إذ قلت في الصفحة ٤٦– « لا يبغض أخاه بطل الايمان » ، وكان في وسعك ان تجعل العبارة هكذا :ان بطل الايمان لا يبغض أخاه، ولكن آثرت الأهم فقدمت الأخوّة ، لافتاً البصيرة الى الأخ قبل البطل ، فنعمّا .

إلا انك في الصفحة عينها اوردت ما هذا نصه : « حتى ليقال ان الدعوة الأصيلة ارتقاء من الحدث الى الحدوث . أي اطلاع على الحدوث الدائم من خلال الحدث الطارىء ، الى تجريد الحدث » وتجريد النظر في الحـدث ، مما يحجب حقيقة هذا الحدث اجمالاً وتفصيلاً » – وكان في الامكان اجتنـاب التكرار بالتوكؤ على الضمير ، كأن تقول : وتجريد النظر فيه مما يحجب حقيقته اجمالاً وتفصيلاً .

ويخيل إليّ انك خرجت عن شحنك المعتـاد في النعت ، فقلت في الصفحة (٥٠) « النمو المبتكر والشأو الطموح » . ثم يبدو لي انك تحصي الفـاظ الجمل أحياناً تهرّباً من الجملة المتوازية الاجزاء ، وأحسب ان مرد ذلك الى نفورك من السجع ، وعلى الأخص ما يتساوى منه ، وقد بلغ منك الأمر ان هربت من توازن الجمل في الموجـة الصوتية ، مثال ذلك قولك في الصفحة (٥٠) « انما هي نداء للتحرر دائم ، ودعوة الى الانشاء متجددة ، وحضور لا ينقضي يومه ابدا » . ففي الجملة الاولى خمس لفظات وفي الثانيـة أربع ، وفي الثالثة خمس .

وعظيم هو فعل الايمان بالخالق عندما يتأمل المرء نفسه ، فيدرك الله من خلال ذاته ، ويكتشف حضوره فيه . ولا بأس ان يكون الفيلسوف الوجودي غبريال مارسيل قد تقدم له في هذا الشأن بحث طويل، ولقد سبقكما الى هذه المعرفة، فأوجز، رجل لا يُسبق في مأثرة . عنيت الإمام الاعظم ابا الحسن حيث يقول : «من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

وأراك ترفقت بالاغنياء عند الكلام على الباب الروحاني ، اذ قلت : من هنا مشقة هذا الطريق على الاغنياء ـ أي العقل والإبريز ـ لان في مواهبهم تجارب لهم لا تغلب إلا بالتخلي . »

واني لأتابعك على نظرتك في ان بعض اصحاب الملايين هم على شي، من العقل، شرط ان يكون العقل الذي تعني من قبيل النوع العملي الذي يجتلب الإبريز من اقاصي الارض ، لا ذلك العقل المجرد الذي جلاه « عمنوئيل كنط » في كتابه الموسوم بـ « نقد العقل المجرد ». وإذا افترضنا وجود هذا العقل المحض، فان وهج النضار يبهره فينتشي . ولا يساوي بريق الذهب في باب المخدرات سوى الشارات العليا ، ولا سيما اذا كان لونها احمر قانياً . فيا طالما كانت هذه القرمزيات سببا في الدوار الذي اعترى لابسيها، فعمهت ابصارهم لفرط العنجهية، فنكبوا عن طريق الخير ، كما ازاغ البؤس افهام البائسين فحادوا عن جادة النعمة. واذن فالغنى المبطر والفقر المدقع كلاهما يخدران الوعي . أليس الطرفان يلتقيان ؟

ويسرني قولك حول رياضة الجسد (صفحة ٥٧) ، بيد أن هناك تنافراً في الحروف حيث تقول : « ورياضة الجسد لا تتوخى غير » الخ .. فان هذه الغين المعجمة تأتي بعد الخاء ليست بخلل يذكر لو كان الكاتب غير خليل سركيس .

وقد التقيت في الصفحة ٥٨ ، في الكلام على الاختصاص ، فئة من المفكرين

ومنهم العلامة « الكسي كاريل » في كتابه « الانسان ذلك المجهول » . على انك ألبست المعاني مطارف من القول حريرية حتى بدت خلقا جديدا ، وذلك في جملة خصائصك البيانية ، إذ تبتدع الجمال عارياً من الزخرف . وأذكر قولك لي ، ذات يوم ، في حديث على الأدب ، ان الإكثار من الترصيع لأشبه شيء بالمساحيق تذرّها الشوهاء على وجهها إخفاء لعوادي الزمن . من أجـــل ذلك أراك صدفت عن التهاويل ، وأمعنت في الجمال الغني بلاغة واناقة وبُعد شمول.

أما رأيك (صفحة ٦٢) في الفرد والمجموع ، فقد وفقت فيه بين اجتماعية اميل دركايم وشخصيانية نيقولا بردايف ، لا متأثراً هذا ولا ذاك بـــل معلناً الحقيقة من صميم الواقع .

ولقد هز مشاعري ما قلته في الدين ، ابتـــداء من الصفحة ٦٣ حتى آخر الفصل ، . وانها لعظة ينتفع بها كل مؤمن بالله واليوم الآخر ، الى اية ملة انتسب لانك سموت عن الطائفية البغيضة ، فأشعت من الكتاب روحاً علوية لا وعد فيها ولا وعيد ، بل دفء المحبة البولسية في الرسالة الى أهـــل كورنتوس . فواخجلة الألى شغلهم اللاهوت عن الله ، وصرفتهم كبرياء الفلسفة عن تواضع الايمان ، أولئك الذين تحجرت فيهم العقائد حتى أصبحت اصناماً تعبد من دون الله . ولو فكروا لعزفوا عن هذه الاوثان الوهمية وعبدوه تعالى من خلال أخيهم الانسان .

اما المتجرون بالدين من فريسيين وكتبة وقادة غوغاء فحسبهم خزياً انهم يقولون بما لا يعملون وانهم ضلوا فأضلوا .

اجتزىء بهذا القدر ، وما دللت الا على بعض النوافذ من « ايام السماء » ، ذلك الصرح الالماسي الممرّد ، الصغير في رأي العين الفخم في رأي البصيرة ، الرافع مستوى الإنسان الى الملكوت .

* * *

تلك هي الخواطر التي أيقظني اليها « لبنان ان حكى » و « ايام السماء » . وربما كان لرسالتي هذه بعض الصدى في اذهان المعاصرين من القراء . واحسب ان منهم الرجل العدل الذي يتقبّلها بالرضا . ومنهم المتذمر وما يستطيب سوى النقد اللاذع ، فهو باحث أبداً عن كباش للمحرقات ليفرّج عن كربة فدحت وجدانه . وأرجح ان بعضهم سيتهمني بالمبالغة في المـــدح عملاً بالمثل السائر : « عين الحب عمياء » . وذلك العمى انما يصح في ضرب من العاطفة احمق . اما الحب الذي اراده السيد له المجد بقوله أحبب قريبك كنفسك ، فان له بصراً حديداً أين منه بصر الشواهين .

أما واضعو تاريخ لبنان الأدبي ، بعد العمر المديد لكما ، فسيقولون : « كانوا ثلاثة يؤمنون بالفكر والجمال والقيم العلى » .

صلاة الميلاد

أيها الوليد الذي في البدء كان وبه كان كل شيء .

تقبّلني دون مذودك خـــاشعاً، ولئن أقعدني المرض فشلّ جسدي عن لثم جدار غارك، لقد طوفت روحي من حوله، لعلّ من نفَسك في جوّه بقية يستدفىء بها المقرور في عصرنا البارد .

وما أسعدني أنا البائس لو ظفرت بشرارة من المحبة التي تفجرت من مهدك الوضيع فكنت انت اياها وكانت هي اياك ، على انك بريتها بالقوة من الأزل ثم أكملتها بالفعل ساعة هبطت الوجود ، فخلعت الصورة على الهيولى ، وأتممت على البشر نعمتك فكان العهد الجديد، اذ اندفق نور من نور ، واله حق من اله حق، وهتفت أجواق الملائكة بنشيد المجد والرجاء والسلام لبني البشر .

ليلتئذ ترنّحت هضبات بيت لحم وتشوّف الرعاة من تلالهم ، واشرأبت حملانهم الى الأعالي بحثاً عن الحمل السماوي الآتي ليحمل خطايا البشر ، فتصدّع الزمن ، وتألقت الهنيهة المكوكبة فكانت في الأبدية لا في الزمن .

يا طفل المغارة ! دعني أخف اليك لا رفيق المجوس بل رفيق الرعاة فانحني دون مذودك ، وما في يدي الا عصاي اتوكأ عليها لو اتيح للمقعد ان يتوكأ ، وما في كتفي سوى كنف الرعاء ، وفيه قليل من الزاد وكثير من الاستغفار إذ ليس بالخبز وحده يحيا الانسان .

ولقد آثرت أن آتيك راجلاً في زمرة المساكين لا راكباً في قافلة الشرفاء، وفاءً لمحبتك، وإجلالاً لوداعتك، لأنك على المحبة والوداعة ركزت عرشك.

يا يسوع! هب لي من شمائل جدك، الراعي العبقري داود، صفاء الذهن، وعمق المحبة، وانسحاق الندم، وحبب الي منه مزامير التوبة، وجنّبني رغبته في الانتقام، وانصرني على نفسي، واغفر لأعدائي، وامحُ مآثمي.

علمني أن أتوسل اليك فأعبدك بقلبي، وأراك بعقلي، واعصمني من البيان الأنيق حين أصلي، فأن بساطة زهرة الحقل لأحب الي من أبهة سليمان، وطيالس الفرّيسيّين. علمني ان أعبدك بأيمان بولس، وحرارة المجدلية، وصوفية اغوسطين.

يا يسوع المسيح! دعني انشر حيال مهدك خمسة وخمسين حولاً مثقلة بالأوزار، موقرة بالرزايا، سوادها مليء بالآلام، قصير نهارها وليلها مديد، يكاد لا ينجاب من عتمته لجة حتى أبتلى باعمق منها، ولا تنكشف عني غمة إلا تمهيداً لأختها. واني لأضرع اليك ببرارة الكنعانية متسقّطاً كسرة من فتات مائدتك السماوية، فان كنت قد جعلت قسمتي من الحياة الدنيا شراباً رنِقاً، ومضجعاً قلقاً، ونوماً سهاداً، وملمساً قتاداً، فلك الحمد على الرحمة التي لا تنقضي والحكمة التي لا تدرك. وليكن لي من ذكرى ميلادك ولادة بالروح شبيهة بالتي شئتها لنيقوديموس، فأرى ببصيرتي ما لم يكد يراه ذلك المعلم في اسرائيل، واتخذ من غرفتي هذه عزلة للتأمل فيك، ومن الفراش الذي سمرتني عليه مصلّى لا مركعاً لعجز ركبتي عن الانثناء، وفقاري عن السجود، وحسبي من العزاء ان اجعل من سريري سفحاً لصليبك، لعل قطرة من دمك الأطهر تنزل علي فتنقي هذا الجسد الترابي وتشطر نفسي شطرين: واحد في بيت لحم، وواحد على الجلجلة.

٢٣ كانون الأول سنة ١٩٥٧

فهرس

صفحة

الجزء الثاني

استدراك

وقعت أخطاء يسيرة في هذا الكتاب - نجتزىء بأهمها ونترك سائرهـــا لفطنة القارىء :

سطر	صفحة	خطأ	صواب
١٩	١٨	إلا أن	ألا إن
٠٩	٢٣	البست	التبست
١٥	٤٠	أورى	أودى
١٧	٤٤	وتَلمها	وتَلمّها
١٥	٥٠	النحل	النمل
٠١	٥١	الجـَبـَان	الجـَنـَان
٠٩	٦١	فيه كتابي	في كتابي
٢٣	٦٤	ولا قهرمانة	لا قهرمانة
١٥	٩٥	١٨٣٢	١٩٣٢
٠٢	١٠٢	الثمر	التمر
»	»	الخمر والماء	الخمر واللحم
٠٤	١٣٧	ويمدّ	ويمدُ
١٢	»	زفت	زَفـّتْ
١٠	١٣٩	وظلالهُ	وظلالهِ
٠١	١٤٠	تامرَ الخلا ّق	تامرُ الخلا ّقُ
٠٢	٢٢٠	المفذ ّب	المعذ ّب
٢٣	٢٧٤	لا أنس	لا أنسى

للمؤلف

علي والحسين

فلسطين وأخواتها

الأمير بشير

مذكرات جريح

ملحمة عيد الغدير

حديث العشية

الصراع في الوجود

ملحمة عيد الرياض

تمّ طبع هذا الكتاب على مطابع دار الكتاب اللبناني – بيروت